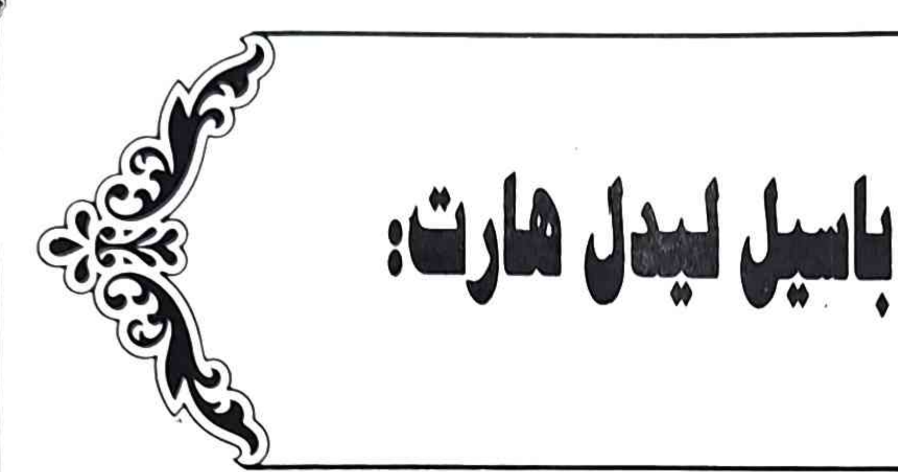
تقديم وتعريب
حازم طالب مشتاق

ليدل هارت:

التاريخ فكراً إستراتيجياً

الطبعة الاولى
بغداد - ١٩٨٨




باسيل ليدل هارت:

التاريخ فكراً استراتيجياً

تعريب وتقديم وتعليق

(مع دراسة عن ليدل هارت وفكره وعصره ودوره)

حازم طالب مشتاق

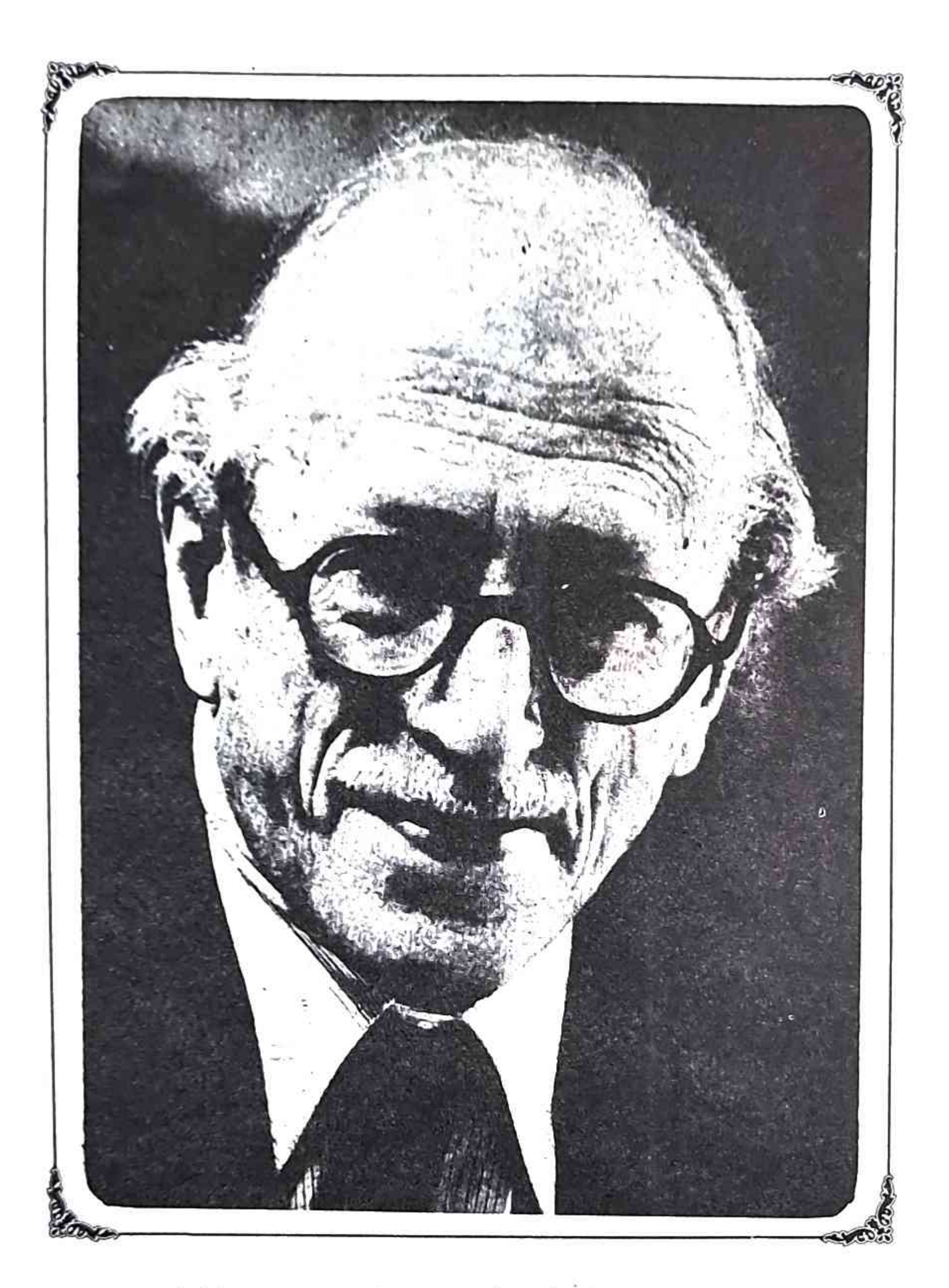
خريج جامعة اكسفورد سنة ١٩٦٠

استاذ الفلسفة اليونانية القديمة المساعد ـ قسم الفلسفة ـ كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الطبعة الأولى

١٩٨٨


م. سرمد حاتم شكر



السير باسيل ليدل هارت (١٨٩٥م - ١٩٧٠م)



الفهرست



الموضوع الصفحة

الصفحة

الموضوع

الفصل الاول

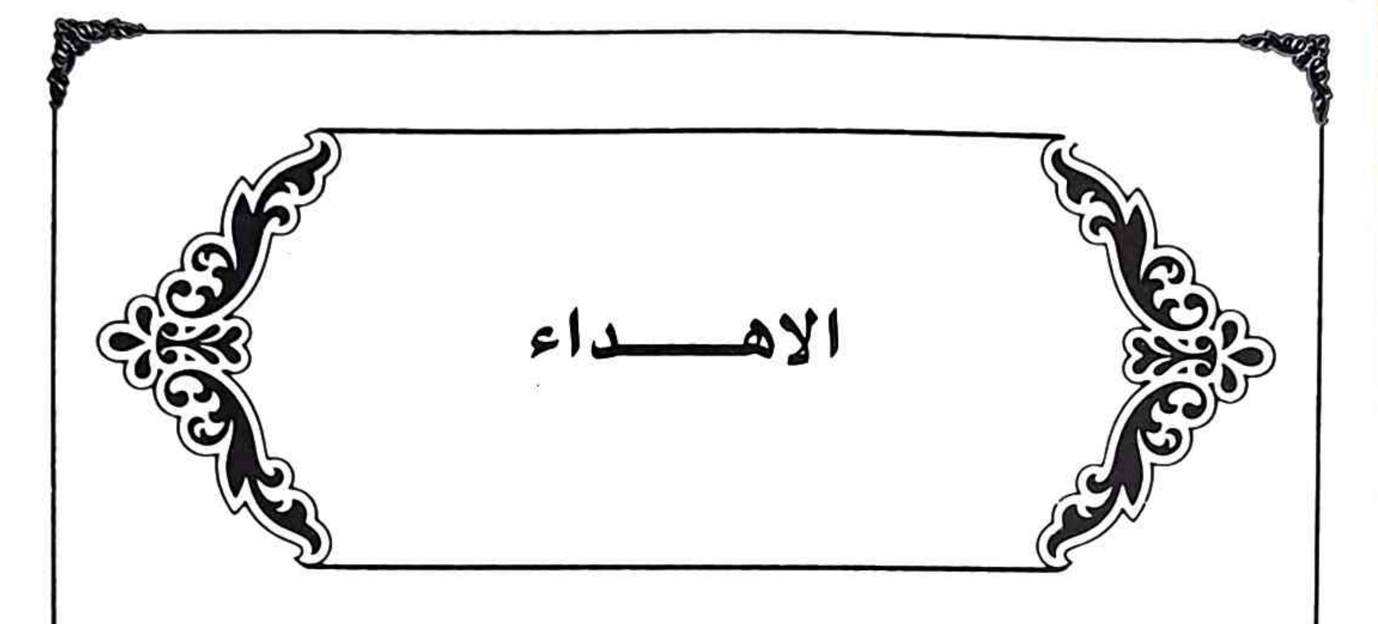
الفصل الثاني

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث

الملحق





الانتصارات لاتحتاج الى المدائح على الاطلاق. لانها حقائق واقعة تتقدم الى المستقبل، بخطوات قوية ثابتة ورايات مرفوعة عالية، واثقة من نفسها، راسخة رسوخ الجبال، شامخة شموخ النجوم. ولكنها ربما تحتاج احيانا في ظروف معينة الى بعض النصائح. قد يكون من المهم ان تدرس الاجيال الجديدة القادمة من المفكرين والاستراتيجيين والعسكريين من ابناء العراق والامة العربية كيف استرجعنا الفاو والشلامجة وجزر مجنون، وكيف فرضنا السلام فرضا على العدو. ولكن الاهم، في اعتقادي المتواضع واجتهادي المدروس، ان تدرس دراسة واعية موضوعية دقيقة وان تراجع مراجعة امينة وصريحة وقاسية، في الوقت المناسب والاوان الصحيح، كيف ولماذا استولى الايرانيون المعتدون على الفاو والشلامجة وجزر مجنون، وكيف ولماذا سقطت المحمرة في ايديهم في مرحلة لاحقة بعد ان كانت في ايدينا في مرحلة سابقة. لان الامم في المعتاد من الاحوال لاتتعلم الدروس ولاتستخلص العبر من الانتصارات، بل تتعلمها وتستخلصها من الاخطاء والهفوات. ولان الانتصارات تحجب وتكتم وتستر وتغطي الاخطاء والهفوات. فويل للمنتصر الذي يخون النصر في نشوة اللحظة العابرة، ويستسلم الى مغريات الحاضر فيتنازل عن امجاد المستقبل، ويبعد الاخطاء والهفوات عن دائرة الاهتمام ومنطقة الوعي.

وكل شيء يتوقف في النهاية على صلابة النفس وقوة الروح وشجاعة الرأي ورجاحة العقل. وهي الخصائص المعنوية الاساسية والمزايا الاخلاقية المتميزة التي حسمت النصر حسما نهائيا عن جدارة واستحقاق للعراق المقاتل العظيم قائدا وجيشا وشعبا في معركة المصير القومي وملحمة القادسية الثانية. قد تختلف الاراء، وتتباين المواقف، وتتضارب الاجتهادات. ولكن التاريخ لايرحم ولايعذر. وتبقى الحقيقة في جميع الظروف والاحوال انفع وألزم للاجيال الجديدة القادمة من الراحة او المجاملة. وقد قيل قديما ان الانسان ينبغي ان يتعلم كيف يحافظ على توازنه في الضيق، وكيف يصبر على الالم، تفوقا على الذات وتغلبا على النفس وقهرا للضعف. ومن هنا، قيل ايضا، ان الانسان الذي لايعرف كيف يتألم صامدا صامتا، وكيف يصبر مجاهدا محتسبا، لايمكن ان يتعلم درسا باقيا ولا ان يفهم شيئا مفيدا من التاريخ. بهذه الروح، وعلى هذا النحو، افاد السيد الرئيس القائد المنصور صدام حسين حفظه الله، في عبارة واحدة وجملة قصيرة، وردت في (بيان البيانات)، بيان النصر المبين والسلام النهائي، وانطوت على حكمة تاريخية بليغة رائعة، ونظرة واقعية سديدة، بعيدة الهم، مستقبلية التصور والفهم، حذرا وتحسبا واحتياطاً واستعدادا، حبا بالاجيال الجديدة القادمة من ابناء العراق والامة العربية، وحرصا على مصيرها وشرفها وعزها واستقرارها وازدهارها وأمنها، بقوله مامعناه: «لاتغفلوا لحظة واحدة عن العدو، ولاتحولوا ابصاركم وافكاركم عن جهة الشرق». وكان بحق نذيرا وبشيرا.

وليس من حق احد كائنا من كان في هذا العالم الواسع الفسيح، ان ينكر على العراقيين نصرهم، ولا ان يحرم الاجيال القادمة من المفكرين الاستراتيجيين والعسكريين الشرفاء من ابناء العراق والامة العربية من فرصهم وحقوقهم في استخلاص الحقائق واستنباط الدروس من الاخطاء والهفوات، فلا ترتكبها مجددا، ولاتكررها مرة بعد اخرى. ولعل بعضهم لايزال الان طفلا في المهد. وربما لايزال معظمهم طيفا في ضمير الغيب لم يولد اصلا بعد. هذا والنصر، هما اعز واغلى واثمن واعظم مايتركه الجيل الطليعي الشجاع المؤمن الذي قاتل بشرف واقتدار واعتزاز في القادسية

الثانية، قادسية صدام، الى الاجيال القادمة من ابناء العراق والامة العربية، «عملاً واملا ومثلا»، تراثا ابديا خالدا، وتاريخا مشرقا باقيا، لايُطوى ولايُمحى ولايُنسى.

وقد افاد مؤخرا صديق عزيز كريم، احجم الان عن كشف اسمه وتحديد شخصه لاسباب معينة واعتبارات خاصة، في عبارة حبلى بالمعاني والدلالات، مايلي بالحرف الواحد، انقله نصا للاجيال الراهنة، واحفظه ذخرا للاجيال القادمة: «كان الفرق بين النصر والهزيمة في العراق، رجلا واحداشهما عادلا حكيما شجاعا، شديد البأس، رابط الجأش، ثابت الجنان، محبا للخير والسلام، دخل الى التاريخ من اوسع واشرف واخلد ابوابه، بطلا قوميا وقائدا تاريخيا ومثلا اعلى، ليس بمنصبه ولقبه وسلطانه، ولكن بأسمه العلم، يدعى «صدام حسين»، ويعرف الان بأسمه المجرد الاول (صدام)».

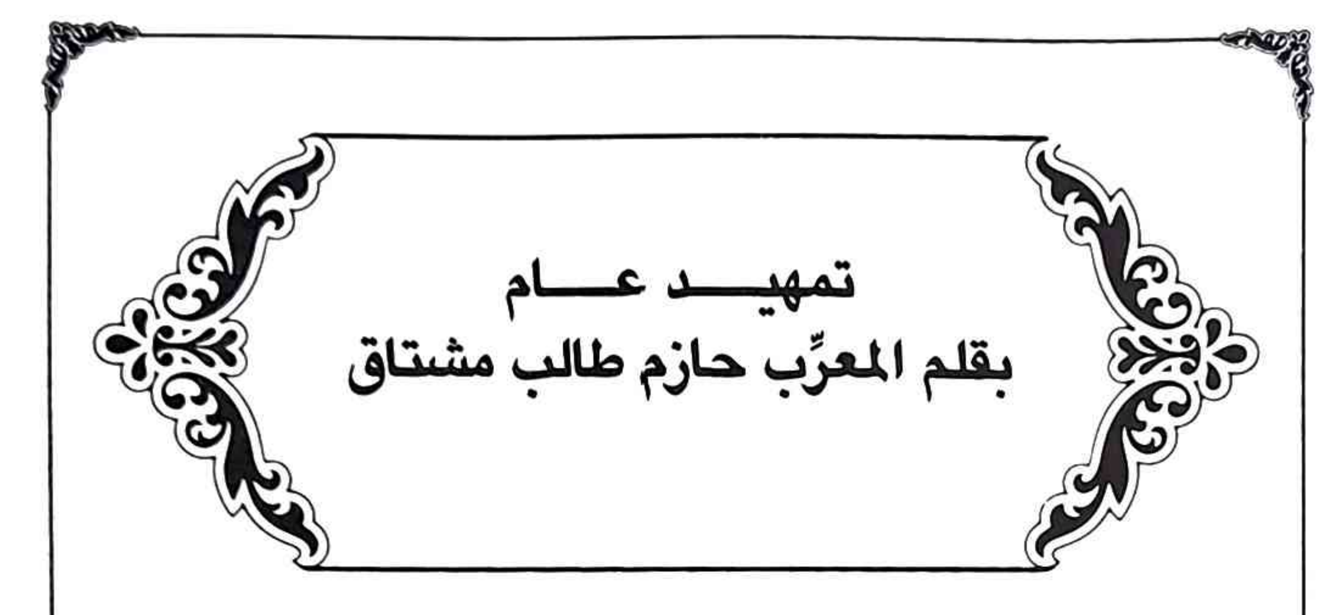
وقد وصف الصديق الكريم الرفيق المفكر الدكتور (الياس فرح) هذا المعنى وصفا شعريا وفلسفيا جميلا وشائقا بقوله: «ان هذا السيف يجمع من حوله كل فرسان المستقبل العربي. وقد كانت القادسية الجديدة هي حلبة صراعه وملحمة انتصاره»(*).

فألى هؤلاء الاخوة الاحباء الاعزاء الشرفاء الطيبين الكرام من المفكرين الاستراتيجيين والعسكريين العراقيين الذين لا اعرفهم الان بأسمائهم المحددة في اجيالهم الجديدة وعصورهم البعيدة، الى رجال الغد وفرسان المستقبل ودعاة وبناة وحماة الحياة العربية الواحدة الخالدة المجاهدة السعيدة الكريمة القوية المنيعة الناهضة التي كرسها واكدها واعادها الى عنفوانها النصر العراقي النهائي الحاسم في قادسية صدام، اهدي هذا الجهد البسيط والعمل المتواضع، بكل فخر وحب واعتزاز.

حازم طالب مشتاق

بغداد في ٢٠/٨/١٩٨٨

(*) الدكتور الياس فرح في بحثه المعنون (انتصار العروبة والاسلام). جريدة (الثورة). بغداد. العدد (٦٦٥٣) الصادر بتاريخ ١٤ / ٨ / ١٩٨٨. ص ٣.



تمهيـــد عـــــام
بقلم المعرِّب حازم طالب مشتاق

كل كتاب يبدأ حلماً وتصوراً في ذهن الكاتب. ثم يستغرق وقتاً حتى يختمر مشروعاً واضحاً ومنهجاً متكاملاً. واخيراً يولد كائناً طبيعياً كما يولد الانسان الحي السوي. تلك هي القاعدة الاساسية العامة التي تصح على كل كتاب، كائناً ماكان، اذا استحق شرف الاسم ونال احترام القارىء واكتسب فضل التداول ومجد البقاء. وهي ايضاً، بتبسيط واختصار، قصة هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه دراستين قيمتين اشتركتا في الموضـوع واختلفتـا في المنطلق. احـداهما كـانت هي الموضـوع الذي شغـل هذا الكتاب، والاخرى كـانت هي الذيـل الذي الحقتـه به واضفتـه عليه.

وتـدخل هـاتان الـدراستـان، بحسب اجتهـادي المتـواضـع واعتقـادي المـدروس، في صلب وصميم فلسفة التـاريخ. ولكنهـما حاولتـا تحليلها وفهمها وتفسيرها بنظرتين متميزتين اختصاصـاً من زاويتين متبـاعدتـين فكراً. الاولى، طبعت في الاصل كتاباً سنة ١٩٧١ بعنوان (لماذا لانتعلم من التاريخ؟) من تأليف العلاّمة البريطاني السير باسيل ليدل هارت المفكر الاستراتيجي المعروف والمؤرخ العسكري البارز الذي نظر الى التـاريخ بـأعتباره فكـراً استراتيجيـاً. وهي الاطول والاوسـع، وتتميز بـالمتـانـة

والرصانة. والثانية، نشرت في الاصل بحثاً سنة ١٩٨٦ بعنوان (التاريخ بأعتباره نوعاً من الحكاية) بقلم العلاّمة الامريكي الاستاذ جورج. ف. كينان المؤرخ المحترف الرصين والدبلوماسي المحنك القديم الذي نظر الى التاريخ بأعتباره ادباً قصصياً. وهي الاقصر والامتع، وتتميز بالحصافة والطرافة.

كان السير باسيل ليدل هارت عسكرياً محترفاً حكمت الظروف واختارت الاقدار ان يكون مؤرخاً ضليعاً لامعاً. كما كان الاستاذ جورج كينان مؤرخا محترفا أستوجبت الفرص وقررت السوانح ان يكون

دبلوماسيا ناجحا لعب دورا نشيطا فاعلا. فجمعت بين هاتين الدراستين متذرعاً بالامل المحتمل انهما ربما تنطويان على مقارنة عفوية ومقابلة تلقائية عن اوجه الشبه واوجه الاختلاف في موضوع مشترك، بين شخصيتين موهوبتين ونظرتين متميزتين وزوايتين مختلفتين. ومن المأمول انهما ستسلطان المزيد من الاضواء الكاشفة على العروة الوثقى والعلامة الفارقة بين التاريخ وفلسفة التاريخ، في وقت واحد، وعلى حد سواء، وتثبتان بالبرهان القاطع والدليل الواضح ان فلسفة التاريخ تعود حصراً وتحديداً واقتصاراً الى اختصاص الفلسفة، ولاتدخل على الاطلاق في اختصاص التاريخ، الا عرضاً واتفاقاً ولماماً احياناً، وان تشابه العناوين وتطابق الالفاظ واشتراك الاسماء لايغر ولايخدع ولايوهم الا الجهلاء والاغبياء والادعياء من تنابلة الفكر وقراصنة المعرفة ولصوص الثقافة وحرامية العلم، وماكثرهم في هذه الايام.

وسوف أكون مسروراً سعيداً راضياً، قانعاً بالجهد الذي بذلت، والوقت الذي صرفت، والعناء الذي تجشمت، اذا ساعدت امثال هذه الاعمال على تحريك المياه الراكدة وتأجيج النيران الخامدة وتبديد الاوهام السائدة وتفنيد الاخطاء الحاشدة، ولو في عقل واحد من العقول الواعدة.

ولعل القاريء العراقي والعربي الحصيف يجد فيهما ويستمد منهما زاداً ثقافياً ومتاعاً فكرياً يحتاجه ويعينه في مغامرة العقل، وملحمة الفكر، ومغالبة النفس، ومقارعة الشر، ومواجهة المستقبل، وماينشده ويتوخاه الباحث عن الحقيقة والمتطلع الى المعرفة من حكمة وفائدة وعبرة وبهجة ومتعة وطرافة معاً.

عساني أن أكون، بهذا العمل الفكري والجهد المتواضع، قد خدمت العلم والوطن والانسان، ولو في حدود اقل الواجب واقرب الممكن واضعف الايمان. احسن الله اجر مَنْ احسن علماً وعملاً، وامسك بالقلم اميناً صادقاً طاهراً، وكتب مايمليه العقل والقلب والضمير برهاناً وايماناً وبياناً.

والله يحفظ القائد التاريخي والبطل القومي السيد الرئيس ، عزيزاً بعزة وطنه، كريماً بكرامة شعبه، ويبارك جهوده ومساعيه وجنده الميامين الاوفياء الابرار، وينصر القوم الشرفاء الاحرار المجاهدين المؤمنين الصابرين المحتسبين من ابناء العراق المقاتل العظيم والامة العربية المجيدة جمعاء.

حازم طالب مشتاق
B.LIT. OXON. (MERTON).
استاذ الفلسفة اليونانية القديمة المساعد ـ
قسم الفلسفة ـ كلية الاداب ـ
جامعة بغداد.
في ٥/ ١١/ ١٩٨٧



التاريخ فكرا استراتيجيا:
السير باسيل ليدل هارت

ملاحظة عن اصل ومصدر هذا البحث المعرَّب :

WHY DON'T WE LEARN FROM HISTORY?

SIR BASIL H. LIDDELL HART.

GEORGE ALLEN AND UNWIN LTD.

LONDON. 1971.

لماذا لانتعلم من التاريخ؟
السير باسيل ايج. ليدل هارت.
طبعة جورج آلين واونوين.
لندن. سنة ١٩٧١.

مقدمة المعرب:

دراسة عن السير باسيل ليدل هارت:
فكره وعصره ودوره

بقلم حازم طالب مشتاق.

١ . البداية، قصتي مع هذا الكتاب:

مـاأسرع الـزمان. ومـاأقصر العمـر. ومـاأوسـع العلم. ومـاأعجب التاريخ. عقود عديدة وطويلة ومتعاقبة قد مضت وانقضت الان على لقائي الاول مع كتاب من كتب السير باسيل ليدل هارت. وكنت اظنه الاخير. ولكنني اعجبت بشخصه وشغفت بفكره وشعرت بميل لايرد ولايقاوم الى منهجه التحليلي والنقدي والمقارن للتاريخ القـديم والحديث والمعـاصر، العسكري والاستراتيجي والسياسي، في وقت مبكر وموعد قـديم ويوم بعيد من عنفوان شبابي ومطلع عمري الثقافي وتطوري العقلي وتكـويني العلمي. ويبدو هذا اللقاء الاول الان وكأنه قد حدث في عالم آخر وعصر غابر وتاريخ سحيق. وقد تخصصت في الدراسات الفلسفية. وتلك هي حرفتي. ولكن اهتمامي بـالدراسـات الاستراتيجيـة لم يضعف ولم يفتر ولاتوقف او انقطع. وتلك هي هوايتي. ولم يخطر على البال، ولاجال في الخيـال، ان الوطن سيمـر بظروف معينـة في يوم من الايـام، تستدعي وتتطلب ان تكون هوايتي هي حرفتي، وان تكون حرفتي هي هـوايتي. ولكن هذا ماحدث بالفعل. وتقدّرون، فتضحك الاقدار.

وكانت نظرية ومنهجية استراتيجية الاقتراب غير المباشر التي درسهـا السير باسيل ليدل هارت وعرضها على المفكـرين العسكريـين والمحللين الاستراتيجيين والباحثين العلميين عرضاً موضوعياً واضحـاً دقيقاً، هي شغلي الشاغل ومقياسي الدائم وطريقي العريض المفتوح المؤدي الى ارتياد الجديد، واسكتشاف المجهول، والتغلب على الخوف والتـردد والقنوط.

وقد لازمني هذا المؤرخ القدير والمفكر المستنير والباحث المتواضع المثير، في جميع مراحل عمري، ملازمة الصديق الصدوق والناصح الامين والدليل المرشد الذي لايحيد رأيه ولايخيب اجتهاده ولايطيش سهمه ولايجمح عقله. ومن دواعي سروري وارتياحي انني لم اشعر في يوم من الايام على الاطلاق بالاسف او الندم على الوقت الذي صرفته مع كتبه او الجهد الذي بذلتهُ في الاطلاع على ابحاثه. واحمد الله الذي شرّفني وأسعدني وأعانني في حينه، بالتعرّف عليه، والتعلّم منه، والاقتداء به.

وقد لاحظت ان باحثين عربيين اثنين بالذات، هما السيدان اكرم ديري والهيثم الايوبي، قد بذلا جهداً طيباً وحميداً ومشكوراً في تعريب جمهرة اعماله الاستراتيجية البارزة وكتبه التاريخية القيمة. فجزاهما الله خيراً عميماً وثواباً عظيماً، عن جدارة واستحقاق.

ثم وجدت عرضاً ان هذا الكتاب بالذات قد افتقدته المكتبة العربية. وربما كان قد فات سهواً وغاب عفواً. فقررت سعيداً قانعاً ان ابذل جهداً بسيطاً ومتواضعاً في تعريبه، استكمالاً للصورة، وتوخياً للفائدة، وطلباً للحقيقة. بالاخص وانه يتعلق بفلسفة التاريخ، انطلاقا من نظرة الى الاستراتيجية، بل لعله قد ربط الثانية بالاولى، واشتقها منها، واقامها عليها. فكأنه قد ارضى واستوفى شروط ومطالب حرفتي وهوايتي في وقت واحد معاً. وارجو مخلصاً صادقاً ان اكون قد حققت الغاية العلمية، وأديت الامانة التاريخية، ولو بقسط صغير ونصيب قليل، في احسن الاحوال وافضل الظروف.

والا، فأنني ارجو، من صميم قلبي، للباحثين الاخرين، الاقدر قلماً والاغزر علماً، حظاً اوفر من النجاح، وقدراً اكبر من التوفيق. ولايكلف الله نفساً الا وسعها. وليس للانسان الا ماسعى. وما اوتينا من العلم الا قليلا.

٢ . سيرته العائلية والعلمية والعامة(*) :

ولد السير باسيل ليدل هارت في باريس سنة ١٨٩٥ من ابوين انكليزيين. ونشأ وترعرع في اجواء تلك المدينة التي كانت في حينه محجة للمفكرين والفلاسفة وكعبة للفنانين والادباء. حتى قيل ان ثقافة الانسان المثقف لاتكتمل الا اذا شد الرحال اليها وأقام فيها شطراً من عمره. وبعد ان عاد ابوه وامه الى وطنهما، التحق بمدرسة (سانت بول) الثانوية في لندن. ثم واصل دراسته العالية في كلية (كوربوس كريستي) بجامعة (كامبريدج). ودرس التاريخ. ونال شهادة البكالوريوس. وفي سنة ١٩١٤، اصبح ضابطاً في كتيبة (يوركشاير) بقوة رماة المشاة الملكية في الجيش البريطاني. وقد شارك في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨). وقاتل مرتين بالفعل في الجبهة الغربية. فسقط جريحاً في الاولى، وأصيب بالغازات السامة في الثانية. وفي تلك المرحلة المبكرة من شبابه وعمره، اظهر ميلاً واضحاً واهتماماً فكرياً بالقوات المسلحة، وبدأ يكتب عن الجوانب النظرية والفنية والتعبوية المتخصصة في الشؤون العسكرية. فوضع كراساً تدريبياً للجيش البريطاني عن تعبية المشاة في ١٩١٧. كما انه تطرق للمرة الاولى في هذه الفترة بالذات الى تصورات تعبوية جديدة غير مسبوقة، تحولت في وقت لاحق الى نظريات مدروسة ومعتمدة. ومن اهمها

(*) استقيت هذه الحقائق والتفاصيل والمعلومات عن السيرة الشخصية والعلمية والعامة للسير باسيل ليدل هارت من كتاب باللغة الانكليزية، شارك في تأليفه عدد من الباحثين والاساتذة والخبراء، بعنوان (الحرب في النظرية والتطبيق)، اشرف على تحريره (مايكل هوارد). طبعة كاسل. لندن. سنة ١٩٦٥. الصفحتان ٣٧٣ - ٣٧٤.

THE THEORY AND PRACTICE OF WAR. EDITOR : MICHAEL HOWARD.

CASSELL. LONDON. 1965. PP.373 - 374.

وابرزها ماكتبه ونشره عن نظريته في ادارة الهجوم بطريقة «السيل الجارف المتوسع» الذي يبدأ بتشديد الضغط وتركيز التعرض على نقطة صغيرة ضعيفة واحدة معينة في الدفاعات والخطوط المعادية. ثم سرعان مايتحول الطرف المهاجم، بعد اجتياحها واختراقها، الى الامتداد بالعرض والانتشار افقيا على الارض انتشاراً متزايداً، يؤدي الى حرمان العدو من طرق الانسحاب ومعابر الاتصال وشرايين التموين، ويقطع خطوطه الامامية عن قواعده الخلفية، وينشر الفوضى والتشويش والاضطراب في صفوفه وحشوده، ويعمد الى ارباكه وانهاكه وتسليمه الى حالة من العطل او الخلل او الشلل، نفسياً ولوجستيا وتعبوياً وعملياتياً، في وقت واحد، وعلى حد سواء.

وبعد ان وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها، وفي سنة ١٩٢٠ بالتحديد، وكان قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره، وبناءً على تكليف رسمي يعد في حد ذاته تشريفا للرجل واعترافا بعمله وفضله وامتيازه، وضع ليدل هارت كراساً اعتمده الجيش البريطاني عن (تدريب المشاة). وآخراً عن (التدريب على الاسلحة الخفيفة). وفي ضوء وضعه الصحي الذي نجم عن خدمته الفعلية في الحرب العالمية الاولى، كما تقدم، احيل اولاً على قائمة نصف الراتب في سنة ١٩٢٤، ثم احيل على التقاعد برتبة رائد (كابتن) في سنة ١٩٢٧. وكانت الجريدة اللندنية اليومية الواسعة الانتشار (الديلي تلغراف) قد بادرت الى اختياره مراسلاً عسكرياً في سنة ١٩٢٥. وبعد ان امضى في هذا العمل عقداً من الزمان، انتقل الى الجريدة اللندنية اليومية المعروفة والمتنفذة (التايمس) بأعتباره مراسلاً عسكرياً ومستشاراً متخصصاً في شؤون الدفاع. وفي الوقت نفسه، اصبح

محرراً عسكرياً في الموسوعة البريطانية (ENCYCLOPAEDIA BRITTANNICA). وفي سنة ١٩٣٧، اصبح مستشاراً عسكرياً للوزير البريطاني الجديد للحربية حينذاك (المستر هوربليشا). وساهم بجدّ ونشاط في تخطيط وتنفيذ برنامج واسع النطاق بعيد الهم، يرمي الى تحديث الجيش البريطاني تنظيما وتدريبا وتسليحاً. وقد تحققت بالفعل اصلاحات عديدة مقترحة. ولكن العقليات التقليدية والجامدة والمتحجرة والمتخلفة في الاوساط العسكرية الرسمية القيادية البريطانية، استطاعت ان تعرقل وتعيق انجاز اصلاحات حيوية ضرورية اخرى. ونجحت بالاخص في تأجيل وتأخير واستبعاد وتجميد ماكان قد اقترحه من مشاريع وبرامج وخطط تتعلق بتطوير قوات من الدروع وجيوش من الدبابات، فضلاً عن تأسيس وحدات للدفاع الجوي وتأمين اسلحة مضادة للطائرات. وقد شعر ليدل هارت ان التقدم في هذه الميادين كان متعثراً وبطيئاً للغاية بالقياس الى نذر وبوادر الحرب التي كانت تبدو في الافق وتقترب بسرعة متزايدة. ومن هنا، استقال احتجاجاً على هذا الوضع من منصبه الاستشاري الرسمي في صيف عام ١٩٣٨. وتحرر من قيود والتزامات المنصب الحكومي والموقع الاداري. والقى عن كاهله حملاً ثقيلاً وقيداً معيقاً وارتباطاً خانقاً. وأسترد حريته للعمل وقدرته على النقد والاعتراض. وتوجّه الى مخاطبة الرأي العام في وطنه علانية، ومكاشفة الناس اجمعين بالحقائق القاسية والاليمة والمريرة. وصارح الشعب في وضح النهار بهذه المطالب والمشاكل والمعضلات والاخطار، دون مواربة ولا مجاملة ولا مداراة. وطوال السنوات العديدة المتعاقبة التي انصرمت بعد الحرب العالمية الاولى بوجه عام، وتلك التي مضت بعد استقالته من الخدمة الرسمية بوجه خاص، كان ليدل هارت من ابرز واشهر وانشط دعاة الاهتمام بسلاح الطيران والقوات المدرعة والاستراتيجية البرمائية.

٣ . نظرته الى الحرب العالمية الثانية، ليدل هارت فيلسوفا من فلاسفة التاريخ:

وفي الفصول الاولى والصفحات المبكرة والمراحل التمهيدية من الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، حدث للجيش البريطاني ماكان ليدل هارت يتوقعه ويخافه ويخشاه وحاول جاهدا دون جدوى ان يعمل على تفاديه وتلافيه وتجنبه ومنع حدوثه. ودفعت بريطانيا ثمناً غالياً فادحاً باهظاً بالرجال والاموال والمعدات حتى تعلمت الدروس المستفادة من الحرب العالمية الاولى في مرحلة تالية لاحقة متأخرة من الحرب العالمية الثانية، دون حاجة ولاضرورة ولافائدة. ومن اغرب المفارقات واقسى التجارب، ان نظريات ليدل هارت في الاستراتيجية العسكرية، التي قابلها وطنه بالاهمال والتجاهل والازدراء والاستخفاف والاستصغار، قد نقلها عدو وطنه بالذكاء المفرط والنظر البعيد والفكر الثاقب والعقل المرن، فأخذ بها، وتعلم منها، وقام بتطبيقها تطبيقا ميدانيا وعملياتياً ناجحاً نجاحاً منقطع النظير.

ولم يكف ليدل هارت انه قد عارض وانتقد الاستراتيجية الصغرى (العسكرية) التي اعتمدها الحلفاء في المراحل الاولى من الحرب العالمية الثانية. بل انه عارض وانتقد ايضاً الاستراتيجية الكبرى (او العليا او الكلية او الشاملة) التي اتبعتها الدولة الحليفة في المراحل الاخيرة من تلك الحرب. ومال الى الاعتقاد المدروس، الذي ايدته الحقائق المشهودة واثبتته الوقائع اللاحقة، ان مابدته الدول المتحالفة من اصرار فائق وعناد شديد بوجوب استسلام المانيا استسلاماً مطلقاً وكاملاً ونهائياً دون قيد ولاشرط، ولزوم ان يكون النصر الذي تحرزه وتحققه وتنتزعه وتفرضه تلك الدول بقوة السلاح نصرا كليا وشاملاً وقاطعاً، قد ادى الى اوخم العواقب واسوأ النتائج وافدح الخسائر واوجع المردودات، اقربها واقلها وادناها انها قد دفعت الالمان الى قتال مستميت في وضع يائس، بأنتفاء وغياب خيار آخر

وبديل افضل واعقل واسلم . وذهب ليدل هارت الى ابعد من ذلك بكثير، فقرر ان هذا الوضع قد نجم عنه وترتب عليه شر اعظم وخطر اكبر، وان الدول المتحالفة المنتصرة قد كسبت الحرب بالفعل، ولكنها قد خسرت السلام دون ادنى شك، بالنظر القصير والافق الضيق والحساب المثلوم والتخطيط المتهافت المهزوز. وبهذا المعنى، اوضح ليدل هارت مايقصده في مقدمة كتابه الموسوعي المعنون باللغة الانكليزية (الاستراتيجية: نظرية ومنهجية الاقتراب غير المباشر). وافاد في هذا السياق مأأنقله بتصرف كما يلي :-

«توهم الحلفاء المنتصرون في الحرب العالمية الثانية ان الحلم الذي داعب خيال الانسانية طويلا قد تحقق على ايديهم اخيرا، حلم السلام الابدي الدائم. ولكن طاش سهمهم، وخاب فألهم، وساء مصيرهم. ثم عاودهم الامل الذي انتعش مجددا بأمتلاكهم للقدرات النووية والاسلحة الذرية. ولكن امتلاك الشعوب والامم والدول الاوربية والغربية للقنبلة الهيدروجينية لايعني بالضرورة المنطقية والحتمية القاهرة انها قد أمتلكت الأمن الكامل المطلق المضمون الاكيد، كما لو ان تلك القنبلة هي التعويذة السحرية او الوصفة الجاهزة التي تحميها من جميع انواع ومصادر الاخطار والتهديدات. وعلى الرغم من ان امتلاك الحلفاء الغربيين للقنبلة الهيدروجينية قد ادى الى ازدياد نوعي ملحوظ في قوتهم الضاربة، الا انه، وفي نفس الوقت، قد ضاعف من شعورهم بالقلق والتوتر والاضطراب، وخوفهم من نذر وبوادر واحتمالات المستقبل، واحساسهم بالافتقار الى الامن والاطمئنان والهدوء والاستقرار. وكانت القنبلة الذرية قد بدت للمسؤولين القياديين الرسميين في الدول الغربية المتحالفة في سنة ١٩٤٥، كما لو انها طريقة سهلة وبسيطة وحاسمة، تضمن نصراً عسكرياً سريعاً وكاملاً، وتحقق سلاماً عالمياً وطيداً ودائماً، في وقت واحد، وعلى حد سواء. ولكن مايساور ويخامر ويحاصر شعوب وأمم ودول العالم الغربي الان من مخاوف وهواجس وشكوك، يدل دلالة واضحة وقاطعة وصريحة ان تلك العقول الرسمية المفكرة والقيادات الحاكمة المسؤولة في الحرب العالمية

الثانية قد فشلت فشلاً ذريعاً في النظر الى ابعد من الغاية الاستراتيجية العسكرية القريبة المباشرة، وهي «كسب الحرب»، واخفقت تماما في استعداداتها واستحضاراتها للعبور الناجح من حالة النصر الى حالة السلام. واعتقدت واهمة ان مجرد كسب الحرب في حد ذاته سيحقق ويضمن السلام تلقائياً، دون جهد دائب مسبق او تخطيط ذكي محكم.

والحقيقة المريرةالاليمة القاسية هي ان تلك الفرضية قد افتقرت الى الواقعية، وابتعدت عن العقلانية، وخالفت جميع تجارب التاريخ ودروس الماضي وعبر الزمان. ولكن على من تقرأ مزاميرك ياداود، وأكثر الناس لايعلمون؟! وكانت المحصلة الاخيرة والنتيجة النهائية للقيادات الغربية الرسمية المتحالفة، انها قد كسبت الحرب بالفعل، كما نعلم لاحقا الان، ولكنها خسرت السلام الذي ارادته وتمنته وتوخته، فدفعت الثمن فادحاً باهظاً غالياً بالدماء والمصالح والارواح والاموال والمصائر. وخلاصة القول ان التاريخ قد اثبت مرة اخرى ان الاستراتيجية العسكرية الخالصة تحتاج ان تستهدي بنظرة اوسع وأشمل من زاوية اعلى وأرفع على مستوى «السوق الاكبر».

وفي الظروف الموضوعية للحرب العالمية الثانية، كان السعي الى الغلبة بأي ثمن ومهما كان الثمن، دون تدبر ولا تبصر، لابد ان يقود اصحابه بالضرورة الى كارثة مأساوية وفاجعة رهيبة. لان الاصرار العنيد الاهوج على استسلام المانيا دون قيد ولاشرط، والقضاء الكلي المبرم على قدرتها على المقاومة، كان من المحتوم ان يتيح المجال ويفتح الطريق للسيطرة السوفيتية الروسية على القارة «الاوراسية». ومن هنا، امتد النفوذ الشيوعي امتدادا سريعاً الى كل مكان في الارض، وانتشر على نطاق واسع الى جميع الانحاء والاتجاهات انتشار النار في الهشيم اليابس. وكان من الطبيعي والمتوقع ايضا ان لايستمر احتكار الغرب للاسلحة الذرية طويلاً، وان تنضم روسيا الى عضوية هذا «النادي» في يوم من الايام، آجلاً ام عاجلاً، كما حدث فعلاً.

كان «السلام» الذي حققته الحرب العالمية الثانية، سلاماً من نوع فريد وطراز خاص. ولم يعرف العالم على سعته، ولاشهد التاريخ على غرابته احياناً، سلاماً حقق مثل هذا القدر الضئيل والنزر اليسير من الامن والاستقرار للشعوب والامم والدول.

وبعد مرور مايقارب من ثمانية اعوام على نهاية الحرب العالمية الثانية(*)، ومع التطور الذي حصل من الاسلحة الذرية الى الاسلحة النووية الحرارية، ازداد شعور شعوب الدول «المنتصرة» بالافتقار الى الامن، وتضاعف احساسها بالخوف على المصير والقلق على المستقبل. ولكن هذا الاثر، على خطورته وأهميته ليس الاثر الوحيد الذي احدثته الاسلحة الجديدة المتطورة، اسلحة الدمار النهائي والخراب الشامل والموت الاكيد للانسانية جمعاء. لان صنع القنبلة الهيدروجينية، أكثر من اي عامل آخر، قد اوضح مرة واحدة والى الابد، ان «الحرب الكلية الشاملة» و «الغلبة المطلقة الكاملة»، قد اصبحتا من المفاهيم البالية والخيارات القديمة التي فات اوانها وانقضى زمانها، دون عودة ولا رجعة... هل تستطيع حكومة مسؤولة او سلطة عاقلة ان تقرر استخدام القنبلة الهيدروجينية بأعتبارها الرد المناسب والجواب الصحيح على عدوان غير مباشر او تعرض موضعي او اشتباك محدود؟؟ هل يمكن للحكومة المسؤولة او السلطة العاقلة ان تتخذ قراراً او تبادر الى القيام بعمل يصفه خبراء الحرب واساتذة الاستراتيجية بأنه انتحار اكيد، لايبقي ولايذر، يطال الغالب والمغلوب معاً، ويشمل المهاجم والمدافع على حد سواء، بل ويحكم بالموت على العالم اجمع؟؟ ومن هنا، وفي ضوء ماتقدم، يمكننا الافتراض جدلاً ان القنبلة الهيدروجينية لايمكن استخدامها ضد اي تهديد اقل في حجمه وخطره من حجم الدمار الذي تحدثه، والخطر الذي تحمله، تلك القنبلة هي نفسها... وفضلا عن ذلك، فأن القنبلة الهيدروجينية قد برزت بأعتبارها عاملاً معيقاً أكثر من كونها عاملاً مساعداً في تنفيذ «سياسة الاحتواء».

(*) فرغ ليدل هارت من تأليف هذا الكتاب في سنة ١٩٥٤ ـ المعرِّب.

وطالما انها قد قلّلت من فرص واحتمالات نشوب «الحرب الكلية»، فأنها، وفي نفس الـوقت، تكون قـد ضاعفت من فـرص واحتمالات نشـوب «الحرب المحدودة» التي تلجأ الى استخدام العدوان الموضعي الواسع غير المباشر. ولكن الفرضية الشائعة القائلة الان ان القوة الذرية قد الغت وابطلت الحاجة الى الاستراتيجية، هي فرضية متهافتة ومردودة وخاطئة. لان القوة الذرية التي اوصلت احتمالات الدمار الى حدود الانتحار، قد فتحت الابواب على مصاريعها للعودة الى الاساليب والوسائل والطرائق غير المباشرة التي تعتبر الجوهر الحقيقي الاصيل والدور التـاريخي المنفرد المتميز والمعنى الحرفي الصحيح الدقيق للاستراتيجية. لان هذه الاساليب والوسائل والطرائق غير المباشرة، قد أكدت الجانب العقـلاني والفكري والارادي من الانسان، اي الجانب الانساني الخاص المتميز بالوعي والفهم والـذكـاء، وليس الجـانب الحسي الغـريـزي العشـوائي الانفعـالي من الانسان، اي الجانب الحيواني العام المشترك. فأسبغت بذلك على ظاهرة الحرب من الابعاد الانسانية والخصائص العقلانية مارفعهـا من مستوى القوة العضلية المادية الغاشمة العمياء الى مستوى القوة العقلية المستنيرة الواعية المسلحة بالذكاء، ومن مستوى الممارسة البدائية المتخلفة الجامحة السائبة الطائشة للقوة المادية والعسكريـة الى مستوى الممـارسة المتقـدمة المتطورة المنهجية المحسـوبة والمنضبـطة والهادفـة للقوة في جميـع انواعهـا وصورها واشكالها. وقد ظهرت عـلائم وبوادر ودلائـل هذه (الصحـوة الاستراتيجية) بالعودة الى (اساليب الاقتراب غير المباشر) للمرة الاولى في الحرب العالمية الثانية. واعتقد ان الاستراتيجية قد لعبت في الحرب العالمية الثانية دورا اكبر واوضح وابرز من الدور الذي لعبته في الحرب العالميـة الاولى. ولكن الحرب العالمية الثانيـة قد تميـزت ايضاً بـالغياب المـطلق «للاستراتيجية الكبرى»... وليس تاريخ الاستـراتيجية في العـالم اجمع سوى تاريخ نشوء وتطور واكتمال وتطبيق «نظريـة ومنهجية استـراتيجية

الاقتراب غير المباشر»(*). وقد نشرت دراستي عن هذه الاستراتيجية للمرة الاولى في كتاب ظهر وصدر سنة ١٩٢٩ بعنوان (المعارك الحاسمة في التاريخ). وفي سياق الابحاث والدراسات التي توليتها واجريتها حينذاك عن سلسلة طويلة من المعارك الفاصلة والحروب الكبرى، توصلت الى قناعة واضحة ونتيجة اولية هي ارجحية وافضلية الاسلوب غير المباشر على الاسلوب المباشر. وكان شغلي الشاغل في تلك الفترة ان اكتشف بصيصا من النور يسلط الضوء على حقيقة الاستراتيجية، ويساعدني على فهمها وادراكها وتحليل عناصرها المختلفة وجوانبها المتعددة. ومع مرور الوقت وأزدياد التأمل وتراكم الفهم واستقراء الواقع واستنطاق التاريخ واستحضار الماضي، لاحظت ان استراتيجية الاقتراب غير المباشر، دوراً واثراً وخطراً، لاتقتصر على الحرب من الناحية العسكرية، في تخصص فني ومهني ومسلكي ضيق دقيق محدود. بل تتعداها وتتخطاها وتتجاوزها، سلماً وحرباً، كرّاً وفراً، هجوماً ودفاعاً، اختراقاً والتفافاً، الى آفاق ارحب وابعاد اوسع ومجالات اشمل، تبدأ من المعارك السياسية والمناورات الدبلوماسية، وتمر بالمعارك الاعلامية والنفسية والمعنوية، وتصل الى المعارك الايديولوجية. وصرت اتلمس الطريق واتحسس الموضوع واتقدم الى الامام، من الغامض الى الواضح، ومن المجهول الى المعلوم، تدريجيا شيئاً شيئاً. حتى ادركت واقتنعت في النهاية ان نظرية ومنهجية استراتيجية

(*) للمزيد عن فكر ليدل هارت، بالاخص في الجانبين العسكري والاستراتيجي، وفلسفته عن التاريخ، ونظرته الى صورة المستقبل وازمة الانسان وظاهرة الحرب، راجع: برايان بوند ـ ليدل هارت: دراسة عن فكره العسكري. طبعة كاسل. لندن. سنة ١٩٧٧. وهي من افضل وارصن وادق الدراسات عن هذا الموضوع.

BRIAN BOND. LIDDELL HART: A STUDY OF HIS MILITARY THOUGHT. LONDON. CASSELL. 1977.

الاقتراب غير المباشر هي قاعدة عامة من قواعد الحياة الانسانية، وحقيقة اساسية من حقائق الحكمة العقلية في العالم والنظرة الفلسفية الى التاريخ»(*). ولكن ليدل هارت كان عالما حقيقيا جليلا وباحثا قديرا ضليعا ومفكرا ذكيا متواضعا. فأدرك ادراكاً واضحاً ان «استراتيجيته» العملية في جوانبها العسكرية واشكالها المطبّقة، ليست قانونا ابدياً ثابتاً، واعترف اعترافا متكررا وصريحا ان النظريات تتغير وتتطور بتغير وتطور الظروف والتجارب، تماما كما ان النتائج تختلف بأختلاف المقدمات في علم المنطق.

ربما لم يقصد ليدل هارت ان يقدم خلاصة وافية او نبذة وجيزة عن سيرته الذاتية والشخصية والعملية في هذه المقدمة التي كتبها. ولكنه بالتأكيد قد رسم صورة قلمية معبرة وجميلة ورائعة عن سيرته الفكرية والثقافية والعلمية، في نظرية اساسية جديدة كبرى، ارتبط بها اسمه الى الابد، ونذر لها نفسه، وكرّس لها وقته وجهده، وامضى شطراً طويلاً من عمره في استكشافها وتحليلها وايضاحها واستكمالها. وتلك هي اهم الاسباب واقوى الدوافع وارسخ المبررات التي دعتنا الى اعتباره فيلسوفا بارزاً من فلاسفة التاريخ المعدودين القلائل في القرن العشرين، وتصنيفه عن جدارة واستحقاق جنبا الى جنب مع سواه من انداده واقرانه من امثال (اوزفالد شبنجلر) و (آرنولد توينبي).

(*) السير باسيل ليدل هارت. في كتابه باللغة الانكليزية المعنون (الاستراتيجية: نظرية ومنهجية الاقتراب غير المباشر). طبعة فابروفابر. لندن. سنة ١٩٥٤. المقدمة. الصفحات ١٥ ـ ١٨. وقد انجزت تعريب هذه الفقرات بنفسي تصرفا. ولكن توجد ترجمة عربية جيدة عن الفرنسية انجزها الهيثم الايوبي بعنوان (الاستراتيجية وتاريخها في العالم). دار الطليعة. بيروت. سنة ١٩٦٧. الصفحات (٢٩ ـ ٣٤) ـ المعرب.

SIR BASIL H. LIDDELL HART. STRATEGY: THE INDIRECT APPROACH. FABER AND FABER. LONDON. 1945. THE PREFACE. PP. 15-18.

٤ . علاقته مع تشرتشل:

كتب ليدل هارت فصلاً كاملاً عن (تشرتشل المخطط العسكري) في كتاب اسهب وافاض في دراسة هذه الشخصية السياسية البريطانية البارزة في وجوهها المتعددة وجوانبها المختلفة(*) وشاركه في تأليفه باحثون كبار معروفون آخرون من ذوي التخصصات المتميزة والاحكام العلمية. وقد اجاد ليدل هارت في وصف تشرتشل وفكره وعصره وصفاً حياً اميناً دقيقاً ثاقباً، ونجح في تحليل شخصيته وسيرته وسياسته تحليلاً واقعياً موضوعياً واضحاً سليماً. فوضعه في حجمه الحقيقي ومكانه الصحيح دون ان يقلل من شأنه او ينتقص من قدره او يستهين بدوره واثره، كما يليق ويجدر بالعلماء والفلاسفة والمفكرين. وعلى الرغم من ان ليدل هارت كان قد عارض وانتقد تشرتشل في كثير من القرارات التي اتخذها، والخطط التي وضعها، والسياسات التي انتهجها، على امتداد سنوات طويلة حافلة متعاقبة، واحياناً بقسوة شديدة ومرارة حادة وسخرية لاذعة، الا انه لم يدع نقده على الاطلاق يهبط الى درك الثلب والتجريح، ولاترك اعتراضه ابداً ينحدر الى حضيض الطعن والتشهير. فكان دائماً متحفظاً مهذباً هادئاً رائقاً وقوراً. وترفع عن الصغائر، وابتعد عن السفاسف، ولم يسمح للاحقاد والضغائن ان تستبد به او تسيطر عليه. وفي جميع الظروف والاحوال، في الضيق والفرج، وفي السراء والضراء، انتصب بقامته المعنوية المديدة عملاقا شامخاً عزيزاً كريماً، قويا بأحترام النفس وعلو الخلق وكبر القلب

(*) تشرتشل ـ اربعة وجوه. . . . والرجل. تأليف: أ.ج.ب. تايلور، ج.هـ. لومب، روبرت رودس جايمس، باسيل ليدل هارت، انطوني ستور. نقله الى العربية حسين فخر. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الاولى. بيروت. سنة ١٩٧٤. منشورات وتوزيع المكتبة العالمية. الطبعة الثانية. بغداد. سنة ١٩٨٤. راجع الفصل الذي كتبه ليدل هارت بعنوان (تشرتشل المخطط العسكري). الصفحات ١٣٩ ـ ١٨٩ ـ المعرِّب.

ورجحان العقل، اقوى اضعافاً مضاعفة من خصومه وحساده من ابناء جلدته من صغار المهرجين وفلول الاقزام الذين حاولوا عبثا ان ينالوا منه او يتطاولوا عليه، فأرتدوا عنه خاسرين خاسئين تطاردهم لعنات الارض والسماء والناس اجمعين.

ويبدو ان ليدل هارت كان قد قابل تشرتشل شخصياً للمرة الاولى في سنة ١٩٢٧. ومن الواضح ان المسافة الزمنية البعيدة او الشقة التاريخية الطويلة لم تستطع ان تمحو من ذاكرته ماحملته من انطباعات ومشاعر واحاسيس عن تلك المقابلة القديمة. وقد وصفها وصفاً مؤثراً ومعبراً ومستبصراً ومتدبراً بقوله: «في عام ١٩٢٧ شكلت اول (قوة ميكانيكية اختبارية)، وكان ذلك حصيلة سنوات من الدراسات والجهود التي قام بها (الجنرال) فولر (الذي اصدر في مرحلة لاحقة كتابا عن الحرب الميكانيكية - المعرِّب) وانا. وقد اعلن وزير الحربية السير لايمينغ وورثينغتون - ايفانز، بزهو كبير، اقرار هذا المشروع في خطاب القاه حول اعتمادات الجيش.

ولكن النفوذ المعاكس في وزارة الحربية قلّل منْ قيمة هذا الحدث، الامر الذي دفع فولر، الذي اسندت اليه قيادة هذه القوة، الى الاستقالة. عندها نشرت في الديلي تلغراف مقالة عنيفة اثارت ضجة بعنوان (هل توجد قوة ميكانيكية؟). وبكتابتي هذه المقالة ضحيت بمركزي الممتاز في وزارة الحربية. ولكن التأثير الذي احدثته تلك المقالة كان بمثابة المكافأة، فقد قدّم بعض النواب استجوابات في البرلمان. واتهم وزير الحربية مستشاريه العسكريين بأنهم سخروا منه، فقد انشئت تلك القوة على عجل. وبعد ذلك بقليل دعاني تشرتشل الى تناول الغذاء معه الى جانب وورثينغتون - ايفانز، وهناك شرحت افكاري حول مكننة الجيش - التي كان لها وقع جيد - وبدا الوضع متفائلا لبعض الوقت. وقام تشرتشل بزيارة القوة الميكانيكية وشاهد تدريباتها وكان متأثرا جدا بها. وذهب بعيدا في مواجهة وزارة الحرب الى حد توجيه الانذار تقريبا من اجل الغاء كتائب الفرسان (الخيالة)، او تحويلها الى كتائب ميكانيكية. ولكن القوى التقليدية

استجعمت قواها، وكان ان اذعن لمعارضتها. لقد كانت غريزته التقليدية في صراع مستمر مع اندفاعاته التقدمية»(*).

ويميل ليدل هارت الى الاعتقاد ان تشرتشل كان مسؤولا مسؤولية شخصية مباشرة او غير مباشرة عن كارثتين عسكريتين رهيبتين اوشكتا في حينه ان تقصما ظهر القوات المسلحة البريطانية مادياً ومعنوياً. وهاتان الكارثتان هما: الفشل الذريع الذي حاق بالانزال البريطاني في منطقة الدردنيل على جبهة غاليبولي في الحرب العالمية الاولى. والانسحاب المهين للجيش البريطاني من ميناء دنكرك المطل على بحر المانش في الحرب العالمية الثانية، بعد ان تخلى عن اسلحته الميدانية ومعداته الثقيلة، وتركها لقمة سائغة وغنيمة باردة وفريسة سهلة للعدو، يستولي عليها ويستعين بها ويستفيد منها. ويعرب ليدل هارت عن اعتقاده انه لولا انتصار الحلفاء في هاتين الحربين، انتصارا اسدل الستار ولو نسبيا على هاتين الفضيحتين العسكريتين، لكان للتاريخ شأن مختلف وموقف آخر مع تشرتشل. ولكن الانصاف يدعونا الى التأكيد، أن ليدل هارت كان اخف وأهون في نقده للدور الذي لعبه تشرتشل في الحرب العالمية الاولى. وأرجع الاخطاء والسلبيات في شطرها الاوفر وجانبها الاعم الى سوء التنفيذ ونقص التدبير وضعف الاستعداد. وكان ليدل هارت اشد واعنف في نقده للدور الذي لعبه تشرتشل في الحرب العالمية الثانية. وأرجع الاخطاء والسلبيات دون التباس ولاتأويل الى سوء التخطيط وقصر النظر وضعف التقدير ونقص التصور ورجحان العوامل العاطفية على الاعتبارات العقلية(**).

ومن اغرب واطرف المفارقات، ان ليدل هارت، الذي كان رجلاً عسكرياً، يلوم ويؤاخذ وينتقد تشرتشل، الذي كان رجلا سياسيا، على هيامه بالحروب، وتعطشه للدماء، وحبه للمعارك، واغتباطه وتلذذه

(*) المصدر السابق. الصفحتان ١٦٦ ـ ١٦٧.

(**) المصدر السابق. الصفحات ١٤٩ ـ ١٥٣، ١٥٧ ـ ١٥٩، ١٦١ ـ ١٦٢، ١٦٥، ١٧١ ـ ١٧٧، ١٧٩ ـ ١٨٢، ١٨٤، ١٨٨ ـ ١٨٩.

بمشاهد التحام الجنود والمقاتلين وازهاق الارواح والانفس. ويعيد الى الاذهان تلك المقابلة الذكية المأثورة بين قول السياسي الفرنسي (كليمنصو) في الحرب العالمية الاولى (ان الحرب هي قضية خطيرة وجدية الى الحد الذي لايمكن تركها للعسكريين وحدهم)، وقول العسكري الفرنسي (ديغول) في الحرب العالمية الثانية (ان السياسة هي قضية خطيرة وجدية الى الحد الذي لايمكن تركها للسياسيين وحدهم)(*). فيقول ليدل هارت مثلاً: «وفي الواقع احس تشرتشل بمشاعر النشوة خلال المعارك واستمتع بصخبها اكثر من معظم الجنود المحترفين. وذكر الجنرال السير فريدريك بايل رئيس هيئة اركان السلاح المضاد للطائرات خلال الحرب العالمية الثانية بأنه كان يصعب حمله على حماية نفسه من القنابل، وكان تشرتشل يعلق مندهشا: احب دوي القنابل! ومن الغريب ان وصفه لالعاب الحرب التي مارسها في صغره، وللحملات التي اشترك فيها بأندفاع فيما بعد، لم ينطو سوى على تعليقات قليلة حول الستراتيجية وحتى حول التكتيك. ان قعقعة السلاح هي التي كانت تثير اهتماماته....»(**) وفي اواخر سنة ١٩١١، اصبح تشرتشل وزيرا للبحرية. وينقل ليدل هارت مقطعا رائعا عن صديقة تشرتشل المخلصة الليدي فيوليت بونهام كارتر، التي اصبحت الليدي اسكويث فيما بعد، من كتابها الشهير المعنون (ونستون تشرتشل كما عرفته) مقتبسا من مذكراتها عن رحلة في البحر الابيض المتوسط قامت بها في الربيع التالي بصحبة والدها الذي كان رئيسا للوزراء في ضيافة تشرتشل على يخت الاميرالية

(*) الدكتور فاضل البراك. دور الجيش العراقي في حكومة الدفاع الوطني والحرب مع بريطانيا سنة ١٩٤١: دراسة تحليلية ونقدية ومقارنة للخلفيات الاجتماعية للقيادات السياسية والعسكرية. الدار العربية للطباعة. بغداد. سنة ١٩٧٩. ص١٠٠.

(**) تشرتشل.. اربعة وجوه والرجل. المصدر المذكور سابقاً. الصفحتان ١٤١-١٤٢.

(انشنتريس) كما يلي: «كان ونستون بهي المنظر على الرغم من اهتمامه المتزايد بوسائل التدمير. لقد اصبح النسف والتحطيم شغله الشاغل. وبينما كنا نتكىء جنبا الى جنب على حاجز مؤخر السفينة وهي تمخر اليم قبالة الساحل الادرياتيكي الرائع بدرت مني ملاحظة. «يا للجمال!». ولكنه روعني بجوابه: «اجل ـ مدى الرماية جيد ـ الرؤ يا جيدة ـ لو كان لدينا على متن السفينة مدافع عن عيار ست بوصات لاستطعنا ان نقصف البر بسهولة» الخ.. وتناول الحديث كيف يمكننا ان ندمر ذلك المنظر الطبيعي ونقصف القرى الهاجعة ونمزقها اربا اربا. كان مفتونا بتقنية الحرب البحرية، وكان احساسه بنتائجها على الصعيد الانساني معطلا في تلك الاثناء»(*).

ويتتبع ليدل هارت ما لمسه ولاحظه من جذور وبذور هذه الخصلة في شخصية تشرتشل، ويستقصيها في الادوار المتعاقبة من عمره، والمراحل المختلفة من تاريخه. حتى اذا وصل الى الحرب العالمية الاولى، أفاد مايلي بالحرف الواحد: «كان تصرف تشرتشل عندما انفجرت ازمة الحرب في تموز ١٩١٤ ملفتاً للانتباه. وقد وصفه اسكويث في كتابه (مذكرات وانطباعات) بأنه كان (مهووسا جداً بالحرب، وطالب بأعلان التعبئة الفورية)... ومرة اخرى تقدم ابنة اسكويث، الليدي فيوليت، صورة كاملة عن موقف تشرتشل عندما انفجرت الازمة: (في اليوم التالي ـ ٤ آب ـ افادت الانباء ان الالمان اجتاحوا بلجيكا. واعدّ والدي نص انذار الى المانيا ينتهي عند منتصف الليل تولى ارساله السير ادوارد غراي. وكتب والدي في مذكراته اليومية ـ الامر برمته قد اشاع الحزن في نفسي، ولكن ما من أنسان يستطيع القول ان ونستون (تشرتشل) كان حزينا لذلك. فقد انبرى لهذه المغامرة الكبرى بأندفاع ومتعة»(**).

وقد كشف ليدل هارت عن التناقض الصارخ والاختلاف الفادح بين الصورة الشعبية الرائجة والصورة الواقعية الحقيقية عن شخصية

(*) تشرتشل: اربعة وجوه، والرجل. المصدر السابق. الصفحتان ١٤٤-١٤٥.
(**) المصدر السابق. الصفحتان ١٤٨ ـ ١٤٩.

تشرتشل، والموقف الذي اتخذه، والدور الذي لعبه، في الفترة بين نهاية الحرب العالميـة الاولى سنة ١٩١٨ وبـداية الحـرب العالميـة الثانيـة سنة ١٩٣٩. وأفاد مايلي بالحرف الواحد في فقرات واضحة ومختارة: «تحدث تشرتشل في المجلد الاول من مذكراته عن الحرب العالمية الثانية بشكل حي عن قصة فشل الحكومة الوطنية البريطانية، بزعامة رامسي مـاكدونـالد وستانلي بالدوين، في أدراك الخطر الواضح الناجم عن تسلم هتلر للسلطة في عام ١٩٣٣، الامر الذي اسفر عن عواقب وخيمة تمثلت في عرقلة تطوير برنامج التسلح البريطاني حتى بعدما شاهد المسؤ ولون الضوء الاحمر. ان روايته لهذه المسألة تشكل اتهاماً قاسياً، ولكنها لاتتضمن القصة الكاملة.

اذ ليس هناك اي ذكر او اعتراف بالواقع... كان تشرتشل نفسه وزيرا للحربية والطيران منذ عام ١٩١٨ حتى ١٩٢١، اي خلال الفترة الحاسمة التي كان ينبغي ان يجري خلالها اعادة بناء القوات المسلحة. فقد وضعت هيئة اركان السلاح الجوي خطة تقضي بأن يتألف السلاح الجوي الملكي من (١٥٤) سرباً بينها اربعون مخصصة للدفاع عن الـوطن. ولكن هذا العدد جرى تخفيضه تحت رعاية تشرتشل الى (٢٥) سربا بينها سربان فقط لمهمات الدفاع عن الوطن... وعندما انتقل الى منصب جديـد في عام ١٩٢١ علقت صحيفة (التايمز) حول نتائج توليه وزارة الطيران بقولها:-

لقد ترك جسم الطيران البريطاني تقريبا يلفظ انفاسه الاخيرة ولم يبق له سوى ان يشيّع الى مثواه الاخير في جنازة عسكرية. وفي وزارة الحربية خيب ظن العسكريين التقدميين الشباب الذين بنوا آمالهم على بصيرته ونشاطه بوصفه «اب الدبابة» في مطلع الحرب العالمية الاولى. واثار رعبهم سماحه للمتمسكين بالمـدرسة القـديمة بتـولي مهمة تجـديد الجيش تبعـا لمفاهيم ١٩١٤، مفوتاً بذلك فرصة ثمينة لاعادة بنائه على اسس عصرية. ومنذ عام ١٩٢٤ اصبح وزيرا للخزانـة حيث اخذ يخفض سنـويا اعتمـادات الجيش ملحقا الاذى، بشكل خاص، ببرنامج تـطوير فيـالق الدبـابات البريطانية التي كان يرجى لها مستقبل باهر، والتي حفّزت العالم في مجال

الافكار والتصاميم»(*). ويستطرد ليدل هارت قائلا: «وحتى فيما يتعلق بأستعدادات بريطانيا الدفاعية، كان نفوذه اقل فعالية مما ينبغي بسبب مشاعره التقليدية وتشوش رؤياه... كذلك لم يتبين بصورة كافية الاخطار التي تواجه السفن الحربية البريطانية من جراء الهجمات الجوية... كذلك اهمل، وان يكن لم يذكر ذلك، تأثير السلاح الجوي على الجيوش... اما فيما يتعلق بالمدرعات فقد بقي ينظر اليها على اساس دورها البطيء في عام ١٩١٨، وهكذا اخفق في فهم تقنية القصف الخاطف عن طريق الاختراق الميكانيكي السريع والفعّال لقطع اوردة التموين... وفي الربيع التالي، بعدما ارتكب هتلر عدوانه الثاني، قلب نيفيل تشمبرلين (رئيس الوزراء حينذاك في ١٩٣٩ - المعرِّب) موقفه بشكل مفاجيء (من سياسة الاسترضاء والتهدئة الى سياسة الاستنفار والمواجهة - المعرِّب) ومنح بولندا ضمانات يتعذر تنفيذها دون ان يضمن دعم روسيا. وايده تشرتشل في هذا الموقف، في حين كشف لويد جورج ماينطوي عليه من حماقة... ومع ذلك فقد دعم (تشرتشل - المعرِّب) في ذلك الحين، مع جميع رجال السياسة في بريطانيا بأستثناء لويد جورج، هذه الضمانة غير المنطقية مدفوعا بأقتناع واه بأنها ستؤدي الى كبح جماح هتلر. وفي الواقع لايوجد مثيل لهذه الحالة المذهلة من الخداع الذاتي الجماعي بدافع السخط الاخلاقي»(**). ولايسعني الا الاعتراف الصريح، ان دراسة ليدل هارت عن سيرة تشرتشل في الحرب العالمية الثانية، كانت دراسة موضوعية وتحليلية ونقدية مثيرة ثاقبة للخطط التي وضعها، والمواقف التي اتخذها، والسياسات التي انتهجها، والاهداف التي اختارها وتوخاها. ومن هنا، تستحق ان تكون نموذجا للاقتداء، ومثالاً للاعتبار، وطرازاً فريداً ونمطاً متميزا من الدراسات الرصينة والابحاث القيمة، يتأمله اصحاب الفطن واولي الالباب لعلهم يعقلون فيفلحون. وقد لخّصها تلخيصا واضحاً ودقيقا

(*) المصدر السابق. الصفحتان ١٦٥ - ١٦٦.

(**) المصدر السابق. الصفحات ١٦٨ - ١٧٠.

وذكياً في فقرة واحدة معينة هي كما يلي: «ثمة قصر نظر كبير ساد الاستراتيجية الكبرى للحرب. وقد عانت الديمقراطيات الغربية نتيجة ذلك محنة كبرى منذ ان وضعت الحرب اوزارها. ويعود ذلك الى التوسع الكبير في التركيز على الاهداف القصيرة المدى، والفشل في تكوين نظرة شاملة. كان الهدف، كما لخّصه تشرتشل نفسه، (هزم وتدمير وذبح هتلر، واستبعاد جميع الاهداف الاخرى). ان صيغة (الاستسلام غير المشروط) ادت بطبيعة الحال الى حشد الالمان خلف هتلر، وبالتالي استمرار مقاومتهم واطالة الحرب. وقد ابدى تشرتشل، وكذلك روزفلت (الرئيس الامريكي حينذاك ـ المعّرب)، قصر نظر تجاه الحقيقة الواضحة وهي ان تدمير القوة الدفاعية لالمانيا واليابان معناه افساح المجال امام روسيا السوفياتية للسيطرة على اوربا الشرقية وآسيا ـ وهي المنطقة المسماه اصطلاحاً بالقارة الاوراسية ـ المعّرب»(*) وانهى ليدل هارت دراسته عن تشرتشل وشخصيته وسيرته وسياسته بعبارة جامعة وملاحظة لامعة، مثقلة بالمعاني والدلالات، حافلة بالدروس والعبر، تخصّ جيلاً كاملاً من البشر، وتلخص عصراً حافلاً من التاريخ. ولانزال، نحن ابناء الربع الاخير من هذا القرن العشرين، نعيش ونواجه ونعاني، في كل مكان من الارض حتى الان والى المستقبل المنظور، اصداء وظلال قرارات صنعها تشرتشل منفرداً، او لعب دوراً قيادياً بارزاً واساسياً في صنعها، في فترة قديمة طويلة من التاريخ ومرحلة سابقة واسعة من الزمن، تبدأ من الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، وتصل الى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، وتشمل مابينهما. وليس من المستغرب ابدا ان تتأثر مصائرنا جميعاً في هذه اللحظة، قليلاً او كثيراً، صعوداً او هبوطاً، مداً او جزراً، خيراً او شراً، حزناً او فرحاً، بالحقائق التي ترتبت على افعاله، والنتائج التي نجمت عن مواقفه. دعونا اذن نتأمل مليا ونتدبر سويا ماأفاده ليدل هارت بالحرف الواحد كما يلي: «كان ونستون تشرتشل رجلاً رائعاً برز خلال الظلمة في عصر

(*) المصدر السابق. ص ١٨٤.

الديمقراطيات المعتدلة. . . وقد توصل في بعض الاحيان الى كشف رؤ ى بعيدة مستعيناً بحاسته التاريخية، ولكنه كان مشدوداً الى العمل على مدى قصير بدافع من حاسته التكتيكية وقصر نظر ناجم عن انفعالاته القوية. وعندما كان يشرع في العمل كانت غـريزتـه المكافحـة توجـه مسيرتـه، وعواطفه تضعف قدرته على التأثير، وكان العقل يفرض نفسه بعد فوات الاوان. . . وهكذا عندما قبض على دفة السفينة في عـام ١٩٣٩، كان الاوان قد فات لتجنب الخطر الذي تنبأ به. واستمرت الاحداث تتلاحق بصورة مأساوية تعذر اجتنابها. وانطلقت نحو اوضاع اشد خطورة بعيدة عن رؤ ياه. لقد روى (اللورد ـ المعرّب) بوثبي كيف ان تشرتشل نفسه قال، بمزاج كئيب بعد انقضاء عدة سنوات على نهاية الحرب، ان حكم التاريخ النهائي سيأخذ في اعتباره ليس فقط المنجزات التي تحققت تحت قيادته، بل كذلك النتائج السياسية الناجمـة عنها، ثم أضـاف: في هذا الضوء لست واثقاً من أني سأعتبر قد قمت بواجبي بشكل جيد»(*). هكذا كان الرجل العظيم يعترف بالخطأ المميت في اواخر العمر، بعد ان حمّ القضاء وفات الاوان وسبق السيف العـذل. حقاً، مـا أبعد الشقـة بين الاوهام والوقائع احياناً، ومـاأطول المسـافة بـين مايكتب او يقـال وبين ماحدث بالفعل في الوضع الانساني الحي المعقد. فويل للشجي من الخلي. ويل للعاقل من الجاهـل، وللعامـل من الخامـل، وللكريم من اللئيم، وللصادق من المنافق. كان تشرتشل رجلاً عظيماً بموازين السلطان والمال والنفوذ والجاه، وعبقرياً حقيقياً من عباقرة التاريخ بجميع المقاييس. وكان ليدل هارت رجلاً اعظم بموازين الادب الجم والخلق الرفيع والتواضـع الشديد والضمير الحي وعبقرياً اخلد بمقاييس العقل الثاقب والفكر المبدع والعلم الغزير والذكاء المفرط والنظر البعيد. وتلك هي قناعتي على كل حال. والناس الاخرون احرار في قناعاتهم. فلا لوم، ولا اعتـراض ، ولاجدال، ولا خلاف.

(*) المصدر السابق. الصفحتان ١٨٨ ـ ١٨٩.

وكاد هذا الجانب من الموضوع ان ينتهي ويغلق كما تقدم، لولا مقالب الفكر ومفارقات التاريخ. وقد نال رأي ليدل هارت عن تشرتشل دعماً واضحاً وقوياً، من طرف غير متوقع، وفي موعد غير مضروب. ورب صدفة خير من الف ميعاد. ولايضير هذا الدعم، ولايقلل من شأنه، او ينتقص من قدره، انه قد جاء متأخراً في الزمان، وظهر بعد وقت طويل لاحق. ذلك ان مملكة الفكر خالدة خلود الدهر، باقية بقاء الزمن. والحق ان واقع الحال يستدعي شرح المقال. فقد وقع بصري مؤخرا على كتاب جديد مثير، صدر باللغة الانكليزية في هذه الايام، من تأليف باحث قدير واديب لامع وكاتب معروف بأعماله العلمية الموثقة وتصانيفه التاريخية الدقيقة، يدعى (ديفيد ارفينج). وكان بعنوان (حرب تشرتشل)(*).

واستخلص المؤلف نتيجة واحدة معينة من دراسته الموسوعية الضخمة، اعارها درجة قصوى من الاهمية والخطورة، حتى انه اثبتها مسبقاً وابرزها على الغلاف بأعتبارها خلاصة عامة شاملة. فأفاد ان «ونستون تشرتشل كان رجلاً دمر امبراطوريتين، احداهما كانت معادية». واستطرد المؤلف قائلاً: «عندما ولدت سنة ١٩٣٨، كانت الامبراطورية البريطانية علامة فارقة دالة ثابتة راسخة من علامات الكرة الارضية، وكانت ملكة البحار وسيدة الدول، لاتغيب الشمس عن ممتلكاتها، ولاتحتجب رايتها عن مساحات واسعة من القارات الخمس. ولكن ما ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) حتى كانت تلك الامبراطورية قد دخلت

(*) ديفيد ارفينج. حرب تشرتشل. الجزء الاول. الصراع على السلطة. طبعة فيريتاس استراليا. سنة ١٩٨٧. الجزء الثاني. النصر والتدهور. لم يصدر بعد.
DAVID IRVING. CHURCHILL'S WAR. VOLUME ONE. THE STRUGGLE FOR POWER. VERITAS. AUSTRALIA. 1987.

الى طور الاحتضار. وسرعان مالفظت انفاسها الاخيرة وانقرضت وزالت من الوجود الى الابد». واوضح كيف ان تشرتشل قد استبعد وبدد واخمد، عمداً وعن سابق تصور وادراك وتصميم، الفرصتين الوحيدتين للسلام في اوربا اللتين كانتا قد سنحتا في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠ على التوالي. فأستطاع بشخصيته القوية وعزيمته الجبارة وارادته الفولاذية ان يقود امته ودولته وامبراطوريته الى نصر قاطع كامل مطلق، ادى الى سلام ضائع وأمن مزعزع واستقرار مفقود وعالم خائف مضطرب(*). وقد وصف تشرتشل وصفاً ربما كان قاسياً، ويمكن ان يكون مثارا للاختلاف ومدارا للجدل، بقوله كما يلي بالحرف الواحد: «كان تشرتشل لايشعر بالغبطة والسعادة الا في غمرات ولجج الحرب. ولم يخف هذا الميل من جانبه على الاطلاق، ولاتردد في اعلانه صراحة لحظة واحدة في يوم من الايام. ونادراً ماكان رجلاً بانياً. ولكنه كان دائماً رجلاً هادماً، هادماً للمدن والشعوب والدول والعروش، وهادماً للشواهد التاريخية والانصاب الفنية والروائع الاثرية والحدود الاقليمية. واخيراً، لم تفلت حتى الامبراطورية البريطانية من معوله الهدّام. فلم يتوقف عن نشاطه المتميز الدائب المحموم حتى اودى بها وقضى عليها القضاء المبرم»(**).

واعتقد اننا قد اوفينا الآن هذا الجانب من الموضوع ما يستحقه من اهتمام وبحث وتحليل. فنكون بذلك قد وصلنا الى فصل المقال وتمام الحوار ومسك الختام في هذا الصدد.

(*) المصدر السابق. الصفحتان ٥٩٠ ـ ٥٩١.

(**) المصدر السابق. الجزء الاول. المقدمة. الصفحتان ١٥ و ١٧.

٥ . حوار العباقرة والمفكرين: (صن تزو) و(كلاوزوفيتز) في منظور ليدل هارت:

في سنة ١٩٥٤، نشر ليدل هارت كتابه المعروف الذائع عن نظرية ومنهجية استراتيجية الاقتراب غير المباشر(*). وعلى الرغم من انه قد تطرق الى (كلاوزوفيتز) في المتن بأشارات عديدة وتعليقات مختلفة وردت في مواضع متفرقة(**)، الا انه لم يذكر اسم (صن تزو) في هذا السياق ولامرة واحدة على الاطلاق. ولكنه، مع ذلك، اتخذ موقفا في تصدير الكتاب، ينطوي على اكثر من دلالة معينة وبادرة واضحة. فوضع في الصفحة الاولى عددا قليلا من الحكم المأثورة والوصايا المختارة التي تؤميء الى نظريته المبتكرة ومنهجيته الجديدة، تلميحاً وليس تصريحاً، بالاشارة وليس بالعبارة، بالمعنى العام، وليس بالتنظير الدقيق، نقلاً عن المفكر الصيني (صن تزو) الذي وضع كتابا بعنوان (فن الحرب) سنة (٥٠٠) ق.م. وقد افاد صن تزو في تلك الامثلة المعينة والفقرات المختارة التي اقتبسها ليدل هارت مايلي بالحرف الواحد: «لايعرف التاريخ مثالاً واحداً عن بلد حقق كسباً او احرز نصراً بأصراره على الاستمرار في حرب طويلة... في جميع المعارك التي تخوضها، تستطيع ان تستخدم اسلوب الهجوم الجبهوي

(*) السير باسيل ليدل هارت. الاستراتيجية: نظرية ومنهجية الاقتراب غير المباشر. باللغة الانكليزية. طبعة فابر و فابر. بريطانيا. سنة ١٩٥٤. وقد نقلها الهيثم الايوبي الى العربية في ترجمة متقنة ودقيقة. دار الطليعة. بيروت. سنة ١٩٦٧. كما توجد طبعة امريكية نشرت (٨) مرات، الاولى في سنة ١٩٥٤ والثامنة في سنة ١٩٦١. برايجر. نيويورك.
وقد اشرنا الى هذا المصدر باللغة الانكليزية سابقاً.

(**) المصدر السابق. راجع الصفحات: ١٦٣، ١٦٨، ١٩٨، ٢٢٤ ـ ٢٢٧، ٣٣٣، ٣٣٨ ـ ٣٣٩، ٣٤٣، ٣٥٢ ـ ٣٥٧، ٣٦٣ من الطبعة الانكليزية على التوالي.

المباشر للالتحام بالقتال مع العدو، ولكنك تحتاج الى استخدام الاساليب والوسائل غير المباشرة اذا اردت حسم الحرب وتوخيت احراز النصر. . . تتشابه التعبويات العسكرية مع الماء في المجرى الذي يتبعه والمسار الذي يتخذه. ومن طبيعة الماء ان يتحاشى الاماكن العالية والمرتفعة، وان يتجه الى الاماكن الواطئة والمنخفضة. وكذلك هي الحرب. فأجتنب الهجوم على الدفاعات المنيعة والحصون القوية، وأهجم على المواقع غير المحصنة او المفاصل الهشة والضعيفة. . . الطريق الاطول قد يكون أحياناً الطريق الاقصر والاسرع والاضمن. . . السرعة هي جوهر الحرب. استغل عدم استعداد العدو، واطرق المسالك غير المتوقعة، وهاجم المواقع غير المحروسة»(*). ومن الجدير بالذكر والتأمل، ان ليدل هارت قد اقتبس ما اقتبسه من صن تزو، وكانت الكثرة الكاثرة من المثقفين غير المتخصصين في حينه لم تسمع حتى بأسمه، فضلاً عن فكره، ولم تطلع على كتابه (فن الحرب) الا قلة قليلة من الباحثين المتفرغين المحترفين.

وفي سنة ١٩٦٣، قام الجنرال الامريكي صموئيل جريفيث، جزاه الله خيراً عميماً وثواباً باقياً، بنقل كتاب صن تزو عن فن الحرب الى الانكليزية، في ترجمة دقيقة كاملة، وبلغة جميلة رائعة(**). وظهر الكتاب الى

(*) المصدر السابق. الصفحتان ١٣ ـ ١٤ من مقدمة الطبعة الانكليزية.

(**) صن تزو.فن الحرب. نقلها عن الصينية الى الانكليزية الجنرال صموئيل ب. جريفيث. مع مقدمة بقلم السير باسيل ليدل هارت. مطبعة جامعة اكسفورد. سنة ١٩٦٣.

SUN TZU. THE ART OF WAR. TRANSLATED FROM CHINESE INTO ENGLISH, WITH AN INTRODUCTION, BY SAMUEL B. GRIFFITH, AND A FORWARD BY SIR BASIL H. LIDDELL HART. OXFORD UNIVERSITY PRESS. 1963.

وتوجد ترجمة عربية بقلم محمود حداد. دار القدس. بيروت.الطبعة الاولى. شباط (فبراير) سنة ١٩٧٥. وهي ترجمة غير سيئة نسبياً بوجه عام والى حد معين. ولكنها غير دقيقة في بعض الاحيان، وغير كاملة في الكثير من المواضع. والله اعلم ـ المعرِّب.

النور بمقدمة كتبها السير باسيل ليدل هارت. وفي تلك المقدمة، قارن ليدل هارت بين صن تزو وكلاوزوفيتز مقارنة تحليلية نقدية شاملة، لعلها الاولى من نوعها في هذا المجال، على حد علمنا واطلاعنا، لم يسبقه اليها باحث، ولم يشاركه فيها احد. ويبدو واضحاً من سياقها ان ليدل هارت كان أميل الى صن تزو منه الى كلاوزوفيتز. بل انه قد اعرب عن اعتقاده المدروس والصريح، ان كلاوزوفيتز، المفكر الاستراتيجي الالماني الحديث، كان ينتمي بفكره الى مدرسة تقليدية قديمة، وان صن تزو، المفكر الاستراتيجي الصيني القديم، كان ينتمي بفكره الى مدرسة تجديدية معاصرة. او بعبارة اخرى، ان ليدل هارت يعتقد ان كلاوزوفيتز كان مفكرا تقليدياً قديماً بفكره وأن صن تزو كان مفكراً تجديدياً معاصراً بفكره. ويبدو، في ضوء الاستقراء العلمي والاستنتاج العقلاني، ان ليدل هارت قد اصدر هذا الحكم، واتخذ هذا الموقف، انطلاقا من نظريته ومنهجيته في استراتيجية الاقتراب غير المباشر، بأعتبار ان صن تزو اقرب اليها والصق بها، وان كلاوزوفيتز ابعد عنها وأشق عليها.

هل تأثر ليدل هارت في نظريته ومنهجيته عن استراتيجية الاقتراب غير المباشر بفكر صن تزو؟؟ وهل لعبت تعاليم صن تزو دوراً اساسياً حاسماً مباشراً في تكوين وأستكمال وظهور تلك الاستراتيجية على يد ليدل هارت؟؟ لاندري ولانعلم. ولانستطيع ان نحكم او نجزم. ولايمكن ان نقطع الشك باليقين. ولكن الارجح في التقدير، والاغلب في الظن، في ضوء المعلومات الراهنة والقرائن المتوفرة، أن فكر ليدل هارت كان قد قطع شوطاً بعيداً، وتبلور تبلوراً واضحاً، في هذا الموضوع، قبل ان يطلع على فكر صن تزو في هذا الصدد، بوقت قد يكون طويلاً او قصيراً. اذ يقول ليدل هارت نفسه، كما سيرى القارىء لاحقاً في ادناه، انه قد سمع بأسم صن تزو للمرة الاولى في سنة ١٩٢٧. ثم يستطرد قائلاً انه قد طالع (فن الحرب) في حينه، فوجد أن كثيرا من ملاحظات صن تزو تتفق مع افكاره. مما يدل ويوحي ان تعاليم صن تزو قد ادت بالفعل الى تدعيم وتعزيز

وتوطيد قناعات ليدل هارت، ولكنها لايمكن ان تكون السبب الذي قاده الى استراتيجية الاقتراب غير المباشر، ودفعه الى الاهتمام بها والكشف عنها. دعونا اذن نطالع ونراجع ماكتبه ليدل هارت عن صن تزو وكلاوزوفيتز في تلك المقدمة. وقد افاد بالحرف الواحد مايلي: «تعتبر الفصول التي كتبها المفكر الصيني القديم صن تزو، وجمعت في كتاب بعنوان (فن الحرب)، اقدم دراسات معروفة من نوعها على الاطلاق في العالم قاطبة. ولم يستطع احد من المتأخرين ان يفوقها في العمق والشمول.

ويمكن وصفها بأنها خلاصة الحكمة في ادارة الحرب. ومن بين جميع المفكرين العسكريين الكبار المحدثين، لايرقى له ولايقارن به إلا المفكر العسكري الالماني المعروف كلاوزوفيتز. ولكن كلاوزوفيتز، وأن كان حديثاً في الزمان، الا انه كان عتيقاً في الفكر، بالقياس الى صن تزو الذي يبدو معاصراً، حاضراً بفكره حضوراً قوياً، على الرغم من المسافة الزمنية الطويلة التي تفصل بين هذين المفكرين، والتي تزيد على الالفين من السنين. ينتمي كلاوزوفيتز بفكره الى مدرسة قديمة قد اصابها الوهن وادركها الاعياء ونالها التعب، وأفل نجمها، وخبا بريقها، وفات اوانها. وينتمي صن تزو، بالمقابل، الى مدرسة جديدة شابة. وقد احتفظ فكره بعنفوانه ونشاطه وبريقه وجدواه، لانه احتفظ بأهميته ومصداقيته وحيويته وفائدته. ولكن لو قورن بكلاوزوفيتز، فسيثبت ان صن تزو، دون ادنى شك، كان اوضح فكراً، واعمق نظراً، واسلس تعبيراً، وأطول باعاً، وابقى اثراً.

وكان من الممكن تجنيب الحضارة الانسانية كثيراً من الويلات والمصائب والاضرار والخسائر التي عانتها وقاستها وكابدتها في الحربين العالميتين الاولى والثانية في النصف الاول من هذا القرن العشرين، لو ان فكر كلاوزوفيتز كما جاء في كتابه المعنون (في الحرب)، الذي كان سيد الموقف غير منازع وفارس الميدان دون منافس في الفكر العسكري الاوربي الحديث حتى الحرب العالمية الاولى، كان قد اقترن بفكر صن تزو كما جاء في كتابه

المعنون (فن الحرب)، فأستطاع من ثم ان يكتسب او يستيعد شيئاً من التوازن والاعتدال والانضباط الواقعي الحكيم. والحقيقة ان فكر صن تزو، بطبيعته المعتدلة ومنهجيته الواقعية ونزعته المتوازنة التي تميل الى الرصد الشامل والتحليل الدقيق والتقدير الموضوعي للموقف، كان نقيضاً للفكر الذي نطالعه في كلاوزوفيتز، والذي كان أميل الى المنطق المجرد والتحليل النظري والعقل المطلق. وقد استجاب له واقتدى به مريدون متعصبون وتلامذة مبهورون، مما دفعهم الى تطوير نظرية ومنهجية «الحرب الكلية الشاملة»، تطويراً حرفياً جامداً متحجراً، حرمهم من دلالات المعنى الصحيح، وابعدهم عن حقائق الواقع الحي، واخرجهم عن حدود المنطق السليم. وقد شجعهم على الاندفاع في هذا الطريق المميت مابلغهم من رأى كلاوزوزفيتز القائل: «ان فرض مبدأ الاعتدال على فلسفة الحرب ليس الا سخفاً صارخاً وتطفلاً باطلاً. لان الحرب هي ممارسة عملية للعنف المطلق الذي دفع الى نتائجه الاخيرة ونهاياته القصوى». ولكن كلاوزوفيتز قد عدل عن هذا التأكيد القاطع في وقت لاحق، واظهر شيئاً غير قليل من الحذر والتحفظ والاعتبار. فأعترف «ان الهدف السياسي، بأعتباره الدافع الحقيقي للحرب، ينبغي ان يكون القاعدة القياسية الاساسية التي تقرر الغاية التي تتوخاها القوة العسكرية وحجم الجهد الذي يلزم ان تبذله سعياً الى تحقيقها، في وقت واحد، وعلى حد سواء». وفضلاً عن ذلك، اقتنع كلاوزوفيتز في النهاية، ان دفع المقدمات الى نتائجها المنطقية القصوى، سيؤدي في المحصلة الاخيرة الى «انقطاع الروابط والوشائج بين الوسائل والاهداف انقطاعاً كلياً كاملاً».

وتعود تلك النتائج السيئة التي نجمت عن تعاليم كلاوزوفيتز بوجه عام، الى قيام مريديه وتلاميذه بتفسيرها تفسيراً سطحياً وجامحاً ومتطرفاً، دون ا يكلفوا انفسهم مؤونة البحث المتفحص الدائب ومشقة النظر الى ماتعنيه الكتابات والنصوص وتقصده بالفعل حقاً. ومما زاد الطين بلة والطريق وعورة في هذا المقام، أن هؤلاء التلامذة والمريدين قد عمدوا الى

اغفال واهمال فقراته المشروطة وعباراته المتحفظة. الا ان كلاوزوفيتز قد جلب تلك التفسيرات المبتورة والمشوهة والممسوخة على نفسه بنفسه. لانه عرض نظريته بطريقة مجردة ولغة معقدة، يصعب فهمها ويعسر ادراكها على العسكريين المحترفين من ذوي العقليات العملية والمتصلبة التي لم تتعود على التعامل الا مع الوقائع المشهودة ولاتستسيغ الا الجزئيات المحسوسة. وقد قادهم هذا الوضع في كثير من الاحيان الى اتجاه معاكس للاتجاه الذي كان كلاوزوفيتز يتوخاه في الاصل. وتشبث مريدوه وطلابه بأقواله المأثورة ونصوصه الخلابة، ففاتتهم المعاني المقصودة والدلالات الصحيحة للمفاهيم التي عرضها كلاوزوفيتز، والتي لم تختلف كثيراً عن الاستنتاجات التي اعتمدها صن تزو، الا في الظاهر من حيث الشكل وليس المضمون. وكان يمكن تصحيح الغموض الذي اكتنف فكر كلاوزوفيتز بالوضوح الذي اكسب فكر صن تزو طابعاً متميزاً ورونقاً معيناً. ولكن للاسف لم يعرف كتاب صن تزو في الغرب الا في ترجمة مبتسرة معلولة، أنجزها مبشر فرنسي، قبيل الثورة الفرنسية بوقت قصير.

وعلى الرغم من انها قد قوبلت بالتفهم والاستحسان في بعض اوساط الاتجاه العقلاني للفكر الاوربي في القرن الثامن عشر، الا ان تأثيرها الواعد قد غرق في لجة من الحماسة الثورية، وضاع وتبدد في زحمة النشوة العارمة التي نشأت عن الانتصارات النابليونية على الاعداء المحافظين والتقليديين وأساليبهم التعبوية الموروثة البالية بقوالبها المتحجرة وشرايينها المتصلبة.

وكان كلاوزوفيتز قد بدأ يفكر في نظرياته وسط اجواء ومناخات سيطرت عليها واستبدت بها تلك النشوة، ومات قبل ان يستطيع اكمال مراجعة كتاباته. ومن هنا، تعرضت كتاباته الى سلسلة طويلة ومتلاحقة من سوء الفهم وانحراف المعنى وضياع القصد. وحدث بالفعل تماما ماكان كلاوزوفيتز يخشاه وقد توقع حدوثه مسبقاً، كما افاد في الوصية المكتوبة التي تركها للعقلاء من المفكرين في الاجيال القادمة. ومع ظهور ترجمات لاحقة جديدة في الغرب للكتاب الذي وضعه صن تزو بعنوان (فن الحرب)، كان

نفوذ المتطرفين من مريدي كلاوزوفيتز قد سيطر تماماً سيطرة كاملة مطلقة على الفكر العسكري في العالم الاوربي. وهكذا، شاء القدر الساخر والحظ العاثر ان يتبدد صوت هذا الحكيم الصيني القديم، صرخة في واد، ونفخة في رماد. ولم يستمع احد من العسكريين او السياسيين الى تحذيره: «لم توجد ابداً دولة حققت اية فائدة من حرب طويلة على الاطلاق».

لقد مرت فترة طويلة على الحاجة التي تدعو الى ترجمة كتاب صن تزو ترجمة جديدة دقيقة صحيحة كاملة. وقد ازدادت هذه الحاجة مع تطور الاسلحة الذرية، ذات الطبيعة الانتحارية، والقدرة المخيفة على الابادة الشاملة للبشرية جمعاء. وكان من حسن الحظ حقاً ان يقوم بهذه المهمة الجليلة مفكر قدير من مفكري الحرب، ودارس عليم بالصين تراثاً وتاريخاً ولساناً وروحاً، مثل صديقي العزيز صموئيل جريفيت.

وقد بدأ اهتمامي الشخصي بصن تزو في عام ١٩٢٧. وكنت قد تلقيت في حينه رسالة من السير جون دنكان الذي كان يقود القوات البريطانية في الشرق الاقصى حينذاك. وانطوت تلك الرسالة على الفقرة التالية: «كنت اقرأ في هذه الايام كتاباً رائعاً بعنوان (فن الحرب)، ظهر الى النور في الصين سنة (٥٠٠) ق.م. وقد لفتت نظري واثارت اهتمامي فكرة واحدة معينة بالذات، أعادت الى ذاكرتي نظريتك عن (السيل الجارف المتوسع). ومفادها: (يمكن تشبيه الجيش بالماء. فالمياه تترك الاماكن العالية والمرتفعة للجفاف والعطش. وتتجه الى الوديان المنخفضة والاماكن الواطئة. كذلك يفعل الجيش. لانه يتفادى التعرض على المواقع المنيعة والحصون القوية والمتاريس الراسخة رسوخ الجبال. ويهاجم المواقع الخالية والخطوط المكشوفة والمفاصل الهشة والرخوة والضعيفة. وكما يتحكم شكل الارض بجريان الماء، كذلك يمكن حسم الحرب واحراز النصر بالعمل وفقاً للحالة السائدة في وضع العدو وموقف الخصم). وينطوي هذا الكتاب على قانون آخر يحترمه ويلتزمه القادة العسكريون الصينيون اليوم. ومفاده: (ان ذروة فن الحرب هي انزال الهزيمة بالعدو دون قتال اذا أمكن). ـ انتهت رسالة

السير جون دنكان. وعندما طالعت الكتاب مطالعة ملية متأنية، وجدت فيه نقاطا اخرى كثيرة تتفق مع افكاري ومفاهيمي، وبالاخص تركيزه المستمر على القيام بما هو غير متوقع، وتأكيده المتواصل على استراتيجية الاقتراب غير المباشر. وقد اقنعني ماتقدم ان المفاهيم العسكرية الاساسية تتمتع بشباب دائم، ولاتصاب بالشيخوخة ابداً مع توالي القرون وتعاقب العصور، حتى تلك التي تتعلق بالجوانب التعبوية.

وبعد خمسة عشر عاما تقريبا، وفي خضم الحرب العالمية الثانية، زارني عدة مرات الملحق العسكري الصيني، الذي كان واحداً من تلامذة (تشان كاي تشيك) رئيس الصين الجمهورية الوطنية حينذاك(*). وقد اخبرني بأن كتبي وكتب الجنرال (فولر) قد قررت للتدريس في الاكاديميات العسكرية الصينية، بأعتبارها كتب منهجية اساسية. فسألته: (وماذا عن صن تزو؟). فأجابني بأن كتاب صن تزو قد صنف باعتباره كتاباً من الكتب التراثية والادبيات التقليدية، وان معظم الضباط يرونه عملاً قديماً لايصلح ان يكون موضوعاً للتدريس في عصر الاسلحة الميكانيكية. ولم اتمالك نفسي، ولااستطعت ان اكتم انفعالي. فأخبرته بكلمات صريحة ان الوقت قد حان للعودة الى صن تزو. وافهمته ان هذا الكتاب الواحد الصغير الحجم، يحتوي على المفاهيم المركزية والمبادىء الاساسية للاستراتيجية والتكتيك، وهي المفاهيم والمباديء التي احتجت انا في شرحها الى تأليف مايزيد على عشرين كتاباً»(**)

لاشيء اوضح من الوضوح. واعتقد ان هذا الكلام الواضح لايحتاج الى المزيد من الايضاح.

(*) كان ذلك عام ١٩٤٢. اي، قبل انتصار الثورة الشيوعية في الصين، واعلان قيام (جمهورية الصين الشعبية)، وصعود (ماوتسي تونغ) الى منصب الرئاسة - المعرِّب.

(**) صن تزو. فن الحرب. ترجمة انكليزية بقلم الجنرال صموئيل جريفيث. المقدمة بقلم السير باسيل ليدل هارت. المصدر المذكور سابقاً. الصفحات ١-٣.

٦. النهاية ـ ليدل هارت في ميزان المستقبل وحكم التاريخ:

كان السير باسيل ليدل هارت، بأعتراف الاقربين والابعدين معا والاعداء والاصدقاء على حد سواء، مؤرخاً عسكرياً بارعاً ومفكراً استراتيجياً لامعاً، لايوازيه في علمه بالحرب الا نفر معدود من المفكرين الاستراتيجيين، ولايفوقه احد من القدماء او المعاصرين. ولكنه ينفرد عنهم ويمتاز عليهم جميعاً، بتفكيره الواضح وموقفه الاخلاقي الملتزم الجريء الشجاع ومنهجه الصارم وتعبيره الدقيق واسلوبه الادبي الشيق، الذي يشدنا شداً، ويهزنا هزاً، ويسحرنا سحراً، ويتحدانا تحدياً صارخاً عنيفاً، ويدفعنا دفعاً حثيثاً دائباً الى المزيد من التأمل والتفكير والحوار والبحث، مهما كان موقفنا منه، وحكمنا عليه، ورأينا به. وتلك لعمري هي الصفة المميزة والعلامة الفارقة للمفكر الرصين والفيلسوف الحقيقي. حتى انك تستطيع، لو احببت ورغبت وأردت، ان تخالفه وتعارضه وتنتقده. ولكنك لاتستطيع، مهما حاولت او فعلت او صنعت، أن تنكر او تغمط او تحجب او تتجاهل، الدور الذي لعبه، والجهد الذي بذله، والاثر الذي تركه، والتطور الذي حققه.

وكان عدد كبير وجمع غفير من اعظم وابرز القادة العسكريين والجنرالات المقاتلين في الحرب العالمية الثانية من مختلف الجيوش والدول، ومن بينهم الجنرال الالماني (هانز يواكيم غودريان)، مؤسس وقائد جيوش وفيالق الدبابات (البانزر PANZER)، يعتبرون انفسهم من طلابه ومريديه، ويتصرفون بالفعل على هذا الاساس. وقد نقلت الموسوعة الالمانية (DER GROSSE BROCKHAUS) عن الجنرال غودريان قوله ان ليدل هارت كان «مؤسس ورائد نظرية ادارة الحرب البرية الميكانيكية المتحركة»(*). وقد وصفه الجنرال الفرنسي (غاسين) بأنه «اعظم مفكر

(*) الحرب في النظرية والتطبيق. المصدر المذكور سابقاً. سيرة ليدل هارت. الصفحتان ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

عسكري في القرن العشرين، وان افكاره قد احدثت ثورة في فن الحرب»(*). كما ان الرئيس الامريكي الراحل (كينيدي) كان في حينه قد اعرب عن اعجابه به وتقديره له، واثنى احر واطيب الثناء على التأثير الذي مارسه عن جدارة واستحقاق على اجيال كاملة من القياديين العسكريين والمفكرين الاستراتيجيين والمثقفين الموسوعيين والفلاسفة المتخصصين والمؤرخين المحترفين في العالم اجمع. وقد رحل ليدل هارت عن هذه الدنيا عن عمر تجاوز السبعين عاماً، كما يرحل كل انسان كائناً من كان في اوانه المحتوم وأجله الموعود. ولكنه ترك اسماً لامعاً في التاريخ، وأرثاً قيماً للانسانية المتمدنة جمعاء. وقام في حياته بتأليف مايقارب من (٣٠) كتاباً ترجمت الى مايزيد عن (٣٠) لغة من اللغات الحية. وكان في السنوات الاخيرة من عمره قد كتب مذكراته باللغة الانكليزية. ونشرها في مجلدين سنة ١٩٦٥. وقد وافاه الاجل سنة ١٩٧٠م، وكان يقوم بتصحيح مسودات طبعة جديدة ومنقحة وموسعة من هذا الكتاب عن فلسفة التاريخ، الذي ظهر اصلاً باللغة الانكليزية للمرة الاولى في سنة ١٩٤٤م.

وقد عرض في هذا الكتاب ماأراده وتوخاه واختاره من خلاصة حكمته وزيدة تجربته وخميرة معرفته وحصيلة دراسته. فكأنه قد خاطب الانسانية جمعاء للمرة الاخيرة، وكتب وصيته الاستراتيجية الحية الباقية للاجيال القادمة من جميع الامم والدول والاوطان والجيوش.

وقد اشرف ولده (ادريان) بعد وفاته، على اعداد ونشر هذا الكتاب الذي رسم صورة جميلة وامينة وموضوعية عن هذه الشخصية الرائدة الفريدة المتعددة المواهب والجوانب والاهتمامات، التي تمتعت، على الرغم من كره الكارهين وحقد الحاقدين وحسد الحاسدين، بسمعة علمية عالية رفيعة، واسعة النطاق، عالمية النفوذ. حتى وصفه قائد عسكري بارز ذات يوم بقوله «انه الكابتن (الرائد) الذي كان معلماً للجنرالات». ومن هنا

(*) المصدر السابق نفسه.

وصفه الجنرال الامريكي (جورج باتون) قائد الجيوش المدرعة في الحرب العالمية الثانية بقوله: «لقد كانت كتبه وابحاثه هي الغذاء الفكري والزاد الروحي الذي عشت عليه واستعنت به طوال عشرين عاماً». وكان الجنرالان الالمانيان (غوردیان) قائد الجيوش المدرعة في الجبهة الروسية، و(رومل) قائد الجيوش المدرعة في الجبهة الافريقية، قد اعترفا معاً انهما قد تتلمذا عليه، وتعلما منه، ونهلا من معينه، ونسجا على منواله. وقد اصبحت داره الريفية الهادئة ومكتبته الشخصية المتخصصة، في مدينة (ميدمينهام) بمقاطعة (بكجنهام شير)، محجة للباحثين الاستراتيجيين، وكعبة للعسكريين المحترفين، ومدرسة للمؤرخين الصاعدين والمجددين، من جميع الامم والدول والجيوش والجامعات. وكفاه حمداً وشرفاً وفخراً وامتيازاً انه قد اعترف بفضل العرب، واشاد بهم، واثنى عليهم، وأمتدح الدور البارز والرائد الذي لعبته الفروسية العربية، المعروفة بالشهامة والنخوة والمروءة، في تطوير قوانين الحرب على اسس ثابتة وراسخة وعادلة من القيم الاخلاقية والمبادىء الانسانية والتقاليد النبيلة(*)، فكان ثاني اثنين في هذا المضمار بعد المفكر العلّامة الفرنسي (غوستاف لوبون) الذي سبقه بالزمان في كتابه الموسوعي المعنون (حضارة العرب) الى التأكيد بالقول: «لم ير التاريخ فاتحاً اعدل ولا ارحم من العرب»(**).

ولعل الملاحظة الاخيرة الجديرة بالتسجيل والتحليل والتعليل، التي لفتت نظري واثارت اهتمامي واستقطبت تفكيري، هي ان ليدل هارت، الذي فرغ من تاليف كتابه المعنون (لماذا لانتعلم التاريخ؟) ونشره في سنة ۱۹۷۱، يبدو في مواضع كثيرة وفقرات مختلفة من متنه، كما لو كان قد كتبه خصيصا عن الحرب العراقية - الايرانية التي نشبت واندلعت في سنة

(*) راجع البند العاشر بالعنوان الفرعي (مشكلة الحرب المحدودة) من الفصل الثالث المعنون (الحرب والسلام) من هذا الكتاب. ص١٧٥.

(**) غوستاف لوبون. حضارة العرب. نقله الى العربية عن الفرنسية عادل زعيتر. طبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة. سنة ١٩٦٩. ص ٦٠٥ - المعرِّب.

١٩٨٠ . وتاتي الاستنتاجات التي استخلصها من العواقب، والدروس التي اشتقتها من التجارب ، والعبر التي استنبطها من المصائب، كما لو انها تدين وتسفهّ حماقة ورعونة وعماوة وجهالة نظام خميني ، وتزكي وتستحسن واقعية وعقلانية وحكمة ومصداقية عراق صدام حسين، قائدا وجيشا وشعبا ووطنا . فكأن ليدل هارت ، وفي وقت مبكر سابق من التاريخ، قد اخترق استار المستقبل ، واقتحم حجب المجهول، واختزل المسافات البعيدة من الزمان القادم، فاظهر وابان الحق من الباطل، والذكاء من الغباء، والمورد العذب من المركب الصعب، والخيط الابيض من الخيط الاسود. فجزاه الله خيرا عميما وثوابا باقيا ومقاما لائقا محفوظا في قوافل المبدعين ومواكب الخالدين ومحافل الموهوبين من العلماء والفلاسفة والمفكرين. وارجو متجردا مخلصا ان لاتغيب هذه الحقيقة عن الاذهان، وان لاتفوت هذه الملاحظة على القراء الاعزاء الكرام . وحينذاك سيدركون ماقصده ويعرفون ماعنيه، فيوافقونني او يخالفونني، وفي الحالتين يفهمونني او يعذرونني. ولكن الكتاب نفسه سيظهر لامحالة في وضع مختلف وضوء اخر.

وكما طالب فلاسفة القانون واساطين القضاء وفقهاء العدالة، دائما ، بتحرير الانسان من الجوع والفقر والحرمان والظلم، دفاعا عن قيمه وحقوقه وحرياته، واطلاق سراحه من السجون والمعتقلات والمنافي، الا اذا كان مجرما او مجنونا اومحكوما، كذلك طالب ليدل هارت بتحرير العقل من قيود واصفاد واغلال الجهل، دفاعا عن قيمه وحقوقه وحرياته ايضا، واطلاق سراحه من سجون التعصب وغياهب الظلام ومعتقلات الغرور ومنافي الخوف والطمع والحسد والنفاق والرياء والاستهتار والزيف. فاسدى الى العلم خدمة جليلة لاتنسى ولاتطوى ولاتمحى. واستحق شكر وامتنان واحترام وتدير كل انسان في كل زمان ومكان.

وعسانا لانغالي كثيرا، ولانذهب بعيدا، اذا اعربنا عن اعتقادنا ختاما: ان البريطاني السيرباسيل ليدل هارت، كان، ولايزال، وسيبقى ، نجما متالقا هاديا في سماء الدراسات الاستراتيجية على الاطلاق في العالم اجمع الى

الابـد، جنبا الى جنب مـع مفكرين استـراتيجيين معـدودين مبـدعـين موهوبين، من جميع الامم والدول والاوطان، خـالدين مـاخلد الزمن، باقين مابقي الكون، مذكورين ماذكر العقل، شامخين ماشمخ العلم، من امثال الصيني (صن تزو) والالماني (كلاوزوفيتز)، وسواهم من اندادهم واقرانهم. وتلك لعمري هي حقيقة الواقع وعظمة العلم وعبقرية الفكر في اشرف مراتبه وارفع مواهبه واعلى قممه واخلد مفاخره وامجاده.

احمد الله ان اكون ربما قد انصفت السير باسيل ليدل هارت، واوفيت ولو شيئا قليلا وقسطا صغيرا ونزرا يسيرا من حقه وفضله وجهده وعلمه، انسانا وباحثا ومؤرخا عسكريا ومفكرا استراتيجيا وفيلسوفا من فلاسفة التاريخ في القرن العشرين.

حقا، ان بعض الافراد القلائل من البشر، يبعثون في الانسان احيانا، شعورا من الفخر والاعتزاز والاطمئنان والارتياح، بالانتساب الى الجنس البشري والانتماء الى النوع الانساني.

ولو شاء السير باسيل ليدل هارت ان يكتب قولا حكيما مأثورا، يلخص اسوأ واوخم ماعاناه واحزنه في عمره، ويحفره شاهدا حيا باقيا على قبره، درسا للامم القاصية والدانية، ونذيرا للاجيال الجديدة الراهنة والبعيدة، لكان لسان حاله يقول مع (المتنبي):

«ومن البلية (نصح) من لايرعوي

عن غيه، وخطاب من لايفهم»(*).

والله اعلم.

حازم طالب مشتاق

بغداد. في ١٩٨٧/٩/٢٧

(*) ديوان المتنبي. شرح البرقوقي في (٤) مجلدات.

انظر هذا البيت في قصيدته العصماء من قافية الميم، ومطلعها: لهوى النفوس سـريرة لاتعلم. . . . . أسلمُ، و (نصـح) التي وردت في الصـدر، هي (عذل) في الاصل. المكتبة التجارية الكبرى. مطبعة الاستقامة. القاهرة. سنة (١٣٥٧ هـ) - (١٩٣٨م.). الجزء الرابع. ص ٣٢٢.

مقدمة الناشر:
بقلم ادريان ليدل هارت

توفي ابي في سنة ١٩٧٠م، وكان يراجع طبعة جديدة موسعة ومنقحة ومصححة من هذا الكتاب الذي ينطوي على زبدة تجربته وعصارة فلسفته وخلاصة تاملاته في التاريخ، كان قد نشره اصلا في سنة ١٩٤٤.

وفي ربع القرن الاخير من حياته وحتى وفاته، استمر ابي يكتب بغزارة عن التاريخ، ويشارك بدور هام وبارز في صنعه ايضا. وقد نشر العديد من الدراسات والابحاث عن الشؤون الدولية والعسكرية الراهنة. كما قام بتاليف جملة من الكتب عن قضايا وموضوعات كانت قد دخلت هي نفسها حينذاك الى رحاب التاريخ، واصبحت في عداده وذمته. وقد دفع بمذكراته الشخصية في مجلدين الى المطبعة في سنة ١٩٦٥-١٩٦٦، وكتب عن سيرته الذاتية من ولادته في اواخر القرن التاسع عشر وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩م من القرن العشرين. واخيرا، فرغ من تاليف كتابه الموسوعي الموعود عن تاريخ تلك الحرب وكان في الواقع مشغولا بتصحيح مسوداته، ومراجعة هذا الكتاب ايضا، عندما وافاه الاجل وداهمه القدر.

وكان ابي ايضا مستشارا غير رسمي، يراجعه عدد متزايد من القادة والزعماء السياسيين والعسكريين من جميع انحاء العالم. وكانت شبكة مراسلاته البريدية واسعة وكثيفة. وقد احب حبا جما السفر والتجوال والاطلاع بنفسه على احوال الامم والدول والبلدان على الطبيعة المباشرة الحرة طوال حياته. وقد سافر كثيرا، وزار العديد من الدول بدعوة من مؤسساتها الحكومية او معاهدها العسكرية، باعتباره خبيرا استشاريا ومحاضرا علميا. وعند بلوغه السبعين من عمره، ذهب الى جامعة كاليفورنيا استاذا زائرا في التاريخ العسكري. وكان بيته الريفي الهادىء في انكلترا محطا لسيل دائم لاينقطع من الزوار يسألونه العون والنصح والارشاد، ويستأذنونه في الاستفادة من وسائل وتسهيلات البحث العلمي التي وفرها في مكتبته الشخصية الفريدة بمساعدة جامعة لندن.

وكان رحمه الله ابا روحيا ومرشدا علميا لجيل كامل من المؤرخين الجدد. كما ان اقرانهم وامثالهم من معاصريهم في جيوش دول عديدة ومعظمهم يشغلون الان المواقع القيادية العالية، ويحملون الرتب العسكرية الرفيعة، يعتبرون انفسهم من طلابه وتلاميذه. وقد اصبح ابي شخصية بارزة ومرموقة في وقت مبكر من شبابه بعد الحرب العالمية الاولى. وارتبط اسمه ارتباطاً وثيقاً ومباشرا بشخصيات واحداث دخلت الان الى التاريخ من اوسع ابوابه. فكان صديق (لورنس) العرب وكاتب سيرته. وعاون (لويد جورج) في كتابة مذكراته عن الحرب العالمية الاولى، وساعده في المعارك السياسية والمساجلات الفكرية التي خاضها بعد ان وضعت تلك الحرب اوزارها. وكان حليفاً للسيد (ونستون تشرتشل) في الفترة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية. ولكن حلفه مع تشرتشل لم يمنعه من نقده نقداً مريراً وساخناً ولاذعاً، عندما اقتنع ان هذا النقد اصبح واجباً وضرورياً ومحتوماً، وبالاخص للقرار الذي اتخذه تشرتشل بأعلان الحرب على المانيا، والاصرار على تدميرها تدميراً كاملاً ونهائياً، ومطالبتها بالاستسلام استسلاماً مطلقاً دون قيد ولاشرط.

وفي نصف قرن من الزمان، اختلفت المشاكل، وتبدلت المواقف، وتطورت الظروف. ولكنه لم يعرف معنى الشيخوخة في مواجهته للعالم الجديد المتجدد. وكان رجلاً عصرياً واعياً ومستنيراً ومتابعاً حتى اللحظة الاخيرة من حياته، لاتفوته شاردة او واردة، ولا تعوزه الوسائل او تنقصه الاهتمامات والمشاغل، وتلك هي النظرة الموضوعية الحقيقية الى خلفياته الشخصية والعلمية والعامة التي لايمكن اغفالها او تجاهلها، اذا اردنا العدل وتوخينا الانصاف، في تقييم دراساته المتعلقة بالتاريخ، ومساهماته فيها، وتأملاته عنها.

لقد كان السير باسيل ليدل هارت باحثاً منهجياً صارماً، ومثقفاً موسوعياً دقيقاً. ولكنه لايمكن ان يعتبر مؤرخاً بالمعنى الاكاديمي التقليدي الحرفي الضيق المتشنج. وكانت اول شهادة جامعية رسمية قد نالها في حياته

الطويلة الحافلة هي شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة اكسفورد. وعلى الرغم من اهتمامه الفائق بالعصور القديمة والازمنة الغابرة، درساً وبحثاً وتأليفاً، أمتداداً من حروب الرومان ثم وصولاً الى معارك الحرب الاهلية الامريكية، الا انه كان أكثر اهتماماً بالوقائع والاحداث القريبة التي يمكنه التثبت من صحتها بالرجوع الى المصادر العيانية والشخصيات الحية والشواهد المحسوسة. وكان يسجل الاحداث التي عاصرها وشاهدها في يومياته تفصيلاً، ويدوِّن التجارب التي خاضها وعاناها والمقابلات التي عقدها واجراها تدويناً حرفياً مسهباً.

وكلما سنحت الفرص او ساعدت الظروف، كان يزور ميادين المعارك ومسارح العمليات التي ينوه بها او يكتب عنها، او يعود الى زيارتها مجدداً. وقد قاتل في الجبهة الغربية في الحرب العالمية الاولى بأعتباره ضابطاً بسلاح المشاة في الجيش البريطاني. وقد كان مراسلاً عسكرياً وصحفياً محترفاً في فترة من حياته. وتمتع بشعبية واسعة وسمعة طيبة في الاوساط والدوائر الصحفية والاعلامية. وقد استمر في استخدام الصحف والجرائد، ليس فقط بأعتبارها وسائط للاتصال او وسائل للتأثير، بل ايضاً بأعتبار ان التقارير والمعلومات التي تنشرها يمكن ان تكون من المواد الخام والمصادر الاولية للدراسات والابحاث التاريخية. وفضلاً عن ذلك، امتدت مشاغله واهتماماته الى جوانب عديدة ومختلفة من التاريخ، تبدأ من الاديان وتصل الى الازياء، ولم تنحصر في الموضوعات العسكرية والاستراتيجية التي اشتهر بها وكتب كثيراً عنها. وكان في جميع مراحل عمره، وماتخللها من ازمات ومصاعب، مؤرخاً يسعى سعياً دائباً دائماً للوصول الى الحقيقة المجردة بالموضوعية الصارمة والمنهجية الدقيقة، على الرغم من الضغوط والمغريات الرسمية والتجارية والشخصية التي تعرض لها وعانى منها.

وقد حرص حرصاً شديداً فائقاً على استقلاليته في البحث والاجتهاد والرأي والتعبير، حتى في زمن الحرب. ونجح نجاحاً متميزاً ملحوظاً في الاحتفاظ بها، والدفاع عنها، مهما كانت الظروف والنتائج والتكاليف.

ولكنه كان ايضاً، وبنفس الوقت والاندفاع، مدافعاً عنيداً وصلباً عن حقوق المؤرخين الاخرين على امتداد العالم اجمع في حرية البحث وحرمة العلم وكرامة العقل واستقلالية الاجتهاد والرأي والتعبير، على اختلاف وتعدد الانظمة والبلدان التي ينتمون لها ويعيشون فيها.

ولم يقنع او يرضى لنفسه ان يكون متفرجاً او محايداً. وقد اختار ان ينحاز انحيازاً قوياً، واحياناً انحيازاً عاطفياً وحماسياً جارفاً ومشبوباً، في قضايا تاريخية كثيرة، واخرى معاصرة عديدة. ولطالما ضرب صفحاً عن العمل، وترك القلم والورق جانباً، غالبا على حساب مصلحته واحيانا حتى على حساب صحته وراحته، تصدياً للظلم، او فضحاً للكذب، او دفعاً للشر، حيثما وجده وابصره واكتشفه. لقد كان بحق عالماً رصيناً وانساناً ملتزماً، في وقت واحد، وعلى حد سواء.

وقد انكر النظرية الحتمية في تفسير التاريخ وتطور المجتمع وسلوك الانسان معاً. وأدرك الادوار التي تلعبها القوى والعوامل الاجتماعية والاقتصادية والمادية. ودرس علم النفس في جميع مدارسه ومذاهبه. واخذ بأحكام العقل ومناهج العلم وقوانين المنطق في تحليله للقضايا والوقائع والظاهرات. وعارض دعاوى ومزاعم واوهام الحدس والتخمين والالهام. ولكنه اقتنع اقتناعاً عقلانياً واعياً مدروساً، ان التاريخ قد ينطوي احياناً على احتمالات غير اكيدة، وبدائل غير محسومة ولا مطلقة، ومتغيرات غير محسوبة ولايمكن حسابها حساباً دقيقاً كاملاً مسبقاً، وأن العوامل النفسية والشخصية قد تتدخل تدخلاً كثيراً او قليلاً، قوياً او ضعيفاً، في بعض القرارات التي يتخذها الانسان، او المواقف التي يختارها، او الاحكام التي يصدرها.

وقد ابتعد عن النظرة المتشائمة، والتزم على العموم بنظرة متفائلة، موقناً ان الانسان يمكن ان يتعلم قبل ان يسبق السيف العذل ويفوت الاوان، بالخروج من الظلام الى النور، ومن الفوضى الى النظام، ومن التخلف الى التقدم، ومن الجهل الى العقل، ومن الوهم الى العلم. وتلك هي خلاصة وعصارة وزبدة فلسفة التاريخ التي بلورها واقترحها وعرضها وقدمها في

هذا الكتاب. ومن المؤسف حقاً ان القدر لم يمهله، وان العمر لم يسعفه، وأن الوقت لم يحالفه، للقيام بتحليل المبادىء التي اعتمدها، وربط وتوحيد وتنسيق الاراء والملاحظات التي اصدرها وابداها، وايضاح النتائج والدروس التي استخلصها من ابحاثه وتجاربه. ولكن معظم تلك الاراء والمبادىء والمواقف والدروس والاستنتاجات تجدها تلميحاً او تصريحاً، بالاشارة او بالعبارة، بشكل او بآخر، مبعثرة موزعة متناثرة في كتبه المطبوعة واعماله المنشورة وابحاثه المتداولة. كما تطالعها ايضاً في مراسلاته المحفوظة. ومن اهم وابرز اعماله وكتبه: (الثورة في فن الحرب) المطبوع في سنة ١٩٤٦م. و(الدفاع عن الغرب) المطبوع في سنة ١٩٥٠م، و(الردع ام الدفاع؟)، المطبوع في سنة ١٩٦٠م. ولكن كتابه المعنون (الاستراتيجية: الاقتراب غير المباشر)، الذي ظهر في طبعات كثيرة متعاقبة منقحة ومصحّحة وموسعة، وترجم الى لغات حية عديدة، يعتبر اهم وابرز كتاب من كتبه على الاطلاق.

ولم يطرأ تغيير يذكر على مواقفه الاساسية في فلسفة التاريخ بفعل مرور الوقت وانقضاء الزمن. وقد اقتنع اقتناعاً ثابتاً راسخاً بحقيقة اساسية مفادها ان الانسان قادر على اكتشاف الحقيقة بالاحتكام الى العقل، حقيقة الانسان وحقيقة التاريخ وحقيقة الكون، وأن هذا الاكتشاف لايكون مفيداً ولامجدياً الا اذا ظهر مكتوباً، والا اذا دخل في الاعتبار واخذ بالحسبان، في الحياة العملية كما في التربية النظرية، ولم يبق دخاناً في الهواء او حبراً على الورق، لايضر ولاينفع، ولايقدم ولايؤخر. ومن هنا، اعار اهمية فائقة ومكانة استثنائية للتفكير الواضح والتعبير الدقيق. ولكنه كان احرص واشد تمسكاً واكثر اهتماماً بالشجاعة الفكرية والاستقلالية الادبية والجرأة المعنوية التي يحتاجها الانسان في طلبه واعلانه للحقائق التي قد تكون احياناً غير مريحة وغير مستساغة وغير مقبولة، او ربما تناقضت تناقضاً جبهوياً وجذرياً ومباشراً مع مصلحته الشخصية او مصالح الاخرين المادية الضيقة والفردية او الفئوية. وقد ادرك ان اكتشاف الحقيقة يشترط حرية الفكر وحرمة العلم وكرامة الانسان واولوية العقل. ولكن هذا الادراك لم

يمنعه من توجيه سهام النقد والاعتراض والاحتجاج الى ماوجده من اخطاء وعيوب ومظالم ومفاسد وشرور في النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي السائد في وطنه بريطانيا. لماذا؟ ماالسبب الذي دفعه الى هذا الموقف؟ وكيف كان يمكن ان يكون جوابه لو سألناه عن الهدف الذي توخاه؟ كان أبي قد نبذ منذ البداية ومرة واحدة والى الابد ماسماه بالحلول الجاهزة النهائية، والخطط الكاملة المطلقة، والوصفات السحرية الخارقة للخلاص والصلاح والتقدم والبناء والنهوض.

وقد اعتقد عن بيّنة وروية وقناعة مدروسة ان الغايات لاتبرر الوسائل، وان الضرورات لاتبيح المحظورات. لقد كان رجلاً انسانياً بكل معنى الكلمة، واتخذ موقفاً اساسياً يمكن تلخيصه بالقول: ان البشر جميعاً قادرون على التوصل الى حلول عادلة وتسويات مقبولة للمشاكل المشتركة والمنازعات المختلفة، اذا اتخذوا من الحقائق العقلانية دليلاً وهادياً ومرشداً، وامتنعوا، كما يليق بالانسان الواعي المتمدن الحكيم، عن الاستسلام، طيشاً وجهلاً وتهوراً، الى العصبيات والاحقاد والاهواء والغرائز الجامحة الجارفة العمياء. تلك هي الفلسفة الاساسية التي اعتمدها في تحليل اسباب الحروب، وحاول تطبيقها للتقليل من اهوالها واضرارها وخسائرها.

ولربما نجح مؤرخون اخرون في تقديم فلسفات دقيقة كاملة وانظمة فكرية كلية وتصورات نظرية مطلقة. ولكن احدا منهم لم يبلغ على الاطلاق عشر معشار مابلغه في الالتزام بالمبادىء التي وهبها واعطاها ومنحها نفسه وجهده وعمره، وفي تطبيقها تطبيقاً حرفياً دقيقاً على تفاصيل ومفردات حياته الشخصية وسيرته الذاتية، ربطاً للتصور النظري بالواقع الحي، وتوحيداً للفكر المجرد مع العمل المباشر، وانصرافاً الى البحث العلمي دون التخلي عن الدور التاريخي والشعور الانساني معاً.

التوقيع

ادريان .ج. ليدل هارت

مقدمة المؤلف:
بقلم السير باسيل ليدل هارت.

اذا كانت هناك من فائدة في الاراء القانعة والاجتهادات المتواضعة التي اعرضها واقدمها الان، فأنها تعود اصلاً واساساً الى الفرص التي واتتني، والظروف التي ساعدتني، لاغير، ولافخر. وكما يفعل معظم الناس في هذه الدنيا، دفعتني الضرورة الاضطرارية الى توفير الخبز وكسب الرزق بعرق الجبين وكد الساعد. وماشبهني من هذه الناحية بسواي من البشر من امثالي. ولكنني قد اختلفت عنهم، وتميزت عليهم، بوضع آخر او فارق معين، يتعلق بطبيعة العمل الذي احترفته، ونوعية الجهد الذي بذلته. وقد ارادتني الحظوظ الطيبة والطوالع السعيدة والاقدار الباسمة ان انصرف الى حرفة لحمتها وسداها هي محاولة اكتشاف وإعلان الحقائق عن الوقائع والاحداث، بدلاً من كتمانها او دفنها او تزويرها او تلفيقها، كما يفعل الكثيرون اضطراراً على الرغم من رغباتهم الحقيقية وقناعاتهم الراسخة، بحكم شروط الوظيفة او متطلبات المهنة. ولاجدال ان مهنة المؤرخ وكتابة التاريخ، تعتبر مهنة شاقة صعبة قاسية، لعلها من اشق واصعب واقسى المهن التي يختارها الانسان محوراً لنفسه ومداراً لمصيره وقدراً لعمله. لانها تتطلب، اكثر من جميع الاشكال الاخرى للادبيات المكتوبة، ماوصفه (سنكلير لويس) ذات يوم بقوله ان سر النجاح او مفتاح التفوق يقتضي «ان تجعل مقعد بنطلونك يلتصق بمقعد كرسيك لمدة كافية وفترة ضرورية ومرحلة زمنية طويلة»، كناية عن المتابعة المكثفة والمطالعة الدائبة والمراجعة الواعية المستمرة. ومن هنا، تتطلب كتابة التاريخ شرطاً مضافاً يستدعي جهداً مضاعفاً يسميه المؤرخون بالصبر الجميل والنفس الطويل. لانك ما ان تفك غوامض وطلاسم والغاز ومعميات عقدة تاريخية عويصة مستعصية، حتى تجدها قد تعرجت وتلوت والتفت على نفسها وادت الى ظهور عقدة تاريخية عويصة مستعصية جديدة اخرى. وفضلاً عن ذلك،

فأنك في كثير من الاحيان ما ان يبدو انـك توشـك ان تصل الى نتيجة لايمكنك ان تقاومها، حتى تعترضك صخرة صلبـة صامـدة من صخور الحقائق التي لايمكن ان تزحزحها من مكانها ولا ان تزيحها من طريقك. هل هناك مايعوض او يعزي المؤرخ عن المتاعب التي يعانيها والصعوبات التي ينوء بأثقالها؟

اولاً:

ان كتابة التاريخ هي مغامرة رائعة مثيرة تنطوي على متعـة موصـولة دائمة، وتشبه قصة بوليسية محبوكة لاتنتهي فصولهـا ولاتتوقف احـداثها ولاتنقطع وقائعها، تشدك شداً وتتحداك تحدياً وتستفزك استفزازاً، ويكون المؤرخ فيها طرفاً فاعلاً ومشاركاً حقيقياً، وليس مراقباً خاملاً او متفرجاً فاتراً.

وثانياً:

ان ممارسة هذه الرياضة العنيفة الدائبة هي العلاج الصحيح الوحيد المتيسر للوقاية من مرض تصلب الشرايين العقلية والفكرية والثقافية الذي يصيب ذوي الوظائف المكتبية المملة والمهن التقليدية الرتيبة.

وثالثاً:

ان هـذه الوظيفـة هي اقل الـوظائف في تعـريض عقول اصحـابها وضمـائرهم الى اورام المفـاصل واوجـاع العظام واعـراض الشيخوخـة المبكرة، لانها اقلها ازدحاماً وتزاحماً وتدافعاً بالايدي والمناكب والاكتاف.

وتخطر على بالي ملاحظة اخرى عن كتابة التاريخ. اذا اردت ان تكتب التاريخ، فأكتبه مسطوراً بخط يدك على الورق، وراجع ماكتبت بنفسك. لاتملي التاريخ الذي تكتبه على سواك، ولاتدع يداً تكتبه غير يدك. وانظر

دائماً الى الفقرة السابقة قبل ان تنتقل الى فقرة لاحقة، لتعلم ماذا كتبت بالفعل وماذا تريد ان تكتب الان، وتعرف الى اين انتهيت ومن اين تبدأ. ومن هنا، تحقق للفكر مايحتاجه من توازن وتواصل وربط، وللبحث مايستلزمه من توحيد وتسلسل واستمرار، وللتعبير ماقد يتطلبه من تشطيب وتهذيب وتشذيب. فتصيب عصافير عديدة برمية واحدة.

وربما يسأل سائل او يستفهم مستفهم: مافائدة التاريخ للانسان؟ وهل ينفعه بالفعل؟ وكيف يمكن ان يكون عونا له وليس قيدا عليه؟ انني في الحقيقة اميل الى وضع اولوية الاهتمام ونبرة التأكيد على هذه الناحية. وأستعين في الجواب بعبارة (بركهاردت) الذي افاد ذات يوم ان اقصى مانتمناه ونأمله من التجربة ليس ان تجعلنا اقدر وأمكر (في المواجهة المتكررة مع تجربة اخرى من نفس النوع في المرة القادمة)، بل ان تجعلنا اذكى وأحكم (في المواجهة المستمرة مع جميع التجارب المختلفة والمتعددة الى الابد).

تلك هي مدرسة التاريخ التي تعلّمنا فلسفة شخصية وحكمة عملية، وتفيدنا في السلوك والتصرف والتدبير، في السراء والضراء، على حد سواء. وقبل اكثر من الفين من السنين، بدأ (بوليبيوس)، اعظم وأحكم المؤرخين اليونانيين القدماء على الاطلاق، كتابه عن التاريخ بالعبارة التالية: (ان الوسيلة المثلى، بل الطريقة الوحيدة، التي تعمّلنا لماذا وكيف ينبغي ان نواجه غوائل الدهر وشدائد الزمان بالصبر والوقار والهدوء والاتزان، هي ان نتذكر دائما، ولاننسى لحظة واحدة، ماأصاب الاخرين من ويلات وكوارث وفواجع واهوال ومحن). ومن فضائل وحسنات النظرة التاريخية الواسعة الواعية العريضة الشاملة، أنها تساعدنا ليس فقط على التحلي بهدوء النفس وصفاء العقل وثبات الجأش ورسوخ الجنان في اوقات الضيق والشدة، بل انها تعيننا ايضاً في الاحتفاظ بشعاع من النور يتحدى الظلام وبصيص من الامل يبدد الضعف واليأس والقنوط. لاعون ولامعين في هذا العالم، اعظم وأقدم والزم وأحكم من التاريخ. لانه

السجل الحقيقي الامين الذي لايحيد ولايخيب للاخطاء التي أرتكبها جميع البشر على تعاقب الاجيال واختلاف العصور. في ضوء ماتقدم، دعونا اذن، في أسوأ الظروف وأحلك الايام، نتمسك بعرى الحقيقة التي اثبتت مرة بعد اخرى، ان اطول وأظلم نفق في الوجود، لايمكن الا ان يصل الى نهاية اكيدة وفتحة مضيئة. ولايحدث ضيق الا ويتبعه فرج. (ان مع العسر يسراً... وليس للانسان الا ماسعى ـ المعرِّب). وانتهي من هذه المقدمة التي اعتقد انها كانت ضرورية، وأرجو ان تكون مفيـدة، بالقـول: ان البارقة الوحيدة الباقية من الامل للانسانية جمعـاء الان، هي ان يتحول اختصاصي العلمي الدقيق، وأعني فن الحرب، الى فرع من فروع الاثار القديمة. ومع حلول عصر الاسلحة الذريـة والنوويـة، وظهور القنـابل الهيدروجينية والنيوترونيـة، نكون نحن البشـر جميعاً قـد وصلنا امـا الى الصفحـة الاخيرة من الحـرب بالمعنى العـالمي الشامـل الذي عـرفناه في الماضي، واما الى الصفحة الاخيرة من التاريخ الانساني على سطح هذا الكوكب السيّار المسمى بالارض.

التوقيع

السير باسيل ليدل هارت

قائمة كاملة بكتب المؤلف

١ . نظرية الحرب:

أ. الاستراتيجية: الاقتراب غير المباشر.
فابر وفابر. لندن. سنة ١٩٥٤ .
ب . الثورة في فن الحرب.
ج . آراء وتأملات في الحرب.
د . شبح نابليون.
هـ. الطريقة البريطانية في الحرب.
و . مستقبل المشاة.
ز . مستقبل الحرب.
ح . علم تعبويات المشاة.
ط . اساليب جديدة في تدريب المشاة.
ي . الدبابات.

٢ . الشؤون العسكرية والحرب العالمية الثانية:

أ . الدفاع عن الغرب.
ب . الجانب الاخر من التل: احاديث مع الجنرالات الالمان.
جـ . هذه الحرب المتوسعة.
د . الحرب الراهنة.
هـ . الدفاع المتحرك.
و . الدفاع عن بريطانيا.
ز . اوربا تحمل السلاح.
ح . تجديد الجيوش الحديثة.
ط . اوراق الماريشال روميل.
ي . الردع ام الدفاع؟

٣ . الحرب العالمية الاولى:

أ . الحرب في خطوطها العريضة ومعالمها البارزة .

ب . تاريخ الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ـ١٩١٨ .

جـ . اختراق ضباب الحرب .

د . شخصيات بارزة .

هـ . الماريشال فوش .

و . لورنس : سيرته في المرحلة العربية ومابعدها .

٤ . التاريخ القديم:

أ . سيبيو الافريقي (القائد الروماني في الحروب البونية ضد قرطاجنة وهاني بعل) .

ب . القادة العسكريون الكبار بلا اقنعة .

ج . شيرمان (الجنرال الاتحادي الشمالي ضد الجانب الانفصالي الجنوبي في الحرب الاهلية الامريكية) .

د . رسائل من المقاتل ويلر .

٥ . فلسفة التاريخ:

* لماذا لانتعلم من التاريخ؟

الفصل الاول

التاريخ والحقيقة



١ . التاريخ - فائدته وغايته:

ما الغاية التي يتوخاها التاريخ؟

اجيب على هذا السؤال بكلمة واحدة بسيطة واضحة هي «الحقيقة». ويبدو ان هذه الكلمة او الفكرة قد اصبحت سلعة بائرة وتجارة خاسرة في الحياة المعاصرة. ولكن الاعتقاد بأستحالة الوصول الى الحقيقة، تترتب عليه وتنجم عنه نتائج اسوأ بكثير من تلك التي تنشأ من الاعتقاد بأمكانية الوصول الى الحقيقة، او تترتب عليه وتنجم عنه. ويمكن القول بتحفظ وحذر: ان غاية التاريخ هي معرفة ماذا حدث بالفعل في سياق محاولة معرفة لماذا حدث ماحدث كما حدث. او، بعبارة اخرى، انها السعي الى اكتشاف وادراك الروابط العلّية والعلاقات السببية بين الوقائع والاحداث التي يتألف منها ويقوم عليها التاريخ. ولكن للتاريخ حدودا بأعتباره دليلا وهادياً ومرشداً. لانه قد يعيننا ويساعدنا بالتعرف على الاتجاه الصائب او الاهتداء الى الطريق الصحيح او التوصل الى الموقف السليم. ولكنه لايقدم لنا ولايعرض علينا التفاصيل الدقيقة والمعلومات الكاملة عن الظروف والاوضاع التي تكتنف الاتجاه وتحيط بالطريق او الموقف. ويبدو ان الفائدة السلبية للتاريخ، بأعتباره انذاراً مسبقاً بالخطر وتحذيراًمبكرا من الخطأ، ربما تكون اوضح وادق وانفع. لانه قد يرشدنا ويهدينا الى ماينبغي

ان نحذره ونتجنبه ونتفاداه، او بالاحرى مالاينبغي ان نفعل، وان كان لايرشدنا ولايهدينا الى ماينبغي ان نختاره ونقرره ونعتمده، او بالاحرى ماينبغي ان نفعل. ويلعب التاريخ هذا الدور البارز في المصير الانساني، لانه يكشف الاخطاء الشائعة المشتركة التي ارتكبتها وكررتها الاجيال المتعاقبة والمختلفة. وهناك غاية اخرى هي الفائدة العملية للتاريخ. وبهذا المعنى، افاد (بسمارك) ذات يوم بقوله: «يزعم الحمقى انهم يتعلمون من تجاربهم. اما انا فقد وجدت من الافضل ان اتعلم من تجارب الاخرين»(*).

(*) كرر ليدل هارت هذا المعنى ايضا في كتابه المعنون (الاستراتيجية: نظرية ومنهجية الاقتراب غير المباشر) عن (بسمارك). وكان المضمون واحدا، وان جاء التعبير مختلفا. فنسب الى (بسمارك) قوله: «ان المجانين فقط يتعلمون من تجاربهم. اما العقلاء فيتعلمون من تجارب الاخرين». وقديما قالت العرب: «العاقل من اتعظ بغيره». ويمكن ان يقال ان التجربة الانسانية تنقسم بوجه عام الى نوعين: نظرية وعملية. وتنطوي حكمة (بسمارك) على دلالة باقية وقيمة عالية واهمية فائقة. لانه كشف، اولا، عن نوعين من التجربة العملية: التجربة المباشرة والتجربة غير المباشرة. وقرر، ثانيا، ان الثانية افضل من الاولى، لانها اوسع نطاقا واكثر تنوعا. وتلك هي التجربة الشاملة التي يمثلها ويحفظها التاريخ. لانها لاتقتصر على فرد واحد او عصر معين. بل تمتد الى حضارات كاملة واجيال متعاقبة وامم عديدة وظروف مختلفة. ولكن تلك الحقيقة ليست موضوعا يدرسه المؤرخ، بل يدرسه فيلسوف التاريخ. ولايستغربن احد ان يكون (اسامة بن منقذ) قد اطلق اسم (كتاب الاعتبار) على ذكرياته التاريخية عن الحروب الصليبية، او ان يكون (ابن خلدون) قد اطلق اسم (كتاب العبر) على تاريخه عن اخبار العرب والعجم والبربر - المعرب.
قارن ما افاده المؤلف عن هذا الموضوع في الصفحتين (٨١ - ٨٢) ومابعدهما في هذا الكتاب.
راجع: حازم طالب مشتاق في بحثه المعنون (الفكر السياسي والواقع التاريخي). مستل من العدد الرابع من مجلة كلية الاداب بجامعة بغداد: مطبعة المعارف. بغداد. سنة ١٩٧١م. ص ٤. وانظر: السير باسيل ليدل هارت في كتابه المعنون (الاستراتيجية: نظرية ومنهجية الاقتراب غير المباشر). المصدر المذكور سابقا. الطبعة الانكليزية ص ٢٣ والطبعة العربية ص ٤١.

وتلك هي الفرصة الذهبية السانحة، التي تتيحها دراسة التاريخ، على اوسع نطاق ممكن او متاح او متيسر. لانها تؤدي الى الاطلاع على التجربة الانسانية الشاملة، الاطول عمرا والابعد امتدادا والاعرض افقا والاغنى تنوعا وتعددا واختلافا، من التجربة الفردية الافقر والاقصر والاجدب والاضيق. ولطالما وصف الحكماء القدماء بالحكمة المتفوقة انطلاقا من اعمارهم الطويلة وتجاربهم الغنية. بل ان الصينيين على وجه الخصوص يعتقدون ان رجلا قد بلغ او جاوز الثمانين من عمره لابد ان يكون احكم نظرا وأرجح عقلا من سواه. ولكن الطالب المتخصص الذي يدرس التاريخ، يعلم جيدا ان الثمانين عاما ليست شيئا مذكورا او وقتا طويلا او دهرا حقيقيا في ميزان التاريخ وفي منظور الزمان وفي ضوء الابد. بل انها مجرد ومضة خاطفة ورمشة سريعة ولحظة عابرة، لاغير. ولاعذر للانسان على الاطلاق، اذا لم يكن اميا بالفعل، ان يقل عمره العقلي عن ثلاثة الاف سنة. وقد اوضح المؤرخ اليوناني في العصر الروماني (بوليبيوس) هذا المعنى في عبارة وجيزة ورائعة، حبلى بالمعاني الواعدة والدلالات العميقة، بقوله:

(هناك طريقان يؤديان الى اصلاح الجماعة الانسانية، اولهما يمر بالتجارب السيئة التي تتعرض لها وتتعلم منها تلك الجماعة المعنية، وثانيهما يمر بالتجارب السيئة التي تتعرض لها وتتعلم منها الجماعات الاخرى. ويتسم الطريق الاول بالوضوح الاشد. والثاني بالالم الاقل... وينبغي دائما ان نتطلع الى الطريق الثاني، لاننا اذا طرقناه وسلكناه فسنمتلك تصورا ادق واصوب للموقف السليم الذي ينبغي ان نتخذه، والقرار الحكيم الذي ينبغي ان نختاره، دون ان نتعرض الى الاذى المباشر والضرر المحسوس... ان المعرفة التي نكسبها من دراسة التاريخ الحقيقي هي التربية المثلى للحياة العملية». وقد ثبتت وتأكدت هذه النصيحة العملية في الدراسة المتخصصة التي انصرفت لها وقمت بها، والتي تتعلق بظاهرة الحرب. ولاحظت ان التطورات الاساسية التي فاجأت هيئات الاركان للجيوش المتحاربة في الحرب العالمية الاولى، كان يمكن استنتاجها مقدما

من دراسة تحليلية ونقدية ومقارنة دقيقة للحروب العديدة المتعاقبة التي نشبت في الساحة الاوربية في غضون نصف القرن الذي سبق تلك الحرب. لماذا اذن فوجئت هيئات الاركان؟ ولماذا لم تستطع استنتاج تلك التطورات مسبقا؟ هناك اسباب متداخلة عديدة. منها ان معاهد وكليات الاركان قد عانت اشد المعاناة من الافق الضيق والنظر القصير والانكماش العلمي والتخطيط السيء. ومنها ايضا ان ضباط هيئات الاركان انفسهم قد اسرتهم مصالحهم المسلكية وعواطفهم الميدانية، وأعمت بصائرهم وابصارهم. ولكن استطاع بعض الباحثين غير الرسميين، من امثال المصرفي البولندي (م. بلوخ) والكاتب العسكري الفرنسي الكابتن (ماير)، الذين درسوا ظاهرة الحرب بموضوعية وتجرد، ان يتوصلوا الى الاستنتاجات الصحيحة عن تلك التطورات «المفاجئة» قبل وقوعها وحدوثها. ومن هنا، حاولت دائما في دراستي للمشكلات العسكرية في العقود من السنين التي اعقبت تلك الحرب، ان اعتمد منهجية تحليلية ونقدية ومقارنة، تبدأ من الماضي، وتصل الى الحاضر، وتمتد الى المستقبل.

ويعود السبب في الاستنتاجات المسبقة الصحيحة عن التطورات الحاسمة التي توقعتها في الحرب العالمية الثانية، الى هذا التطبيق العملي للمنهج التاريخي، ولايعود الى عبقرية خارقة او موهبة فريدة. التاريخ سجل الانسان في خطواته وكبواته. وأذا راجعناه بوعي وصبر وذكاء فسنجد ان خطوات الانسان كانت بطيئة وقليلة ومتعثرة، وأن كبواته كانت سريعة وكثيرة وفادحة. ومن هنا، امكننا، بدراسة التاريخ، ان نستفيد ونتعلم من الاخطاء والخطايا التي ارتكبتها الاجيال السابقة والقديمة والغابرة. ولعل وعينا بقصورنا وضعفنا سيردعنا، وينبغي ان يردعنا، عن التصرفات الطائشة المتهورة، وأصدار الاحكام المتسرعة العجولة على القدماء والسابقين الذين ارتكبوا تلك الاخطاء والخطايا. ولكننا ينبغي ان ندين انفسنا ونستنكر جهالاتنا اذا اخفقنا وفشلنا او تقاعسنا في تشخيصها وتوقّعها وادراكها واستنتاجها. ومن اسوأ وافدح الاخطاء الشائعة والرائجة

والمتداولة الان، مايتعلق بتلك الظاهرة المتشجنة العامة التي تميل الى اعتبار التاريخ تخصصا ضيقا دقيقا مغلقا، لايدخله الا الراسخـون في العلم، ولايطرقه الا المحترفون المتفرغون، ولايمارسه الا المحظوظون بتوفيق من الله عظيم. لان التاريخ، على العكس مما تقدم تماما، يعتبر مرجعا للتقويم ومقياسا للتصحيـح، في جميع التخصصـات على الاطـلاق دون استثناء ولاتمييز. وفي ضوء هـذه النظرة الصحيحـة والحقيقة الاسـاسية، يحتـل التاريخ مكانة سامية، ويشغل منزلة رفيعة، بين جميع الدراسات، لانـه اوسعها واشملها، ولانه لايترك جـانبا من جـوانب الحياة الانسـانية الا ويتناوله بالبحث الجاد والتحليل الرصين. بل ان التاريخ يـرسي اسس ودعـائم ومقومـات التربيـة العلمية والعمليـة المتكـاملة، بـالكشف عن الاخطاء التي ارتكبتها الاجيال المتعاقبة، وكيف كررتها مرة بعد اخرى.

٢ . اهمية التاريخ العسكري:

قبل ثمانين عاما، افاد المؤرخ (جون ريجارد غرين) في كتابه المعنون (تاريخ الشعب البريطاني)، الذي نال في حينه حظوة فائقة وشعبية واسعة، مايلي بالحرف الواحد: «تلعب الحرب دورا ثانويا صغيرا في القصة الحقيقية لـلامم الاوربيـة، وتلعب دورا اصغـر واضعف واقـل في التـاريـخ الانكليزي». ويبدو واضحا ان تلك المقولة كانت في حينه عبارة غير تاريخية الى درجة مثيرة للاستغراب والعجب. ولكنها تبدو الان مفارقة سـاخرة بائسة تدعو الى الضحك او الرثاء. واعتقد ان تلك النظرة ربما تفسر بعض المصائب والويلات التي تعرضنا لها وعانينا منها في ظروف لاحقة. ومن نحس الطالع وسوء الحظ، ان الدراسة العلمية للحرب لم تنل الا اضعف الاهتمام في الجامعات واقل العون منها او من الجهـات الحكوميـة، على الرغم من النمو الهائل للابحاث في جميع الفروع الاخرى من المعرفة. وقد ارتبط هذا الاهمال من الجامعات ارتباطا وثيقا ومباشـرا بأنتشـار ورواج

وذيوع مودة نظريات معينة من نوع النظرية التطورية التاريخية والنظرية الحتمية الاقتصادية. وقد اوحت تلك النظريات ان الحركات التاريخية تحدث في معزل عن الافراد والمصادفات والوقائع الطارئة، وتعمل بقوانين موضوعية مستقلة عن الظروف الذاتية والمتغيرات الخارجية، وان رؤساء الدول وقادة الجيوش لايقدمون ولايؤخرون، ولايزيدون ولاينقصون، وان المد التاريخي قد استمر في جريانه على مساره المرسوم وطريقه المحتوم دون ان يتأثر قليلا او كثيرا، من قريب او بعيد، بقراراتهم وخياراتهم.

والحقيقة ان هذه السخافات المذهلة تصدم العقول وتروع الاذهان. فهل يمكن للانسان العاقل ان يعتقد فعلا ان تاريخ العالم كان سيبقى على حاله، ويكون كما كان، دون انعطاف ولاتغيير، لو ان الفرس كانوا قد انتصروا على اليونانيين القدماء في الحروب الفارسية ـ اليونانية واحتلوا بلادهم، او لو ان (هاني ـ بعل) القائد القرطاجي في الحروب البونية كان قد انتصر على الرومان واستولى على روما، او لو ان (يوليوس قيصر) كان قد تردد في عبور نهر (الروبيكون)، او لو ان (نابليون) كان قد قتل في طولون قبل ان يصبح امبراطورا بوقت طويل؟ هل يمكن للانسان العاقل ان يعتقد فعلا ان تاريخ انكلترا كان سيبقى على حاله دون ان يتأثر، لو ان ويليام النورماندي كان قد هزم في معركة (هاستينجز)؟ او، اذا عدنا الى امثلة حديثة وازمنة قريبة، لو ان (هتلر) كان قد استطاع العبور الى (دوفر) بدلا من الوقوف في (دنكرك)؟ والامثلة كثيرة، لاتعد ولاتحصى، عن احداث من هذا النوع طالما زلزلت التاريخ، وادت الى تغيير مساره وتبديل طريقه وتحكمت بتطوره واتجاهه(*). ولكن، من بين جميع العوامل التي ادت الى حدوث

(*) كان العلّامة البريطاني الخالد الذكر الذائع الصيت (آرنولد توينبي) قد ناقش هذه المعاني والمفاهيم والدلالات في كتابه الموسوعي القيّم باللغة الانكليزية المعنون (بعض مشكلات التاريخ اليوناني القديم). ومن الواضح ان (ليدل هارت) قد اتفق معه في النتائج والمواقف والاراء، وان اختلف عنه في الامثلة والسوابق والجزئيات والتفاصيل. ويبدو ان المقارنة قد اصبحت واردة، وظهرت وجيهة، ←

تبدلات مفاجئة في مسار التاريخ، كانت الحرب هي العامل الاقل تعرضا الى المصادفات العفوية، والاضعف تأثرا بالظروف الطارئة. والحقيقة الواقعة هي ان العقل قد لعب دورا اكبر بكثير من الدور الذي لعبه الحظ في الحروب التي حددت مسار التاريخ، وحسمت قدره، وقررت مصيره. ولايخالجني ادنى شك ان الحكمة كانت اهم اضعافا مضاعفة من الشجاعة في حسم تلك الحروب، وان الفكر المبدع الخلّاق كان افضل واجدى في احراز الانتصارات الكبرى من السيف البتار والساعد المفتول. بل ان خصائص ومواصفات وشروط الرأي السليم الحكيم والنظر البعيد السديد والافق العريض الواسع والعقل المبادر المرن تتقدم في الضرورة والمصلحة

← الى الحد الذي يجعلها جديرة بأهتمام الباحثين المعنيين والخبراء المتخصصين.
واجزم يقينا عقلانيا مدروسا، ان (توينبي) قد تطرق الى هذا الموضوع بأعتباره فيلسوفا من فلاسفة التاريخ، وليس بأعتباره مؤرخا من المؤرخين. وكذلك فعل (ليدل هارت). لان التاريخ لا يمكن ان يخرج عن الحقائق والوقائع. ولكن فلسفة التاريخ تقوم على التفاسير والتصورات. كما ان لفظة (لو) تدل قطعا على الافتراض النظري وليس العملي، والاحتمال المنطقي وليس الواقعي، على حد ماسيظهر في ادناه.
راجع في هذا الصدد: حازم طالب مشتاق في بحثه المعنون (من التاريخ الى فلسفة التاريخ). مجلة نقابة المحامين العراقيين (القضاء). العددان الثالث والرابع في مجلد واحد. بغداد. سنة ١٩٨٦م، الصفحات: ٦٢-٨٤.
وانظر: ارنولد توينبي. بعض مشكلات التاريخ اليوناني القديم. الفصل الرابع. دور الفرد في التاريخ - الصفحات: ٤١٨ - ٤٢٠. ماذا كان سيحدث، وكيف كان التاريخ سيكون او يمكن ان يكون، لو ان الملك فيليب الثاني المقدوني لم يمت اغتيالا سنة (٣٣٦ق.م) وقد ناهز السادسة والاربعين من عمره؟ الصفحات ٤٢١ - ٤٤٠. وماذا كان سيحدث، وكيف كان التاريخ سيكون او يمكن ان يكون، لو ان ابنه الملك الاسكندر المقدوني لم يمت مرضا سنة (٣٢٣ ق.م) وقد ناهز الثالثة والثلاثين من عمره؟ الصفحات: ٤٤١ - ٤٨٦.
ARNOLD J. TOYNBEE. SOME PROBLEMS OF GREEK HISTORY. THE OXFORD UNIVERSITY PRESS. LONDON. 1969. PART 4. PP. 418 - 486.

والفائدة على مستوى حسم الحرب واحراز النصر حتى على القيادة الموهوبة والزعامة الفريدة والرئاسة المقتدرة. وماذا تعني القيادة الموهوبة والزعامة الفريدة والرئاسة المقتدرة ان لم تعن امتلاك وتطويع وتطوير وتوظيف تلك الخصائص والمواصفات والشروط، سلما وحربا، في السراء والضراء؟

ويبدو ان النزعة الرومانسية قد اعتادت ان تعزو الى الالهام الخارق والحدس الثاقب في المعركة، ما يعود بالاحق الى بذور غرست منذ وقت طويل وبعيد، وماتولّد في الواقع من قيام الطرف المنتصر بالتطبيق الحي للتطوير المسبق الذي حققه بأبتداع اسلوب جديد من الاساليب العسكرية، او من انحلال او تفسخ او انهيار اصاب الاساليب التي اعتمدها وطبقها الطرف المهزوم وكان في امكانه ان يتفاداها او يتلافاها.

وعلى عكس وخلاف المهن والوظائف والمسلكيات الاخرى، لايستطيع العسكري النظامي ان يمارس حرفته على الطبيعة، بطريقة منهجية ارادية حرة مفتوحة، متى شاء وكيف اراد وأحب ورغب.

ويذهب البعض الى ابعد من هذا الحد بالقول، ان حرفة او مهنة العسكرية بالمعنى الحرفي الدقيق ليست حرفة او مهنة على الاطلاق، بل انها حرفة او مهنة وقتية محدودة زمنيا، لايمارسها صاحبها الا في حالة الحرب وفي حدود الفترة التي تستغرقها. بل ان بعضهم قد اشتط وغالى بالزعم ان المفارقة الصارخة هي ان حرفة او مهنة العسكرية قد امتنعت وبطلت وانتهت بحلول الجيوش النظامية الوطنية الدائمة التي يستلم افرادها رواتبهم حتى في اوقات انتفاء الحروب، محل جيوش المرتزقة والمغامرين التي كان افرادها لايحملون اسلحتهم ولايتسلمون رواتبهم الا للقتال في الحروب متى نشبت. واذا كانت المقولة التي أكدت ان حرفة او مهنة العسكرية هي حرفة او مهنة غير مبررة او غير موجودة او غير مفيدة، لايمكن ان تصح على معظم الجيوش اليوم على صعيد العمل، فأنها قد اكتسبت قوة

مضاعفة وحجة مضافة على صعيد التطبيق. لان الحروب الكبرى قد اصبحت في العصور الحديثة اقل عددا، وان كانت قد اصبحت ايضا اكبر حجما واشد عنفا واوسع نطاقا، بالمقارنة مع الحروب التي نشبت في الازمنة السابقة او العصور القديمة. ولان افضل واعنف واقسى واشق التدريبات في اوقات السلام يتغلب فيها الجانب النظري على الجانب العملي.

ولكن (بسمارك) في عبارته المأثورة وحكمته السائرة التي اشرنا لها واستشهدنا بها كما تقدم، قد كشف عن جوانب مختلفة ومشرقة اخرى من هذه المشكلة. وفي ضوء تلك العبارة، ادركنا ان هناك نوعين متميزين من التجربة العملية: نوع مباشر وآخر غير مباشر، وأن النوع غير المباشر من التجربة العملية اعظم فائدة وأعلى درجة وأرفع رتبة وأكثر اهمية من النوع المباشر. لانه اوسع نطاقا واعرض افقا واشمل موضوعا واغنى واخصب مضمونا. ولو درسنا سيرة اي انسان، وبالاخص اذا كان عسكريا محترفا نظاميا، فسنجد ان الفرص العملية المتاحة كانت قليلة ومعدودة وان التجارب المباشرة كانت محدودة ضيقة. وعلى خلاف المسلك العسكري، مثلاً، نرى ان المسلك الطبي يتمتع بساحة مفتوحة وممارسة دائمة. ومع ذلك، نلاحظ ان التقدم العظيم الذي تحقق في ميدان الطب بكافة فروعه، وبالاخص في فرع الجراحة، يعود الى المفكر العلمي والباحث المتفرغ اكثر مما يعود الى الطبيب المتخصص والجرّاح الممارس.

ويبدو واضحا ان التجربة المباشرة، بطبيعة وجودها وحقيقة تكوينها، هي تجربة محدودة ضيقة قصيرة، لايمكن ان تكون اساس كافيا للنظرية او التطبيق. وفي احسن الاحوال وافضل الظروف، تخلق تلك التجربة جوا يصيب تركيب الفكر وتطور العقل بالتصلب والجفاف. وتعود ضرورة وفائدة وأهمية التجربة غير المباشرة الى تنوعها واختلافها وتعددها وشمولها. واذا توخينا تعريفا حقيقيا وتحديدا دقيقا للتاريخ، لقلنا انه التجربة العامة

الشاملة غير المباشرة، وليس التجربة الخاصة المنكمشة المباشرة، لانه لايقتصر على تجربة فرد واحد او عصر معين. بل يمتد الى اجيال عديدة وعصور متعاقبة وامم مختلفة وحضارات كاملة كبرى.

ومن هنا، وفي ضوء ماسبق، يتجلى التبرير العقلاني للتاريخ العسكري بأعتباره اساسا مطلوبا للتعليم العسكري المحترف، ومنطلقا عمليا ضرورياً للعسكري النظامي في تدريبه المهني وتطويره الفكري. ولكن فائدته الحقيقية تتوقف في النهاية، كما يحدث في جميع انواع التجارب الاخرى، على سعة الافق ومرونة التطبيق وطريقة التدريس او الدراسة ودرجة وطبيعة الاقتراب او الابتعاد عن التعريف الذي قدمناه للتاريخ والقول الذي اقتبسناه من (بسمارك).

ويعترف العسكريون جميعا اعترافا شاملاً بالقاعدة الغامة التي وردت في مقولة (نابليون)، وافادت ان نسبة الناحية المعنوية الى الناحية المادية في الحرب هي ثلاثة الى واحد. والحقيقة ان النسبة الحسابية الدقيقة في هذه القاعدة ليست مهمة. لان الناحية المعنوية تضعف وتتدهور اذا كانت الاسلحة غير كافية او غير كفوءة. وماجدوى اقوى ارادة اذا وجدت في جثة هامدة؟ ولكن، على الرغم من ارتباط وتداخل العوامل المعنوية والمادية، فأن مقولة (نابليون) تحتفظ بأهمية فائقة وحقيقة باقية وقيمة دائمة، لانها تؤكد اولوية العوامل المعنوية على العوامل المادية في جميع القرارات العسكرية. لان العوامل المعنوية هي التي تحسم الموقف وتحرز التفوق، طالما ان الحرب هي صراع ارادات. واذا نظرنا الى تاريخ الحرب نظرة علمية موضوعية واعية ذكية مستنيرة، فسنجد ان العوامل المعنوية هي الثوابت الاساسية، وان العوامل المادية تختلف وتتعدد وتتنوع بأختلاف وتعدد وتنوع الحروب النظامية والصراعات المسلحة والمواقف العسكرية.

٣ . منهج البحث في التاريخ:

تتوقف الفائدة التي نتوخاها من دراسة التاريخ على الافق الواسع والنظر العريض والفكر المرن والبحث المتوازن. وكلما كان منهجنا اوسع واعرض، كلما كان بحثنا ادق واكمل واصوب واقرب الى الواقع الذي ندرسه والهدف الذي نقصده.

ومن حسن التدبير وتمام القصد وكمال التدريب الضروري للمؤرخ، ان يستقصي الجذور ويسبر الاغوار ويستطلع الاعماق، في موضوع جزئي معين محدود من التاريخ العام الواسع الشامل. تلك هي الوسيلة الوحيدة والمثلى التي تؤدي الى ادراك وامتلاك تفاصيل ومفردات الطريقة العلمية والمنهجية الموضوعية في الدراسة التاريخية الحقيقية المفيدة الرصينة. ولكننا، ان استقصينا الجذور وسبرنا الاغوار واستطلعنا الاعماق، فينبغي مع ذلك ان لانغوص في الرمال المتحركة، وان لانضيع في المتاهات المتشعبة، للفروع والتفاصيل والجزئيات، بالانصراف عن الصور الاساسية العريضة المتكاملة والابتعاد عن المقارنات الواسعة الواضحة الدقيقة، والامتناع عن الوصول الى النتائج المشتركة الشاملة العامة للظواهر المتكررة او المتشابهة او المتقاربة. وتلك هي الطريقة الوحيدة والمثلى للتعرف على الفائدة العملية والاهمية الحقيقية للحقائق التي استخلصناها واستخرجناها واكتشفناها. وبعكسه، من المحتمل احتمالا عاليا قويا ان الباحث سيرى الاشجار، ولكنه سوف لايرى الغابة.

وقد ادى ازدياد التخصص الدقيق في الدراسات التاريخية الى صعوبة الفهم وندرة الوضوح وغلبة الغموض وقلة الفائدة للجمهور الاوسع من المثقفين غير المتخصصين، وحتى للعدد الاقل من المحترفين من ذوي التخصصات العلمية الضيقة في الفروع المختلفة الدقيقة. او، بعبارة اخرى، اذا توخينا المزيد من التبسيط والوضوح، ان الحوار المتبادل المفيد قد اصبح صعباً او متعذراً وربما مستحيلاً، ليس فقط بين المؤرخ

المتخصص المحترف والمثقف العام غير المحترف ولا المتخصص، بل ايضا بين المؤرخ المحترف المتخصص في فرع معين او جانب واحد من فروع وجوانب التاريخ والمؤرخ المحترف الاخر المتخصص في فرع مختلف او جانب مغاير.

واذا استطاع المؤرخ ان يحتك بالحياة العملية العامة احتكاكا مباشرا، واذا واتته الفرص وساعدته الظروف للتعرف على بعض جوانب التاريخ في حالات حدوثه وصنعه وتكوينه فأنه يكون قد اكتسب من الخبرات والتجارب والفوائد مالا يقدّر بمال ولايقاس بثمن ولايباع في سوق. وكفاه عقلا وعلما وتبصرا انه قد ادرك ادراكا واعيا مدروسا الاهمية الفائقة القصوى احيانا للعوامل الطارئة والمصادفات المفاجئة، في ترجيح كفة على كفة في ميزان التاريخ، وتغليب حالة على حالة في اقدار الانسان. والامثلة واضحة كثيرة. ومنها مايتعلق بألتهاب الكبد، او صداع الرأس، او حمى البرد، او توتر واضطراب وقلق الوضع العائلي، او حتى حلول موعد تناول طعام الغداء. وكما ان الماضي يسلط الضوء على الحاضر، كذلك قد يساعدنا الحاضر على فهم الماضي. لان معرفتنا المباشرة بطبيعة الحقائق المعاصرة والاحداث الراهنة والتجارب الماثلة الحية، واسبابها وخصائصها وظروفها ونتائجها، قد يقودنا الى معرفة مقارنة غير مباشرة بالحقائق الغابرة والاحداث القديمة والتجارب السابقة التي تماثلها او تشابهها او تقاربها.

وقد كان من حسن طالعي وتمام حظي ان الفرص والظروف قد ساعدتني بمراقبة بعض جوانب التاريخ في حالات حدوثه وتكوينه. وقد راقبته عن قرب ولاحظته عن كثب. ولكنني مع ذلك كنت صارما مع نفسي في التحلي بالموضوعية والالتزام بالتجرد. وقد استخلصت نتيجة مثيرة من هذه التجربة الرائعة. وادركت ان التاريخ في كثير من الاحيان ليس الا ضربة حظ ولعبة قدر وخبطة نصيب وصدفة غير مقررة ولامقصودة، اذا نظرنا الى النفور الشخصي والقلق النفسي او التمزق العائلي، او سواها وامثالها من الاسباب والظروف والحالات، بأعتبارها من

العوامل الطارئة والمصادفات المفاجئة والاقدار المتقلبة والرمال المتحركة.
وقد وجدت بالدراسة والمقارنة والملاحظة ان حلول موعد تناول طعام الغداء ربما كان اهم وابرز واقوى تلك العوامل الطارئة والمفاجئة والمتغيرة في التأثير على التاريخ وتوجيه مساره وتحديد طريقه. ومصداق قولي انني راقبت طويلا عمل لجان عديدة من انواع مختلفة. وادركت منذ وقت بعيد ان حلول موعد تناول طعام الغداء يلعب دورا بارزا واحيانا ربما حاسما في النتائج التي تحققها والتوصيات التي تقدمها. لان اللجنة تصرف ساعة او ساعتين او اكثر في حوار واسع ونقاش مدروس وحديث مفيد عن موضوع معين. ولكنها في اغلب الاحيان تحقق في ربع الساعة الاخير من الوقت المخصص للاجتماع مايفوق في اهميته وفائدته كل ماحققته في الاحاديث المتشعبة والمناقشات الواسعة التي دارت في الوقت الذي سبق. في الساعة (١٢:٤٥) ظهرا، ربما يكون الوقت قد تأخر كثيرا للوصول الى اتفاق في الرأي او اجماع على الحل. ولكن ما ان تدق الساعة معلنة الواحدة ظهرا، حتى تتوصل اللجنة الى قرارات اساسية قاطعة بأقصر وقت واقل حوار، ودون اختلاف كبير او جدل حاد، لان اهتمام اعضائها كان قد تحول الى مراقبة عقارب ساعاتهم اليدوية. ويبدو ان حركة عقارب الساعات تلعب دورا اساسيا حاسما في تسريع حركة عقارب العقول، الى الحد الذي يرغمها على اتخاذ قرارات فورية. وستكتمل هذه الصورة اذا ادركنا ان ابرز اعضاء اية لجنة، واقواهم مركزا واوسعهم نفوذا، هم انفسهم الاعضاء الذين يحتمل احتمالاً قوياً انهم يرتبطون بمواعيد مهمة للغداء اكثر من سواهم. وكلما كانت اللجنة اهم واعلى في طبيعة تكوينها وغاية عملها، كلما كانت هذه الحالة اقرب الى التوقع، وادعى الى الحدوث. ويستطيع العضو الذكي في اية لجنة ان يقوم بتطوير اسلوب للتصرف وطريقة للعمل انطلاقا من هذا الحساب التقريبي للتوقيت المتوقع. فيلوذ بالصمت، ويبتعد عن النقاش، ويمتنع عن طلب الحق بالكلام، حتى يقترب موعد تناول طعام الغداء. وحينذاك يضرب ضربته، ويعرض توصيته، حينما

يكون اكثرية الاعضاء اميل الى قبول اقتراح يبدو جيدا على العموم، ويكفيهم مغبة التخلف عن المواعيد، او مشقة الاسراع بدافع الحرص على الدعوات، ويساعدهم على اللحاق بالولائم وربما اقتناص بعض المصالح السياسية او الشخصية. واحيانا، ربما وجد هذا العضو الذكي انه من الافضل ان ينتظر وقتا طويلا كافيا حتى تحين لحظته وتأتي فرصته بأعتذار اقوى الخصوم واشد المعارضين، وانسحابهم من الجلسة تدريجيا واحداً بعد الاخر، قبل التصويت على اي اقتراح، بسبب تأخر الوقت وطول الاجتماع وامتداد الحوار وتشعب الرأي والنقاش. في عبارة مأثورة، قال (نابليون) ذات يوم (ان الجيش يزحف على معدته). وانطلاقا من التجربة التي عشتها طويلا، واستنادا الى الملاحظة التي اشبعتها تحليلا، اجد في نفسي ميلا الى استكمال تلك العبارة الحكيمة بالقول: (ان التاريخ يزحف على بطون رجال الدولة).

وتصح هذه الملاحظة في مجال اوسع بكثير من مجرد المعنى الزمني. فاليابانيون، مثلا، قد اعتقدوا ان المعدة هي مركز الشجاعة. وقد نال وكسب هذا الاعتقاد دعما قويا وبرهانا ثابتا من قرائن وحجج وامثلة التاريخ العسكري العام الذي يدل دلالة صريحة واضحة ان الروح المعنوية والارادة القتالية للقوات المسلحة، تتأثر سلبا وايجابا، وتتوقف وجودا او عدما، وتتغير صعودا او هبوطا، وارتفاعا او انخفاضا، بأوضاعها التموينية واحوالها الغذائية وظروفها اللوجستية. وتؤكد تلك الحيثيات كلها ان السلامة الفكرية والارادة القتالية والروح المعنوية، ترتبط ارتباطا وثيقا ومباشرا، بالسلامة الجسدية والناحية المادية والحالة الفيزيولوجية، في الظروف الطبيعية الاعتيادية للرجال الاسوياء الاصحاء. وكل هذه المقدمات، تدفع بالمؤرخ دفعاً الى نتيجة واحدة، هي: ان اسباب الوقائع وعلل الاحداث التي تتوقف عليها مصائر الامم، تتحكم بها ليس القرارات الحكيمة والاحكام المتوازنة، بل العواطف الجارفة المتقلبة، والمصادفات الطارئة المفاجئة، والمصالح الشخصية وحتى الانانيات الفردية

الضيقة والصغائر التافهة المشينة احيانا.

وتوجد مثلبة خطيرة اخرى تهدد المؤرخين الذين ينقطعون عن الدنيا في تكايا الدراويش والملالي وصوامع الزهاد والمتنسكين، وينعزلون عن الناس اعتكافاً في ابراجهم العاجية واستغراقا في احلامهم الوردية. وتلك المثلبة هي انهم يقيمون وزنا مغاليا، ويمنحون اهتماما زائدا، ويعطون اعتبارا فائقا، للوثائق والنصوص والسجلات المدونة المكتوبة. ويغيب عنهم، ويفوت عليهم، ان الرجال الذين يشغلون المواقع العالية ويحتلون المناصب الرفيعة، يحرصون حرصا شديدا على سمعتهم وهيبتهم ومكانتهم، وان انظارهم مسمرة على التاريخ ومشدودة الى المستقبل، وان عمليات التزوير والتلفيق جارية قائمة على قدم وساق، ليل نهار، دون كلل او ملل، طالما انهم احياء يرزقون. ولو امعنت النظر، واعملت الفكر، لوجدت ان الهدف المتوخى من تدوين معظم الوثائق، ليس كشف الحقيقة واعلانها، بل طمسها وكتمانها بتضليل العقول واستغفال الباحثين. وفضلا عن ذلك، فأن الصراعات المستورة التي دارت وراء الكواليس بعيدا عن الانظار، وقررت النتائج وحسمت المواقف الى حد بعيد، قد غابت عن الوثائق، واختفت من النصوص، واغفلت في الاضابير والسجلات. وقد اطلعتني التجربة الشخصية المباشرة الطويلة على بعض خفايا وجوانب وتفاصيل عمليات افتعال التاريخ، التاريخ المحنط الجاهز المصنوع على المقاس المطلوب، وليس التاريخ الحقيقي الحي. ولكن هذا التاريخ المحرف ليس واضحا مكشوفا سافرا. او، بعبارة اخرى، انه ليس شفافا يمكنك ان ترى كل شيء من خلاله كما ترى من خلال الجوارب الحريرية او الشبابيك الزجاجية. لاشيء يخدع ويضلل ويزيف مثل الوثيقة. ومن هنا، امكن التأكيد على اهمية الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨ بأعتبارها ورشة تعليم وساحة تدريب للمؤرخين. وبعد ان وضعت تلك الحرب اوزارها، وسكتت المدافع عن هديرها، فتحت الحكومات سجلاتها، كما فتح السياسيون والجنرالات افواههم. وبعد تجربة هذا

النوع من التاريخ طوال عشرين عاما، يبدو التاريخ الوثائقي في نظري اشبه بالفكر الاسطوري منه بالتحليل الموضوعي، واقرب الى الخيال الشعري منه الى العلم العقلاني. ولطالما رويت حكاية صغيرة تنطوي على عبرة كبيرة للمؤرخين الاكاديميين الذين لاحظت ان ايمانهم لايزال قويا بالتاريخ الوثائقي. عندما انهارت الجبهة البريطانية في شهر اذار من سنة ١٩١٨، وهرعت التعزيزات الفرنسية للمساعدة على ترصينها وتأمينها،

وصل جنرال فرنسي الى مقر قيادة فيلق من الفيالق. وباشر فورا في املاء اوامر مكتوبة طنانة رنانة عن خط من خطوط القتال قرر ان تتمسك به القوات في تلك الليلة وتنطلق منه بالهجوم المقابل في صبيحة اليوم التالي.

وبعد ان قرأها قائد الفيلق بشيء من الدهشة والحيرة، استفهم معترضاً:

«ولكن ياسيدي الجنرال، ان هذا الخط قد اصبح الان وراء الجبهة الالمانية. وقد خسره سيادتكم بالامس». الا ان الجنرال ابتسم ابتسامة العارف المجرب الراسخ في العلم، واجاب جواب الخبير الملم بالبواطن:

«لايهم. لان الاوامر التي امليتها هي وثائق للتاريخ». وأضيف الى ماتقدم، ان هذا الجنرال قد اشغل في الشطر الاعظم من تلك الحرب منصباً رفيعاً في هيئة اركان الحرب، كان من شأنه ان يضع جميع السجلات والملفات والاضابير والوثائق المتعلقة بهذا الموضوع تحت سيطرته المباشرة وسلطته المطلقة. وهي بالتحديد السجلات والملفات والاضابير والوثائق التي سيعتمدها التاريخ الرسمي لاحقا، ويقوم عليها، ويشتق منها. فكيف الخصام، وأنت الخصم والحكم؟ وتعاني السجلات الرسمية من فجوات عديدة. منها ان بعض الوثائق قد اتلف في وقت لاحق للتستر على حقيقة ربما تسيء الى سمعة قائد عسكري. ولكن الوثائق المزورة التي وضعت ودست بدلاً من الوثائق الصحيحة، هي الاصعب في التشخيص والابعد عن الكشف. وعلى العموم، يبدو ان القادة العسكريين البريطانيين لم يمتلكوا من الذكاء او الاقتدار الا مايقتصر على اتلاف الوثائق

او تبديل التواريخ. وفي أغلب الاحيان، كان القادة العسكرين الفرنسيون امكر واذكى واحذق وابرع. لان الجنرال الفرنسي كان يستطيع ان يحمي رجاله ومعاونيه كما يحمي سمعته، وفي وقت واحد وعلى حد سواء، عن طريق تدوين اوامر تتعلق بموقف غير موجود ولاقائم اصلا، وترتبط بهجوم لم يشنه احد اطلاقا، في حين ان الجميع يشتركون في كسب الفضل ونوال التكريم واحراز التقدير، لان الوثيقة قد ادخلت رسميا في الاضبارة. وقد استغربت وتعجبت احيانا، كيف امكن ان تدار الحرب على الاطلاق، وكيف امكن ان يتحقق النصر بأي شكل من الاشكال، بعد ان اكتشفت كم من الوقت صرفه بعض القادة في تدبير الوثائق وتوفير النصوص للمؤرخين الذين سيكتبون تاريخ تلك الحرب ومعاركها وابطالها، في وقت لاحق. ولو كان الرجال العظماء في العصور الغابرة والازمنة القديمة، التي عرفت بصعوبة التثبت من القرائن والمعلومات، يمتلكون من الشعور بالتاريخ والاهتمام بالمستقبل عشر معشار مايمتلكه امثالهم في العصور الحديثة والازمنة القريبة، لكان من حقنا ان نستريب ونتشكك ان جميع الكتب والدراسات التاريخية غير حقيقية وغير صحيحة، الا مايتعلق منها بالتاريخ المباشر او المعاصر. ويمكنني ان أقول بأطمئنان واقتناع ان القيام بالابحاث والدراسات التاريخية هي التجربة الامثل والطريقة الاجدى والوسيلة الاضمن التي تنبه الغافلين وتفتح العيون وتوقظ النيام. ولكن هذه التجربة بالذات هي التي دفعت المؤرخ الامريكي المعروف (هنري ادامس) الى حالة من اليأس والتشاؤم والاحباط، تبدو واضحة في رده على رسالة عن هذا الموضوع بقوله: «لقد كتبت كثيرا عن التاريخ، حتى وصلت الى الحد الذي يمنعني من تصديقه والايمان بحقيقته والاقتناع بصحته. ومن هنا، اذا اراد احد ان يخالفني ويعارضني ويناقضني، فأنني اجد نفسي على استعداد كامل للانضمام اليه والاتفاق معه والقبول به».

ولعل دراسة تاريخ الحرب بالذات وعلى وجه اخص، هي انجع علاج

وافضل سلاح واقوى اسلوب في تبديد الاوهام عن مصداقية شهادات الرجال ودقة معلوماتهم وبياناتهم، حتى لو وضعنا جانبا وضربنا صفحا عن ظاهرة تفصيل الحقائق على مقاسات الاغراض الدعائية. واذا ادرك المؤرخ بالممارسة حجم وعظم الصعوبات التي تحيط بأكتشاف الحقائق، فأن هذه التجربة نفسها قد تقود الى امتلاك القدرة والبراعة والمهارة على تشخيص وفرز وتحديد وتفنيد المعلومات غير الصحيحة والاقاويل غير النزيهة والمزاعم غير الحقيقية. وهي مهمة اسهل وأهون وأيسر وأبسط بالمقارنة مع مهمة اكتشاف الحقائق. ومن اهم وابرز وأوثق وأصح القواعد القياسية للمعلومات التاريخية، هي القاعدة التي تقرر ان التأكيدات ينبغي ان تقابل بالشك، وأن تعامل بالحذر والنقد والتحفظ، وأن الاعترافات هي الاقرب الى التصديق والارجح في الاحتمال والادعى الى الوثوق والاطمئنان. وتلك هي الحقيقة العامة التي نجدها في الحكمة السائرة والعبارة المأثورة: «الاعتراف سيد الادلة. ولايدان احد الا من فمه». وانطلاقا من هذا الاختبار، نستطيع ان نذهب شوطا طويلا وبعيدا في غربلة التاريخ بأتجاه اليقين الذي يقطع الشك، والوضوح الذي يمنع التأويل، والاقتناع الذي يبدد التردد والتذبذب والتأرجح. ولطالما سمعت من (لويد جورج) شخصيا مايفيد ويؤكد ان القائد السياسي من الطراز الاول يختلف ويتميز عن السياسي المحترف من الطراز الثاني، بأنه يكون على حذر دائما خوفا من اصدار تصريحات قاطعة يمكن ان تفندها او تكذبها او تنفيها الظروف الجديدة او التطورات المتسارعة او الاحداث القادمة.

وأذا ماأقدم تهورا او تسرعا على اصدار مثل تلك التصريحات، فأن الاحتمال سيكون عاليا وقويا بأنه سيتناقض مع نفسه في يوم من الايام، وسيضبط متلبساً بالجرم المشهود، في الاجل البعيد وعلى المدى الطويل.

وقد علمت من (لويد جورج) ايضا انه قد تعلم هذا الدرس من تجربته البرلمانية قبل نشوب الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٤.

٤ . طبيعة التعامل مع دراسة التاريخ:

اثبت عدد متزايد من المؤرخين المحدثين، ومنهم (فيرونيكا ويجوود) مثلا، انه يمكن الجمع بين البحث العلمي الرصين والاسلوب الادبي الجميل في تأليف كتاب شيّق وممتع ومفيد عن التاريخ. وبحلولهم محل علماء الاساطير، استطاع هؤلاء المؤرخون من توظيف التاريخ مجددا في خدمة الانسان. ومع ذلك، نجد ان رواسب ومخلفات واصداء الشك الاكاديمي بالاسلوب الادبي لاتزال قوية قائمة باقية. ولا مناص من تذكير هؤلاء المتعالمين المتعالين بالمثل المأثور السائر القائل: «ان المشقة في الكتابة تؤدي الى السهولة في المطالعة». وهذا وجه واحد فقط من الحقيقة. لان الوجه الاخر يؤكد ان الجهد الدائب الذي يبذله المؤلف في التعبير سيقود بالضرورة الى الجهد الدائب المماثل المقابل الذي ينبغي ان يبذله القارىء في التفكير. ولكن التعبير الغامض الملتوي المعقد عن الحقائق، اسهل وايسر واقرب واهون وابسط وأروح من التعبير الواضح الجلي المفهوم. بل ان التعبير الغامض، ان لم يأت مقصودا عامدا عن سابق تصور وتصميم، يدل دلالة قاطعة ويكون بيّنة مشهودة، على التفكير الغامض. والحقيقة ان العبارات الواضحة تؤدي الى تسهيل مهمة الباحث في تحديد وتشخيص واكتشاف الاخطاء والاوهام والتناقضات، اكثر بكثير من العبارات الغامضة. ومن هنا، يصبح من أوجب واجبات الكاتب ان يكتب مايريد مستعينا بالحذر الشديد والاعتناء الفائق، اذا اراد ان ينجو بجلده من سيف النقد، وان يربأ بنفسه عن الوقوع في شرك الغموض. وعلى هذا النحو، تؤدي العناية بالكتابة من الناحية الادبية الى العناية بالمادة من الناحية التاريخية، وتحليلها تحليلاً منهجيا صائبا وتصورها تصورا موضوعيا صحيحا. ومن المفيد ايضاً ان يقوم المؤرخ بالتحليل السيكولوجي للشخصيات التي يدرس جوانبها المختلفة ويرسم ملامحها البارزة، ولكن بشرط ان يلتزم

بالنظرة المتوازنة العادلة والصورة الشاملة المتكاملة . ومن المفيد ايضا ان يزيل المؤرخ ماعلق او لصق بالصورة من قشرة لامعة او طبقة خارجية، طالما انه يكشف عن الطبيعة الواقعية والشخصية الحقيقيـة . ولكنه ليس مفيدا على الاطلاق، مثلا، الا لاغراض الربح التجاري والكسب المادي، ان يستبدل الطابع الفيكتوري (المتحفظ المهذب الوقور الرصين، نسبة الى عصر ملكة بريطانيا فيكتوريا ـ المعرًب) بالرخص والاسفاف والابتذال في التلطيخ والتلويث والتقبيح، كما يروق للاذواق والامزجة والميول التي تهوى الفضائح وتنهش الاعراض وتكيل الشتائم . وفضلا عن ذلك، فأن المؤرخ قد يستغرق استغراقا كليا كاملاً في تحليل الشخصيات ودراسة العظماء من الجوانب النفسية والعاطفية، مما قد يسدل ستارا من الصمت والاهمال على المواقف والافعال. ومن المحتمل ان مثل هذه الطريقة او المنهجية قد تؤدي الى تسهيل المهمة التي يـأخذهـا على عـاتقه مؤرخ الشخصيـة او كاتب السيرة. لانه لايحتاج حينذاك الى دراسة واسعة او معرفة دقيقـة بالبيئـة الاجتماعية والتاريخية والثقافية التي عاصرها موضوعه، وتـرعرع فيهـا، وارتبط بها. ولكن، هل يمكن ان نتصور وجود رجـل عظيم من رجـال الدولة دون وجود فن ادارة الدولـة؟ وهل يمكن ان يكـون هناك وجـود للجنرال العظيم دون وجود الحرب؟ وهل يمكن ان يوجد اديب عظيم اذا لم يوجد الادب؟ ومن الواضح انه لايمكننا الحديث عن رجل الدولة في معزل عن ادارة الدولة، ولاعن الجنرال في معزل عن الحرب، ولا عن الاديب في معزل عن الادب. الا اذا جرّدنـا الانسان من المـلابس، وقطعنـاه عن الاصول والروابط والعلاقات والوشائج، وحوّلناه الى هيكل عظمي خالٍ من اللحم والدم، ودرسناه كما لو كـان انسانـاً عاديـاً لايختلف ولايتميز ولاينفرد بشيء عن سواه من البشر البسطاء.

وهناك مشكلة اخرى تتعلق بالتاريخ، كانت مـدارا للجدل الـواسع ومثارا للاختلاف في الرأي والتضارب في الاجتهاد. وهي : هل ان التاريخ علم ام انه فن؟ ويبدو ان الجواب الصحيح يؤدي الى الحقيقة القائلة انه

علم وفن معاً. ومن الواضح ان المؤرخ ينبغي ان يلتزم بالمنهجية العلمية في الدراسة التاريخية، وان يدرس الحقائق والوقائع والظاهرات بالطريقة الموضوعية والدقة المتجردة والامانة الصارمة. ولكن وقائع وحقائق وظاهرات التاريخ لايمكن تحليلها وفهمها وتفسيرها الا بالخيال الخصب والعقل المرن والتصور المبدع الخلّاق. لان الكم الضخم والحجم الهائل للحقائق والمعلومات يؤدي الى اغراق المؤرخ في بحر عرمرم وطوفان رهيب. ولاحيلة للمؤرخ، ولا طوّافة للنجاة، الّا بالاختيار والانتقاء والتفضيل والترجيح. وحيثما يكون الاختيار والانتقاء والتفضيل والترجيح، فهناك يكون الفن. ومن طبيعة البحث العلمي ان يكون موضوعيا. ومن طبيعة الانتقاء الشخصي ان يكون ذاتيا. ولكن هذه الناحية الذاتية من الدراسة التاريخية ينبغي ايضا ان تقترب ماوسع وأمكن من المنهجية العلمية والطريقة الموضوعية، تقوم عليها، وتلتزم بها، وتنطلق منها، وتحتكم لها. وللاسف، نرى اليوم عددا متزايدا من المؤرخين المزعومين الذين يطرقون ابواب التاريخ بحثا عن نصوص وحجج تدعم او تبرر مواعظهم المتحجرة المتكررة المقررة مسبقا، وليس بحثا عن الحقائق في الدراسات التحليلية والنقدية والمقارنة بالاستقراء والاستجلاء والاستقصاء. ويأتي دور الفن بعد انجاز واستكمال طور التحليل. لانه يرمي الى استخراج واستنتاج المعاني والدلالات، وتأمين كشفها واعلانها في حلة قشيبة وعبارة رائقة. وقد كانت المدرسة الالمانية من المؤرخين، وعلى رأسها (رانكة)، هي التي بدأت هذه التقليعة او البدعة في القرن الماضي، وهي المسؤولة عن القيام بالخطوة الاولى في محاولة تحويل التاريخ الى علم دقيق مجرد صرف. ثم انتقلت هذه البدعة بالعدوى الى مؤرخينا، وتغلغلت في اوساطهم ومدارسهم. فأشاحوا بأنظارهم عن النتائج العامة والاستنتاجات الشاملة. وباتت الدراسات التاريخية موضعا للاتهام ومبعثا للشك ومثارا للاستصغار والاحتقار والاستنكار، اذا اتسمت وامتازت بروعة البيان وعذوبة الاسلوب وسلاسة التعبير. وماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة ان كتب التاريخ قد اصبحت ثقيلة مملة ممجوجة يابسة جافة، خالية من المعاني، فاقدة للدلالات، فقيرة بالدروس، لاتستهوي القراء، ولاتشدّ المطالعين، ولاتستفز او تتحدى او تستنفر العقول. ولم يعد المؤرخون المتخصصون الراسخون في العلم يكتبون الا للمؤرخين المتخصصين من امثالهم في حوار مغلق وجدل عقيم. وظهر فراغ ملأته اساطير جديدة مشحونة بقدرة فائقة على الاغواء والاغراء والاستقطاب وطاقة عالية على العنف والتدمير والجموح. وعانت الانسانية جمعاء من اسوأ النتائج والعواقب والمردودات. ولكن ماعانته المانيا كان افدح واقسى واوجع. وقد جنت على نفسها والعالم معا. لانها هي التي بدأت بتحويل التاريخ الى خصّي غير قادر على الانجاب، وظيفته الوحيدة هي حراسة الحريم وراء الابواب الموصدة والشبابيك المسدودة والستائر السميكة والجدران العالية، ومنع الاتصال بالمجتمع الانساني والعالم الخارجي والواقع الحي.

٥. المنهج العلمي:

من المعلوم ان التكيّف مع الظروف المتغيرة يعتبر شرطا للبقاء. ويتوقف هذا التكيّف على حقيقة بسيطة ولكنها اساسية هي طبيعة الموقف الذي يتخذه الانسان، والمنهج الذي يختاره، والمقياس الذي يعتمده. ونحن نحتاج حاجة ماسة قصوى، للتغلب على المشاكل المتولدة عن الحياة العصرية، الى فهمها فهما موضوعيا واضحا، وتحليلها تحليلا علميا دقيقا، اكثر من حاجتنا الى اي شيء اخر. ويتطلب هذا الوضع الذي نواجهه ونعانيه عددا من الخصائص والمزايا. ومن اهمها وابرزها على الاطلاق مايلي، حسب ترتيب الاولوية وتسلسل الدرجة، نزولا من الاعلى الى الادنى، ومن الاهم الى المهم: التجرد من الهوى، والابتعاد عن التعصب، والتأكيد الدائم والمطلق فعلا على حرية الفكر وحرمة العقل وكرامة العلم،

مع الحرص الفائق على النظرة الموضوعية المتوازنة الرصينة العادلة المتكاملة التي لاتميل مع الريح اعتباطا، ولاتحيد عن الحق خوفا او طمعا او نفاقا.

وليس في وسعنا ان نأمل في الوصول الى احكام دقيقة صائبة متوازنة، الاّ اذا امتلكنا القدرة على ادراك او تمييز جميع العوامل المتعددة والاسباب الحقيقية والجوانب المختلفة، ذات الصلة بقضية معينة، واستقراء مقدماتها واستخراج نتائجها وحسم تناقضاتها وتحديد اوزانها الموضوعية بميزان العدل والقسطاس، واكتشاف الروابط والعلاقات التي تحيل تلك الاجزاء المبعثرة المتناثرة في الظاهر، كما قد تبدو احيانا في الوهلة الاولى، الى حقيقة عضوية متماسكة واحدة. وربما تكون القدرة على الادراك او التمييز نوعا من الموهبة. وكذلك النظرة المتوازنة التي تعني وضع الشيء في مكانه الصحيح المناسب وفي ضوء ارتباطه بالاشياء الاخرى. ولكن تطوير هاتين الموهبتين يمكن ان يكون اسهل وايسر وامتن واوثق، اذا اقترن بالتجرد من الهوى والابتعاد عن التعصب. ويتوقف هذا الوضع على الفرد نفسه الى حد بعيد، ويدخل في نطاق الممكن الذي يستطيع ان يحققه تحقيقا كاملا في التصور المثالي، او تقريبيا على الاقل في الواقع الحي، بدرجات متفاوتة ونسب مختلفة، حسب الوسع والاستعداد والجهد. واعتقد ان الطريقة المثلى التي تساعد الفرد في الوصول الى هذه الغاية قد تكون بسيطة. ولكنها بالتأكيد ليست سهلة. وتقتضي، قبل كل شيء مثابرته على النقد الذاتي الصارم، وعنايته بالتعبير الواضح الدقيق. ومن الاسهل، على كل حال، ان نحدد مقياسا للتقدم المتحقق في هذا المضمار، وبالتالي للاستعداد المقتدر على تحمل مسؤولية اصدار الاحكام واتخاذ المواقف وصنع القرارات. اذا قرأ الانسان او سمع نقدا او اعتراضا موجها الى شيء يهتم به ويميل اليه ويحرص عليه، فراقبه وانظر، هل كان سؤاله الاول عن موضوعية الاعتراض وحقيقة النقد وسلامة التصحيح، ام لا. فأذا انفعل وغضب وثار في مواجهة النقد او الاعتراض، او التصحيح، وجاء جوابه

مشحونا بالعاطفة الجياشة العارمة الجارفة وقام رده على الزعم ان النقد او الاعتراض او التصحيح قد افتقر الى الذوق السليم، وابتعد عن الاسلوب المهذب، وانه سوف يؤدي الى اسوأ النتائج واوخم العواقب، او بعبارة اخرى، اذا ابدى اهتماما بأي سؤال غير السؤال: (هل كان النقد او الاعتراض او التصحيح موضوعيا وحقيقيا وصحيحا؟)، فأعلم حينذاك انه قد كشف واوضح واثبت ان موقفه ليس علميا. وقياسا على هذا المثال، واستطرادا على هذا المنوال، سيكون الحال نفس الحال، اذا اصدر هذا الشخص حكما على فكرة، كائنة ماكانت، ليس انطلاقا من صحتها وحقيقتها ومصداقيتها كما هي في حد ذاتها، ولكن انطلاقا من حكمه على صاحبها او قائلها او كاتبها، ورأيه فيه وموقفه منه وعلاقته به، او انتقد تلك الفكرة بأعتبارها نزوة او بدعة او هرطقة، او اكد تأكيدا قاطعا ان المصدر الخبير او المرجع العلمي لابد ان يكون دائما على حق بالضرورة لالشيء ولا لسبب الا لانه مصدر خبير ومرجع عليم، او نظر الى النقد المحدد نظرته الى استهجان شامل واستنكار مطلق، او خلط خلطا مشوشا بين الاراء والظنون وبين الحقائق والوقائع، او ادعى العصمة والكمال وزعم ان كل تعبير عن رأي ليس مفتوحا للحوار ولا قابلا للنقاش، او اعلن شيئا معينا، لايمكن ان يتحقق او يحدث على الاطلاق، او زعم انه على يقين نهائي مطلق بصواب رأي او اخر صوابا كليا قاطعا، دون تمييز ولا استثناء، بالضرورة الاكيدة والحتمية القاهرة. لان الطريق الموصل الى الحقيقة، مرصوف بالشك النقدي، ومفروش بالبحث الموضوعي، ومعبَّد بالبرهان العقلاني. واذا نظر الباحث الى الموضوع نظرة ذاتية، فهيهات ان يصل الى نتيجة موثوقة او حقيقة مفيدة. وسيكون مثله كمثل الاعمى الذي يبحث عن ابرة في غرفة مظلمة. وماعظم الفرق بين الاعمى والبصير.

واذا كانت دراسة الحرب في الماضي قد اثبتت مرارا وتكرارا انها ليست

بالمرشد الموثوق والدليل المعصوم الذي يهدينا الى طبيعة الحرب اللاحقة او القادمة وطريقة ادارتها، فأن السبب لايعود الى ان ظاهرة الحرب نفسها لاتصلح ان تكون موضوعا للدراسة العلمية، بل يعود السبب الى ان دراسة الحرب لم تكن على درجة كافية من العلمية بالروح والمنهج. ويبدو من الصعوبة بمكان ان نصدق ان المدارس الاساسية البارزة المتنفذة في الفكر العسكري قد جهلت الى هذا الحد المريع ماحدث من تطور ظهر واضحا جليا في الحروب التي نشبت طوال القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين. ولكن استعراض او تحليل قائمة الاخطاء يوحي ان التفسير الوحيد للظاهرة التي لاحظناها لايمكن ان يكون سوى ان دراسات تلك المدارس للحروب التي زامنتها وعاصرتها وقاربتها كانت دراسات استسلمت الى الذاتية وافتقرت الى الموضوعية. وستبقى الصعوبة قائمة والمشكلة ماثلة، حتى لو استطعنا تشخيص وكشف اخطاء الماضي كما نجدها في الابحاث والمذكرات التي يكتبها العسكريون القدامى او في المحاضرات التدريسية التي يلقونها عن التاريخ العسكري في الكليات والمعاهد المتخصصة. لان الايمان يعتبر بندا اساسيا من بنود الصمود والتفوق والانتصار للجندي الذي يواجه شدائد القتال واهوال الحرب.

فلا عجب اذا رأينا التدريب العسكري يحرص على غرس عادة الطاعة العمياء في التكوين الشخصي للجندي. وتنطوي هذه الطاعة العمياء في جانب من جوانبها على قبول مطلق غير مشروط بالعقيدة العسكرية السائدة دون نقاش. واذا كانت المعركة هي المحك النهائي والمقياس الحاسم للنظرية العسكرية، فأنها لاتشغل عمليا، على اهميتها، الا وقتا قصيرا وحيزا صغيرا من الجندية. لان الجيش النظامي لايقاتل في كل لحظة من الزمن، ولا في كل شبر من الارض. وتميل الجندية بطبيعة تكوينها وطريقة عملها الى تحويل الرجال الى عبيد للنظرية.

وفضلا عن ذلك، فأن الجندي ينبغي ان يكون قلبه عامرا بالايمان، الايمان بقدرته على دحر العدو، وارغامه على الاستسلام او الارتداد خائبا ذليلا، يجرجر اذيال الفشل والهزيمة، ويتجرع غصص الهوان والمرارة والحسرة. ومن هنا، يتعرض هذا الايمان الى الخلل او الخطل او العطل، اذا ناقش الجندي حتمية النجاح في الهجوم او الانتصار في الحرب، حتى لو اقتصر نقاشه على الجوانب المادية والنواحي اللوجستية او العملياتية. لان الشك يورث اليأس والقنوط والاحباط، ويؤدي الى انفراط العقد وتفرق الشمل وتبدد الجمع، الا اذا مارسته العقول الفلسفية او المتفلسفة المتدربة المتمرسة المتخصصة. ومن الثابت المعلوم، ان الجيوش لاتتألف من فلاسفة، لا في القمة ولافي القاعدة، لا في اعلى قيادة مسؤولة ولا في ادنى وحدة مقاتلة. ولاتوجد مسلكية اخرى تحتاج الى النظرة المتفائلة بأعتبارها شرطا ضروريا للنجاح اكثر من الجندية. لان الجندية هي المواجهة مع المجهول حتى الى حد الجود بالنفس والاقدام على الاستشهاد. ومن المؤكد ان المسافة التي تفصل النظرة المتفائلة عن الحماقة العمياء هي اوهى من خيط العنكبوت، وادنى من حبل الوريد، واضيق من خرم المخرز. فلا عجب اذا رأينا الجنود احيانا يتعدون الحد، ويتجاوزون المدى، ويسقطون ضحايا ايمانهم. ولايمكن للجندي ان يتقدم الى الامتحان المطلوب في الشعار المرفوع على واجهة اكاديمية (لونغ مينغ) الشهيرة في الصين، والمكتوب على رأس كل صفحة من صفحات الكتب العلمية المقررة للتدريس، والذي يقول: (على التلميذ ان يتعلم اولا كيف يقترب من اي موضوع بروح من الشك). ومن الاصعب اضعافا مضاعفة ان يعمل الجندي بالقول المأثور الذي افاده (جانغ تساي) في القرن الحادي عشر كما يلي بالحرف الواحد:

(اذا امكنك ان تشك حيث لايشعر الاخرون بميل الى الشك، فأعلم انك حينذاك تحقق تقدما وتحرز نجاحاً).

٦ . الخوف من الحقيقة:

نتعلم من التاريخ، ان الكثرة الكاثرة من البشر، في كل عصر ومصر، كانت دائما تشعر بالنفور والامتعاض والاستياء من النقد او الاعتراض او التحفظ الذي يوجه الى مؤسساتهم، لحظة صدوره او ساعة ظهوره او عشية اعلانه، وان كان يبدو وجيها وبديهيا ومعقولا في فترة لاحقة متأخرة.

ونتعلم ايضا، ان امتناع الناس الطيبين الشرفاء، والمواطنين المخلصين العقلاء، عن الاعتراف بالحقائق، خوفا من تكدير الاطمئنان المتولد عن التصديق، والاستقرار المنبعث من التسليم بالقناعات الراسخة والمعتقدات اليقينية، وخوفا ايضا من تعكير راحة البال وسعاد النفس وعافية الذهن، وايثارا للسلامة، او حرصا على المصلحة، او طلبا للنجاة، قد ساعد على استمرار وانتشار وازدهار الاباطيل والاوهام والاخطاء، ومايترتب عليها وينجم عنها ويرتبط بها من شرور ومفاسد واضرار. ومن الواضح ان الشعور بالصدمة العاطفية والنفسية في مواجهة الحوار الفكري او التحليل العقلاني او الاستقراء العلمي، اذا تطرق الى المسائل الاساسية الحسّاسة في تقدير جيل معين من البشر، والامتناع عن مناقشة بعض القضايا والموضوعات التي احيطت بهالة اسطورية من الخطورة والاهمية ومسحة نورانية من القداسة والعصمة، مناقشة موضوعية متجردة هادئة، قد اصبحت ميلا انسانيا شائعا وثابتا ومستمرا. ولااستطيع ان اتصور مثلا اعلى للانسان افضل وأكمل وانبل وأجمل من مواجهة الحياة بعيون مفتوحة مبصرة سليمة صافية، بدلا من السير على دربها بخطوات متعثرة مترنحة مضطربة قد تليق بالاعمى او الخرف او السكير، ولكنها، على صعيد الفكر بالتحديد، للاسف، لاتزال هي الاختيار المفضل الرائج. ومن النادر ان نرى انسانا يكون رد فعله الاول على ظاهرة او اخرى ان يسأل نفسه: «هل

انها صحيحة؟ وهل هي الحقيقة؟). واذا لم يكن رد الفعل الطبيعي للانسان على هذا النحو، فأنه يكون قد اظهر ان الحقيقة لاتشغل باله ولاتستقطب عقله ولا تثير اهتمامه. واذا لم يكن ذلك كذلك، يكون من غير المحتمل ان انسانا من هذا النوع يستطيع ان يحقق تقدما حقيقيا.

ولعل اخطر الاوهام هي تلك التي تنجم عن الخلط خلطا عشوائيا مشوشا بين الحقائق التاريخية وبين المصالح المعنوية الوطنية والعسكرية.

وعلى الرغم من ان هذا الدرس من دروس التجربة كان الاشق والاصعب في الاكتساب والاستيعاب والاستحواذ، الا انه لايزال الاشق والاصعب ايضا في التفهّم والتعلّم والادراك. ويبدو ان اولئك الذين تعرضوا الى الالم الاشد والعناء الاعظم والعنت الاقسى من جراء قيامهم بهذا الخلط، هم انفسهم الان الاعنف شوقا والاقوى ميلا والاكثر استعدادا للتعرض الى المزيد. في سنة ١٩٣٥م، نشر جنرال الماني معروف بحثا في ابرز مجلة عسكرية كانت تصدر في وطنه حينذاك، بعنوان (لماذا لانقوم بعملية تمويه؟). وقد يتبادر الى الذهن افتراضا في الوهلة الاولى انه كان يدعو الى احياء وتطوير فن التمويه بالمعنى العسكري الدقيقة المعروف الذي يرمي الى تضليل العدو واخفاء اهداف وتحركات ومواضع الجيش. ولكن المعنى الذي قصده كان بعيدا للغاية عن هذا الموضوع، ومختلفا تماما عن هذا المفهوم. لان التمويه الذي قصده واراده وحث الجيش الالماني على تطبيقه كان يرمي الى اسدال ستار من الصمت والكتمان على الحقائق التاريخية غير المستساغة وغير المريحة وغير السارة. واستنكر وادان قيام السلطة الجديدة بعد الحرب بنشر الوثائق الرسمية للخارجية الالمانية نشرا كاملا، وعرضها على الانظار، وفتحها للباحثين، بما في ذلك حتى هوامش وتعليقات القيصر غليوم. بل ان هذا الجنرال اختتم بحثه الداعي الى التمويه في ميدان التاريخ مستشهدا بالحكمة الانكليزية المأثورة التي تقول: (تقاس الحقيقة

في ضوء التجربة، ومايكون ناجحا في التطبيق، يكون صحيحا في الفكر والواقع). وليس في هذه الدعوة في حد ذاتها مايدهش الباحث في التاريخ العسكري او يدفعه الى الشعور بالاستغراب. ولكن المستغرب والمدهش في هذه الدعوة ان صاحبها الجنرال الالماني قد اعتبرها حدثا فريدا وفتحا جديدا. لان التاريخ الذي يوصف بأنه (التاريخ الرسمي) يستدعي بالضرورة والطبيعة شيئا من التحفظ والحذر. ولكن التاريخ الذي يوصف بأنه (التاريخ الرسمي العسكري) يستدعي اضعافا مضاعفة من التحفظ والحذر. وقد تعلمنا اقدم واعظم وأحكم درس من دروس «تاريخ التاريخ»، وادركنا بالامثلة والقرائن والحقائق ان فن التمويه في ميدان التاريخ كان اسبق في النشوء والتطور والتطبيق منه في ميدان القتال. ولعل اسوأ مافي هذا التاريخ المموه، انه ليس فقط يخفي الاخطاء والنقائص والعيوب التي كان يمكن تصحيحها او تجنبها او تلافيها لولا الصمت والكتمان والتجاهل، بل انه ايضا يخلق جوا او شعورا او احساسا من الغرور الفارغ والاطمئنان الزائف والامان الكاذب. وكم في التاريخ العسكري من هزائم منكرة ومذلات صارخة وعواقب وخيمة، وقعت لان الانسان قد استسلم الى سبات عميق وحلم جميل وخدر لذيذ ثم استيقظ بعد فوات الاوان وضياع الامل وحلول وقت الحسم على واقع مرير وليل مظلم وكابوس رهيب. تلك هي العفونة التي قد تدب احيانا في اوصال الجيش، اذا وجدت الفرصة السانحة او اغتنمت الغفلة الجاهلة. ولكن عواقبها الوخيمة اوسع وبواكيرها المحسوسة اسبق، لان شعور القيادات العسكرية بالغرور الفارغ والاطمئنان الزائف والامان الكاذب، كان في كثير من الاحيان مهمازا لكزها الى تقدير سيء وعمل متهور واندفاع طائش لايلوي على شيء الى الحرب. وكم من حروب قد خسرتها السيوف. وكم من حروب قد كسبتها العقول.

٧ . التهرّب من الحقيقة :

ونتعلم من التاريخ ايضا ان بعض الناس قد رددوا دائما العبارة المنسوبة الى القائد الروماني القديم (بيلاطس البنطي) بقوله: «ماالحقيقة؟». وقد استعانوا بتلك العبارة في ظروف تدفعنا الى التساؤ ل عن نواياهم الدفينة ودوافعهم الحقيقية. ويبدو ان هذه العبارة كانت ستارا من الدخان للتستر على مناورة شخصية او سياسية، ومحاولة ماكرة للابتعاد عن مواجهة الحقيقة، والتهرب من التبعة، والتنصل من المسؤ ولية. ولكن تلك العبارة في حد ذاتها، قد تكون سؤ الا واردا او وجيهاً، بل واجباً وضرورياً، بالمعنى الاعمق والادق والاحق. ومع ذلك، كلما قضيت زمناً اطول في مراقبة الاحداث الراهنة ومتابعة التطورات المتلاحقة، كلما ازددت اقتناعا، ان كثيراً من المصائب التي اصابتنا، والويلات التي انهكتنا، والمشاكل التي اتعبتنا، قد نشأت من عادة مرذولة معينة اوشكت ان تستولي على عقول الجميع، هي عادة التعتيم على الحقيقة او التلاعب بها والتحايل عليها، انطلاقا من الحرص على هدف عزيز، او الاستغراق في طموح فردي، او الولاء للنظام السياسي او التنظيم النقابي او التجمع المهني او المسلكي او الوظيفي او الاداري، او حتى التكتل العائلي. ولكن هذا الموقف في قرارته وحقيقته، كان يقوم في جميع الظروف والاحوال على الرغبة الشديدة في المحافظة على المصلحة الفردية الخاصة. وقد لاحظنا ان تاريخ الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ قد ازدحم ازدحاما عجيبا بالامثلة والسوابق والحجج التي تثبت مافدناه، وتدعم ماذكرناه، وتبرهن ماقصدناه. ولعلنا نجد ابرز وأوضح وأهم تلك الأمثلة والسوابق والحجج في معركة (باشندايل). وفي ضوء ماأعلنه الماريشال (هيغ) جهارا نهارا، ومسبقا قبل شروعه بالتنفيذ وتحركه بالفعل، يبدو واضحا ان الدافع الاقوى الذي استحثه على الهجوم، يعود الى قناعته الراسخة ان القوات البريطانية كانت

تستطيع سنة ١٩١٧ ان تكسب الحرب منفردة قبل وصول القوات الامريكية الى خنادق المواجهة وميادين المعركة. وقد اقترنت قناعته الراسخة بقدرته على تحقيق هذا الهدف، برغبته العارمة للقيام بمثل هذا العمل. ولكن الاوضاع كانت قد تبدلت، والظروف كانت قد اختلفت، في الوقت الذي انصرم وانقضى بين لحظة اتخاذه للقرار ولحظة شروعه بالتنفيذ. واعرب القادة العسكريون الميدانيون الفرنسيون الكبار للماريشال (هيغ) علنا عن شكوكهم وهواجسهم ومخاوفهم وتحفظاتهم.

ومع ذلك، فأنه قد بذل جهودا مضنية دائبة حثيثة ترمي الى اقناع الحكومة البريطانية المترددة بالموافقة على تحقيق حلمه وتنفيذ مشروعه. ولكنه حجب وكتم واستبعد الحقائق السلبية التي كان يعرفها حق المعرفة، وبالغ وغالى واشتط في التأكيد والتركيز والاصرار والالحاح على تلك التي اعتبرها، في نظره وتقديره، من الحقائق الايجابية. وقد منيت قواته بالاخفاق التام والفشل الذريع عند شروعها بالتنفيذ وقيامها بالهجوم في اليوم الاخير من شهر تموز. الا انه لم يتورع عن الزعم في التقارير التي ارسلها الى لندن بأن النتائج التي تمخضت عن الهجوم كانت «مرضية للغاية». والواقع ان الطقس كان قد ساء وتدهور وادلهم في ذلك اليوم بالذات، وغرق الهجوم في الوحل. وقد شعر رئيس الوزراء البريطاني بالقلق للخسائر الفادحة المتزايدة في الارواح التي تكبدتها القوات المهاجمة، فتوجه فورا بزيارة الى الجبهة في (الفلاندرز). ولكن (هيغ) زعم ان الحالة الجسدية السيئة والمتدهورة للاسرى الالمان كانت دليلا واضحا وبرهاناً ثابتا على ان هجومه قد انهك واستنزف الجيش الالماني. فطلب رئيس الوزراء البريطاني ان يزور قفصا من اقفاص هؤلاء الاسرى. فسبقه احد ضباط ركن الماريشال (هيغ)، واصدر امرا هاتفيا عاجلا «بأبعاد كافة الاسرى الالمان الاصحاء بدنيا» من القفص الذي سيزوره رئيس الوزراء، قبل وصوله. وأستمر مسلسل الخداع والتضليل، كما استمر الهجوم حتى ارتفعت ارقام ضحاياه الى (٤٠٠,٠٠٠) قتيل بريطاني. وفي السنوات التي اعقبت الحرب العالمية

الاولى مباشرة حاول (هيغ) ان يجد عذراً يبرر هجومه الخائب الفاشل المندحر. فزعم انه قد شنه بطلب من الفرنسيين، وأضاف قائلا انه «قد استجاب الى الطلب، واستمر في الهجوم اضطراراً وليس اختيارا، خوفا من انهيار الجيش الفرنسي». ولكنه اعلن في الرسائل التي كان قد كتبها حينذاك، والتي كشفت ونشرت الان، ان معنويات الجيش الفرنسي كانت «ممتازة». وفي الخريف التالي على الهجوم الخائب الفاشل، الذي انهك واستنزف واضعف قواته ماديا ومعنويا، القى باللوم على الحكومة بعد ان فشلت تلك القوات في الصمود للهجوم الالماني.

لقد كان الماريشال (هيغ) رجلا شريفا بحسب قدراته الشخصية وامكاناته العقلية. ولكن تلك القدرات كانت ضعيفة مهزوزة، كما كانت تلك الامكانات محدودة قليلة. وقد تحولت معركة (باشنديل) الى نذير شؤم وفأل نحس في ضوء العواقب الوخيمة والنتائج السيئة التي ترتبت عليها ونجمت عنها. وتعود تلك العواقب والنتائج الى التفاعل المتزامن والتأثير المتراكم للعديد من العوامل والاسباب. منها ميله الى خداع نفسه. ومنها ايضا، بالتالي، ميله الى تشجيع مرؤ وسيه على خداعه. ومنها كذلك ميل مرؤ وسيه «بالوفاء والولاء» الى الامتناع عن اطلاع رئيسهم على الحقائق، الا اذا اتفقت مع ميوله وتطابقت مع رغباته. ومن هنا، اكدنا، ولانزال نؤكد، ان معركة (باشنديل) هي الدرس الموضوعي والعملي والميداني الامثل عن النتائج والعواقب التي تحيق وتحدق بالجيوش والدول والاوطان والامم، بفعل التهرب من الحقيقة تهربا مصلحيا، وان كان ليس خبيثا او دنيئا او شريرا. حقا ان الطريق الى الجحيم، كان دائما مفروشا بالنوايا الطيبة، ومعبدا بالعواطف النبيلة، ومرصوفا بالاحلام الوردية.

في مقتبل عمري، عندما كنت ضابطا شابا من ذوي الرتب الصغيرة، شعرت بالاحترام الفائق والاجلال العظيم للضباط الاقدم من ذوي الرتب الاكبر والقيادات الاعلى. ولكن املي قد خاب ورجائي قد تبدد، عندما راقبتهم عن قرب وتابعتهم عن كثب، بعد ان اصبحت مراسلا حربيا، في

مرحلة لاحقة من عمري. وكان من دواعي حزني واسفي ان اكتشف ان عددا غير قليل من هؤلاء الرجال، يبدون في الظاهر تعلقا بالشرف، ويظهرون في العلن حرصا على الكرامة، ولكنهم لايتورعون عن الانحدار الى الحضيض الاسفل، والسقوط في الدرك الاحط، للصعود الى درجة وظيفية اعلى، والترفيع الى رتبة مسلكية اكبر.

وكان الفيلد مارشال السير (مونتوغومري - ماسينجبيرد) احد القادة العسكريين الكبار الذين بذلوا جهدا دائبا لجوجا لحوحا للاتصال بيّ والتعرف عليّ والتحدث اليّ. وقد رجاني ان اعاونه في تأليف كتاب عن الدروس المستفادة من الحرب العالمية الاولى. فوافقت على الطلب، واستجبت الى الرجاء. وعندما ذهبنا سوية في زيارات الى ميادين الحرب وسوح القتال، شعرت بصدمة نفسية عنيفة عندما وجدته يتجنب الجوانب السلبية، ويتفادى الوقائع الحساسة. وسرعان ماادركت ان الغرض المكتوم او الدافع الشخصي او الهدف الحقيقي للاقتراح الذي فاتحني به وراجعني عنه واقحمني فيه بتأليف كتاب من هذا النوع، لايعدو ان يكون اظهار الجيش الرابع، الذي كان يرأس هيئة اركانه، بمظهر الجيش المثالي الرائع، واثبات ان عملياته كانت من انجح العمليات التي شهدتها الحرب العالمية الاولى، وانها كانت خالية من الاخطاء، بعيدة عن الشبهات، بريئة من الشوائب. ومن هنا، حسمت هذه المسرحية، وانهيت هذه المهزلة، واعتذرت اعتذارا مهذبا ولكن حازما عن معاونته في هذه العملية المرفوضة من عمليات الاعلان التجاري والاعلام الشخصي. ولعل اكثر ماابعدني عنه واحزنني فيه ونفّرني منه، يعود الى عادة قبيحة مرذولة معينة من عاداته.

وقد لاحظت انه دأب ان يلقي على مسامعي مالايليق ولايستحسن من الوخزات المبطنة والتلميحات السيئة عن الجنرالات الاخرين الذين كانوا ينافسونه في تسلّق السلّم العسكري، للتقليل من ادوارهم، والانتقاص من اقدارهم.

وقد استطاع في النهاية من الوصول الى القمة العليا في القيادة العسكرية. ولكن ليس بمعاونتي او مساعدتي على الاطلاق. وكانت فترة خدمته هي اسوأ فترة من التحجّر والجمود في تطور الجيش البريطاني بين الحربين العالميتين الاولى والثانية. والاسوأ من ذلك بكثير، انه قد اصبح رئيس هيئة اركان الحرب للقوات المسلحة للامبراطورية البريطانية، في نفس الوقت الذي كان (هتلر) فيه قد بدأ بالفعل في الاستيلاء على مقاليد السلطة في المانيا.

وعندما اصبح الجنرال (ايرونسايد) رئيسا للاركان عشية نشوب الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩، وراجع قائمة تتعلق بالنواقص في معدات الجيش، راعه ماوجد، واغضبه ماأكتشف، من سوء الوضع، وانتشار الفوضى، وانخفاض العتاد المتوفر والاحتياطي المخزون، كما ونوعا. واشار بسبابته الى صورتين معلقتين على الحائط في مكتبه بالمقر العام تمثلان رجلين كانا قد سبقاه في هذا المنصب، هما الفيلد مارشال (ميلن) والفيلد مارشال السير (مونتوغومري ـ ماسينجبيرد) على التوالي. وصرخ بصوت مرتفع ومرتجف: «هذا هما الرجلان اللذان يتحملان المسؤولية الاساسية الكاملة. ولو كانا هنا الان، لامرت بأقتيداهما حالاً الى الخارج واعدامهما فوراً». ولكنني اعتقد ان هذا الحكم ربما كان قد انطوى على قسوة زائدة بالنسبة الى الجنرال (ميلن).

وقد لاحظت ايضا في حياتي الطويلة الحافلة، ان عادة مختلفة اخرى من العادات، قد انتشرت وراجت في اوساط الضباط الطموحين. ولكنها اسوأ في النتائج، وأوخم في العواقب. فما ان يقترب احدهم من مرحلة الترشيح ومدة الاستحقاق للترفيع الى رتبة الجنرال، حتى يتخذ قرارا بينه وبين نفسه، بالامتناع عن المجاهرة بارائه والمصارحة بأفكاره، خوفا من ضياع الترقية وفوات الفرصة، والقيام بدلا من ذلك بأيداع تلك الاراء والافكار في الحفظ والصون للفترة الكافية المناسبة من الزمن، وتأمينها في قنينة مسدودة سداً محكماً، بأمل وضعها موضع التنفيذ بعد الحصول على الترقية

والوصول الى القمة. وللاسف، ومن سوء الحظ، ان النتيجة الوحيدة المعتادة التي تحققت للضابط الطموح، في مثل هذه الاحوال، بعد سنوات عديدة طويلة من القمع الذاتي والكبت العقلي والاحتباس الفكري بدافع الحرص على الطموح الشخصي والتسلق الاداري والصعود العسكري، كانت على خلاف المقصود وعكس المطلوب. فما ان يفتح القنينة، وما ان يرفع السدادة من فوهتها، حتى يجد ان محتوياتها كانت قد تبخرت وتبددت منذ وقت طويل وزمن بعيد.

وقد وجدت ان الشجاعة الاخلاقية في اوساط العسكريين القياديين نادرة، كندرتها في اوساط السياسيين المحترفين. وقد فاجئني وادهشني ان اجد ان اغنى العسكريين في الشجاعة المادية والبدنية، كانوا افقرهم في الشجاعة الاخلاقية والفكرية. ويبدو ان السبب يعود على الاغلب الى الاستغراق المتزايد في الطموح الشخصي المسلكي، وبالاخص في حالات الحياة العائلية التعيسة التي دفعت بصاحبها الى التعويض بالانصراف كليا الى الطموحات المسلكية. وهناك سبب اساسي اخر من اسباب ضعف وانخفاض الشجاعة الاخلاقية والفكرية. ويتعلق بأفتقار الضباط الآمرين الى مورد للرزق، ومصدر للمال، غير الرواتب الرسمية التي يتقاضونها من الخدمة في القوات المسلحة. مما يدفعهم الى التزام الصمت، وتنفيذ الاوامر دون نقاش، والسكوت على الخطط والرؤوساء، خوفا على ارزاق العوائل، وتأمينا للمعيشة، وحرصا على سداد تكاليف ونفقات تعليم الاطفال. وقد كان مثل هذا الوضع، عاملا اساسيا وبارزا، وربما حاسما ايضا، في خضوع وانصياع واذعان الجنرالات الالمان للسلطة المطلقة التي مارسها (هتلر) وزينّها لهم او فرضها عليهم. وقد ازددت تفهما للوضع المذكور، لانني شاهدت مايماثله او يشابهه او يقاربه مطبّقا في بريطانيا، في ظروف اخف واهون وايسر واقل صعوبة وحراجة وخطورة بكثير. وقد حالفني الحظ الطيب، وساعدني الطالع الحسن، كما افدت في مقدمة «مذكراتي»، لانني كنت مستشارا مستقلا وخبيرا حرا، تراجعني الحكومات

والدول رسميا، ولكنني لاأذكر يوما واحدا كنت فيه موظفا حكوميا يشغل منصبا رسميا ويستلم راتبا شهريا. ومن هنا، لم يعقني عائق، او يمنعني مانع، او يقيدني قيد، من مواصلة البحث عن حقائق الاشياء، والتعبير عن افكاري وارائي بموضوعية فائقة وحرية كاملة وصراحة مطلقة. ولقد تعلمت من التجربة الشخصية والمباشرة، ان معظم المشاكل والتعقيدات التي يعانيها العالم انما تأتي من الاستغراق الشديد والانغماس الزائد في المصالح والاهتمامات الاخرى التي لاتقيم وزنا للحقيقة، ولاتعير بالا للموضوعية، ولاتبدي حرصا على عظمة العلم وحرية الفكر وحرمة البحث وكرامة العقل.

٨ . الولاء المطلق غير العقلاني المقرون بالتعصب الاعمى:

نتعلم من التاريخ ان الرجال المتسلقين الذين لايدينون بالولاء الى رؤساؤهم هم انفسهم اكثر الناس ميلا الى اغراق مرؤوسيهم بطوفان جارف من المواعظ والنصائح والارشادات التي تحثهم على الولاء، بكرة واصيلاً، ليلاً ونهاراً. وقبل سنوات قليلة، عرفت عسكرياً بريطانيا كان لجوجاً لحوحاً في دعوته الى الولاء، عندما كان يشغل موقعا عاليا ويتقلد منصبا رفيعا، حتى اعلنه شعارا، واتخذه رمزا. ولكن رئيسه وزميله ومعاونه في السنوات التي سبقت صعود نجمه وارتفاع مقامه، كانوا قد كاشفوني واطلعوني في حينه بأنه رجل من ذلك النوع المطيع المدجّن الذي يسمع ويبلع كل شيء دون انفعال، ويعبيء الغث والسمين في الخرج دون تمييز، ويترك الماء يجري على رسله وهواه دون اعتراض، للدخول الى الحظوة، والحصول على الترقية، والوصول الى القمة. ومن الواضح ان الولاء يعتبر من اشرف القيم وانبل الخصال، طالما انه لايستسلم الى العماوة

ولايتناقض مع الالتزام الاعلى بالحقيقة والاستقامة. ولكن هذه الكلمة بالذات، كلمة «الولاء»، قد تعرضت الى الكثير من الخلط والالتباس والتشويش في التطبيق العملي والتصرف اليومي والسلوك الانساني. وفي ضوء التحليل الاخلاقي الواقعي للكلمة، سنجد في معظم الاحيان انها قد تحولت الى لفظة مهذبة للدلالة الدقيقة على الحقيقة المريرة التي تعني انها «مؤامرة مشتركة للتغطية المتبادلة على افتقار المتآمرين جميعاً افتقاراً مطلقاً الى الكفاءة»، على طريقة انفعني فأنفعك، او استرني فأسترك، او ربّت على اكتافي فأربت على اكتافك. بهذا المعنى، ينقلب «الولاء» رأسا على عقب، من ظاهرة اخلاقية الى ظاهرة انانية لاتختلف في جوهرها عن علاقة التابع بالمتبوع او العبد بالسيد. ويغلب على ظني، ويرجح في اعتقادي، ان «الولاء» ليس خصلة انسانية او قيمة اخلاقية، مستقلة بنفسها، ويمكن ان نعزلها في حد ذاتها عن سواها من الخصال والقيم. لان «الولاء»، في حقيقته الواقعية وقيمته الذاتية، يوجد ضمناً بأمتلاك الانسان للفضائل الاخرى. ومن الثابت ايضا ان الانواع الثانوية الصغرى من الولاء الاعمى المشوش، تغزو الابحاث والدراسات التاريخية وتعرض مكاسبها وثمارها ونتائجها الى اسوأ الاضرار وافدح الخسائر واوجع الجروح. يُعَرفُ المؤرخ بعلامة فارقة واحدة وحيدة، هي بحثه عن الحقيقة حبا بالحقيقة او المعرفة في حد ذاتها، وليس بحثا عن المصلحة او الشهرة او الثروة او السطوة او الوجاهة. لان الحقيقة هي هدفه الاول والأخير، الحقيقة العارية، والحقيقة الكاملة، ولاشيء غير الحقيقة. وكل ماعداها يأتي بالدرجة الثانية، ويحتكم لها، ويقاس بها، ويترتب عليها، وينجم عنها، ويتولد منها. كثيرون يطمحون الى مهنة المؤرخ ويتمنونها. وقليلون يستحقونها بالفعل، ويوفونها حقها، وينالونها عن جدارة واستحقاق.

ولايعود السبب في هذه الظاهرة بالضرورة الى انتفاء المواهب وغياب القدرات، بل يعود للافتقار الى الحافز او التصميم على متابعة بصيص

الحقيقة وملاحقة شعاع المعرفة، من بوادره المبكرة وبوارقه الاولى الى مراحله الاخيرة ونتائجه النهائية، كائنة ماكانت. ويبدو ان العديد من الباحثين تمنعهم او تعيقهم الاعتبارات العاطفية عن مواصلة البحث عن الحقائق، واعلانها بعد اكتشافها، حتى لو تركنا جانبا، وضربنا صفحا عن العلاقات الشخصية او الاجتماعية او العائلية او سواها، من شاكلة القرابة او الزمالة او التلمذة وغيرها، كما يحدث بالفعل في حالات معينة تتعلق بالسيَّر التاريخية. ويصنف الباحث، الذي لايتوانى ولا يتورع عن تفصيل مايكتبه او يقوله على مقاس مايستحسنه جمهور او يريده متنفذ، في درجة ادنى ورتبة اوطأ.

واسعة هي الفجوة، وطويلة هي المسافة، التي تفصل بين الدراسة المموهة والحقيقة التاريخية، او بين التاريخ المكتوب والتاريخ الحقيقي.

ولعل الفجوة اوسع والمسافة اطول في الكتب التي تتناول التاريخ العسكري بالذات وعلى وجه اخص. وتعود هذه الظاهرة الى اسباب كثيرة ومختلفة.

منها ان هذه الكتب في المعتاد من الاحوال قد كتبها عسكريون لم يتدربوا على مناهج وطرائق واساليب المؤرخين. ومنها ايضا وجود علاقة شخصية وثيقة ومباشرة بين الباحث وموضوع البحث، تبدأ من احترام الاصدقاء وتمتد الى احترام التقاليد. ولكن السبب الاعمق والاقوى والاهم، يعود الى الموقف الفكري والاطار العقلي والوضع الثقافي. لان العسكري، مثلا، بمنطق تكوينه وحكم تدريبه، يلتزم التزاما مطلقا بالشعار القائل:

«وطني على حق دائما، ظالما او مظلوما». ويتخذ هذا النزوع المسلكي المتأصل الى الولاء الاساسي الراسخ، اشكالاً عديدة وصوراً مختلفة. منها الولاء للوطن، او الولاء للوحدة العسكرية التي ارتبط بها وانتسب لها، او الولاء للزملاء والمقاتلين ورفاق السلاح. ومثل هذا الولاء، كائنا ماكان، يعتبر وجوده مفتاحا ضروريا ولولبا طبيعيا ومحركا اساسيا في الشخصية

العسكرية. ولكن طبيعة هذا الولاء نفسه، تزيد من الصعوبات والمشاكل التي يعانيها العسكري، والعوائق والعراقيل التي يواجهها، اذا ترك السيف وامسك بالقلم، وانتقل من دنيا العمل الى دنيا الفكر، ومن عالم الممارسة الى عالم الدراسة، ومن ميدان التدريب الى ميدان التأليف، واراد ان يستبدل الولاء المطلق للمؤسسة بالولاء الاوحد للحقيقة، واختار ان يكون مؤرخا متخصصا بدلا من ان يكون عسكريا محترفا. وليس من المحتمل او المتوقع على الاطلاق ان يتمكن المؤرخ بالفعل من الوصول الى الحقيقة التامة الكاملة، حتى لو تحلى بأقصى درجة من درجات الموضوعية المتجردة الصارمة. ولكن الاحتمال يكون اعلى واقوى ان يستطيع المؤرخ من الاقتراب اقترابا شديدا فائقا من الحقيقة، الحقيقة النسبية التقريبية بالقدرة الانسانية المتواضعة، وليس الحقيقة النهائية المطلقة بالمعجزة الخارقة او القدرة العجيبة، اذا امتلك المؤهلات والخصائص والوسائل التي تتطلبها مهنته، واحترم وظائفها وضوابطها وحدودها وطرائقها ومناهجها. ومن المستحيل للمؤرخ الحقيقي الذي يحترم نفسه ومهنته ورسالته، ان يقدم اقتراحا من نوع الاقتراح الذي سمعناه من بعض العسكريين البريطانيين البارزين الذين شاركوا في الحرب العالمية الاولى. وكان ذلك الاقتراح يقضي بالتغاضي عن بغض الوقائع والمعارك في تلك الحرب، ومواجهتها بالصمت والكتمان والتجاهل، لان المصلحة العامة قد تستوجب احيانا اسدال ستار كثيف من التناسي او النسيان على الجوانب والمواقف والصفحات غير المستساغة او غير المريحة او غير السارة، انطلاقا من القناعة الراسخة القائلة: «ليس كل مايعلم يقال، ولا فائدة من كشف حقيقة قد تضر وتقلق وتزعج وتؤلم وتحزن وتجرح وتؤذي». ومع ذلك، فأن هؤلاء الضباط كانوا رجالاً شرفاء، لايتطرق الشك ابدا الى وطنيتهم ونزاهتهم واستقامتهم وامانتهم. ومن المؤكد انهم اقترحوا مااقترحوه في حينه، دون وعي او شعور او ادراك بأنهم يرتكبون اثما ليس فقط ضد مصالح مستقبل

وطنهم، بل ايضا ضد الحقيقة التي هي القاعدة الاساسية الضرورية للشرف. ولعل اوضح الامثلة عن اسوأ النتائج في مثل هذه الحالات، نجدها في الجنرال (ادموندس) الذي كان مسؤولاً في يوم من الايام حينذاك عن التاريخ البريطاني العسكري الرسمي للحرب العالمية الاولى.

لقد كان الجنرال (ادموندس) باحثا قديرا، عليما بالخلفيات والتفاصيل والدقائق، ضليعا بأساليب الاستقراء والاستقصاء والاستجلاء. وكان مؤهلا من جميع النواحي للقيام بالمهمة التي انيطت به واوكلت اليه، على اكمل وجه وافضل صورة. وكثيرا ماصرح في السنوات الاولى من قيامه بالعمل وتنفيذه للواجب، انه لايستطيع كشف حقيقة مؤذية او مضرة في تاريخ رسمي للحرب. وبرر نهجه بالولاء للجيش، مقرونا بالوفاء للزملاء القدماء واصدقاء العمر ورفاق السلاح من الجنرالات. ومع ذلك، اراد ورغب ان يطلع المؤرخين الاخرين على الحقيقة بصفة شخصية وبطريقة فردية. وقد نفذ بالفعل ماأراده ورغبه. ولكنه، مع مرور الوقت وانقضاء الزمن وتقدمه في السن، بدأ يقنع نفسه تدريجيا بالايحاء الذاتي، حتى اعتقد اعتقادا قاطعا ان الطبقة الخارجية والقشرة الرقيقة التي وضعها على الحقيقة انما هي الحقيقة نفسها وفي حد ذاتها، وان الغطاء او الطلاء الذي استخدمه للحماية من الاذى المفترض والضرر المزعوم، وللتغطية على الواقع كما كان وكما حدث بالفعل في حينه، لايمثل خيارا ذاتيا او موقفا عاطفياً، بل يمثل موقفا موضوعيا وخيارا عقلانيا، ويدل على الواقع الحقيقي الصحيح الوحيد الذي حفظه التاريخ وعرفه الانسان. وقد ادى مثل هذا السلوك او التصرف الى اوخم العواقب واسوأ النتائج وافدح الاضرار من النواحي العملية والتطبيقية والاستراتيجية. لانه اصبح عقبة كأداء مميتة، فوّتت على بريطانيا فرصة استيعاب الدروس الواضحة المستفادة من الحرب العالمية الاولى، وحرمت الجيل التالي من العسكريين البريطانيين حرماناً مخيفاً مرعباً من امكانية توظيفها واستثمارها في الحرب العالمية الثانية. وينبغي

على المؤرخين الذين واتتهم الفرص وساعدتهم الظروف للابتعاد عن الارتباطات والالتزامات للمؤسسات الحكومية والدوائر الرسمية، ان يشكروا الاقدار على بقائهم احرارا، وان يعتبروا انفسهم من المحظوظين، بدلا من شعورهم بالفخر والكبرياء، متوهمين انهم، دون سواهم، مفطورون بنوع من التفوق الشخصي والامتياز الذاتي على الامانة والنزاهة والاستقامة.

ومن المحتمل ان الوصول الى الحقيقة المطلقة الكاملة ليس ممكنا. ومن المؤكد ان الانسان يستطيع ان يقاربها ويدانيها ما وسعه وما امكنه، اذا بحث عنها بروح علمية خالصة، وحلل الوقائع بتجرد تام من جميع اشكال وانواع الولاء، ماعدا الولاء للحقيقة نفسها. وينطوي هذا الموقف، على الاستعداد الدائم للتخلي عن الافتراضات المسبقة، والقناعات المحببة العزيزة احيانا على النفس، في ضوء ماتحققه الابحاث والدراسات من نتائج وقرائن، وما تكشفه من وقائع وحقائق، وماتثبته او تنفيه من مفاهيم وتصورات. ولا اعرف ميدانا للبحث كان طلب الحقيقة فيه صعبا، اصعب من ميدان التاريخ العسكري. وقد تميّز هذا الميدان اكثر من سواه من ميادين التاريخ، بأخفاء الوقائع وحجب المعلومات. ولكنه فاقها بميزة اخرى مختلفة بالنوعية وليس فقط بالدرجة، وهي ان الحاجة الى المعرفة الفنية الدقيقة كانت اشد واوجب في هذا الميدان بالذات. مما حصره تقريبا في العسكريين المحترفين، وجعله احيانا وقفا عليهم وحكرا لهم. ولكن هؤلاء العسكريين المحترفين انفسهم، وان امتلكوا الخبرة والتجربة في الشؤون التعبوية والفنية والمسلكية التي تمسهم وتخصهم، الا انهم لم يتدربوا على المناهج والاساليب والطرائق التي يحتاجها المؤرخون وتعتمدها الدراسات والابحاث التاريخية. وتلك هي مشكلة واحدة. وهناك مشكلة اخرى، تقلق العسكريين، وتؤرقهم، وتثير هواجسهم، وتقض مضاجعهم. وهي انهم يخشون ان الكشف عن اخطاء جنرالات الامس قد يزعزع دعائم واركان الثقة في اوساط العسكريين الشبا ب والضباط من

ذوي الرتب الاصغر بجنرالات اليوم والغد. ولكن ادراك دورة الاخطاء الشائعة المألوفة التي تكرر القيادات والجيوش ارتكابها مرة بعد اخرى، والتي يتألف منها ويزدحم بها التاريخ العسكري، قد يدفع بالانسان الى التفكير ان الامل الوحيد المتبقي للخروج من المأزق، والوصول الى بر الخلاص وساحل الامان، ينحصر في دراسة وقائع الماضي، القريب والبعيد، في الوطن والعالم، دراسة نقدية وتحليلية واستقرائية ومقارنة، بأعلى درجة من درجات الصراحة، وفي مواجهة حقائق الوضع الراهن بأقصى مايمكن ويسع الانسان من الامانة والنزاهة والاستقامة والموضوعية.

ونحن، مع ادراكنا الواضح للحقائق التي اشرنا لها وتحدثنا عنها، واعترافنا بها واصرارنا عليها، لانزال قادرين، مع ذلك، على تفهم هواجس ومخاوف وتحفظات العسكريين من نتائج الكشف عن الاخطاء، دون روّية ولابصيرة، وبطريقة غير مدروسة ولامحسوبة، والتعاطف معها، والتقرّب منها. لان الايمان مهم للمعنويات في الصراع المباشر والمدى القصير والاجل القريب، وبالاخص في اوقات الضيق والويل والعسر والشدة، كما جربّت بريطانيا عندما كانت تقاتل المانيا بمفردها ولوحدها، في المرحلة الاولى من الحرب العالمية الثانية، بعد انسحابها من (دنكرك)، وصمودها الرائع وصبرها الجميل ونفسها الطويل في الوطن والكومنويلث، حتى تبدلت الموازين، واختلفت الظروف، وانجلت السحب الداكنة والغيوم السوداء. ولكن الحقيقة تبقى الزم وانفع واجدى واخطر واولى بالاعتبار من الايمان، في المدى البعيد والاجل الطويل والمنظور التاريخي والمستوى الاستراتيجي، وبالاخص في المركز القيادي الذي يرسم الخطط ويوجه المقاليد ويتخذ القرارات. وتلك هي الحقيقة الصعبة العسيرة الممتنعة التي لايستطيع الانسان ان يكتشفها ويدركها ويتعلمها الا اذا سبر الاغوار، وارتاد المجاهل، وغاص بعيدا في اعماق وغياهب التاريخ، بحثا عن السوابق والدروس والعبر.

الفصـــل الثانـــي

الحكومة والحريـــة

١ . السلطة العمياء:

كل أنسان يرتكب بعض الحماقات احياناً. ولكن العقلاء من البشر يدركون انهم قد ارتكبوا حماقة عندما يرتكبونها بالفعل. ولعل اعظم خطأ يمكن ان يرتكبه اي انسان، يرتكبه عندما يتوهم انه معصوم من الخطأ. وكان الفشل في ادراك هذه الحقيقة سببا من ابرز واهم اسباب البلايا والويلات التي اصابت بعض انظمة الحكم ودول العالم في ظروف تاريخية معينة. ويخطر على بالي الان عدد كبير من الامثلة والنماذج. ولكنني سأختار واحداً منها بالذات، يعود الى الحرب العالمية الاولى. فعندما وصلت تقارير الى باريس تتحدث عن حالة الاهمال التي اصابت دفاعات (فردون)، طلب رسمياً من الماريشال (جوفر) ان يقدم تأكيداً انه سيقوم بتحسينها وترصينها. وجاء جوابه غاضباً منفعلاً. فأنكر وجود اي سبب يدعو للقلق، وطالب بكشف اسماء الاشخاص الذين تجرأوا على الايحاء بخلاف ذلك. وأفاد مايلي بالحرف الواحد: «انني قطعاً لايمكن ان اكون شريكاً في تقارير يكتبها عسكريون يعملون تحت قيادتي، ويرسلونها الى الحكومة بطرق غير اصولية، مستخدمين اقنية غير الاقنية الهرمية المتسلسلة، وتنطوي على شكاوي واحتجاجات تتعلق بتنفيذ اوامري. ان مثل هذا التصرف يخل اخلالاً مريعاً بروح الضبط والربط في الجيش».

ويستحق هذا الجواب ان يوضع في اطار ذهبي، وان يعلق في مكان بارز على حائط كل غرفة او دائرة او مؤسسة تحتلها وتنخرها فئة بيروقراطية على امتداد هذا العالم الواسع الفسيح، ليكون عظة وعبرة وامثولة للجميع. اذ لم يمض شهران على اعلان (جوفر) عن عقيدته في العصمة، حتى تهاوت تلك العقيدة مثل بالون كبير منفوش وخزته ابرة. وكانت المحصلة الوحيدة للعصمة المزعومة ان جيشه قد تعرض الى اصعب واخطر الامتحانات، واقسى وأمر النتائج، واسوأ وافدح الخسائر. وقد حدث في هذا المثال، مايحدث في كثير من الاحيان في مثل هذه الاحوال. فأستغرق انزال العقاب وقتاً طويلاً، وأصاب في النهاية طرفاً بريئاً. وكان الشخص الذي نبه الى خطورة الاهمال، وحذر من مغبة التجاهل، من اول ضحايا ذلك التجاهل والاهمال. بينما كسب (جوفر) أكاليل الغار، لفترة من الزمن على الاقل، بفضل التضحيات البطولية التي قدمها الجنود والضباط، والتي انقذت الجيش الفرنسي من كارثة محققة شاملة.

ويبدو ان ادعاء العصمة هي الصفة الغريزية المميزة في كل سلطة اغراها الغرور واعماها التعصب وافسدها وهم الكمال. ولكن فهم السبب لايعني التقليل من حجم الضرر الذي احدثه هذا الادعاء في كل ميدان من ميادين الحياة. وقد تعلمنا من التاريخ، ان المنتقدين للسلطة كانوا دائما يتعرضون الى التوبيخ العنيف من الطرف الذي يدعي انه الحق المطلق المعصوم، هذا ان لم يصبهم مصير اسوأ. ولكن التاريخ قد برر انتقادات اولئك المنتقدين، عاجلاً ام آجلاً، مرة بعد اخرى. ولعل امثلة شعبية من نوع (السلطان دائما على حق)، و (اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب)، و (ليس كل مايعلم يقال)، تنطوي على حكمة بليغة، ابلغ كثيرا مما قد يبدو من الوهلة الاولى. لان جميع «الحكومات» من هذا النوع تميل الى خرق مقاييس الحقيقة والحشمة واللياقة، بدرجة او بأخرى، في بعض او جميع الاحيان. فهذه الخصلة توجد في صميم طبيعة تكوينها وفي صلب طريقة عملها، ولايمكنها ان تستبعدها او تتفاداها. ومن

هنا كان من واجب المواطن الصالح الذي لم تكبله قيود المسؤولية الرسمية، ان يكون حارساً ساهراً ومراقباً حريصاً على عمل مثل هذه الحكومة، لئلا تعمل بالضد من الاهداف الاساسية التي وجدت اصلاً لتنفيذها وتحقيقها(*). وقد تكون الحدود والضوابط والانظمة والتعليمات والقوانين، التي امتدت الى كل جانب من جوانب الحياة العصرية والدولة الحديثة، من القيود الخانقة والاوزار الثقيلة. ولكنها من الضرورات القصوى والشروط الواجبة للاستقرار والامن والعدل والرخاء والتقدم. وهي، لهذا السبب ان لم يكن لسبب اخر، تقتضي وتستدعي وتستلزم المراقبة الدقيقة والمتابعة الدائمة والمراجعة الدورية.

٢ . ضوابط الديمقراطية :

نتعلم من التاريخ ان الانظمة الديمقراطية، (يقصد الدول الديمقراطية الغربية، ويعني الانظمة الليبرالية البرلمانية، وربما بريطانيا بالذات - المعرِّب)، قد راهنت رهانها التاريخي الاعظم على الانماط والقوالب والاتجاهات التقليدية المألوفة الشائعة. وتميل هذه الانظمة بطبيعتها الى السابحين مع التيار، والقانعين من الحياة بالشعار القائل (ليس في الامكان ابدع مما كان)، وتنظر شزراً الى محاولات الاخلال بقواعد اللعبة واصول (التآمر المشترك للافتقار المتبادل الى الكفاءة). وتؤدي مثل هذه الانظمة الى انتصار السطحية او الضحالة ورواجها واستفحالها وغلبتها. كما انها تقوم

(*) انطلق المؤلف في هذه الملاحظات، بالطبع، من تجارب تاريخية بريطانية معينة وبعض الامثلة الاوربية المعروفة. ولكنه لو كان حياً الان، على حد معرفتي به ومتابعتي له، لما احتاج الى مثال اوضح وابرز وادل على المعنى المقصود، من نظام خميني في ايران، وبالاخص في الجوانب الاساسية التي تتعلق بالغرور المتعصب والكمال المعصوم والحق المطلق والاستبداد الصارخ - المعرِّب.

بالضرورة على حجب وعزل واستبعاد العقول الذكية والمواهب المبدعة والعبقريات المشهودة، وبالاخص اذا اقترنت هذه العقول والمواهب والعبقريات بالامانة والاستقامة والنزاهة والشجاعة. من الواضح اذن ان النظام الديمقراطي يؤدي كما رأينا الى انتصار السطحية والضحالة. ولكن البديل التاريخي، اي النظام الاستبدادي، يؤدي بالضرورة المحتومة تقريباً الى انتصار السخافة والجهالة. ومن هنا، وفي ضوء ماتقدم، ربما كان النظام الديمقراطي، في نطاق الوضع السائد والواقع القائم، أهون الشرين واخف الضررين واسلم الخيارين. (مال المؤلف الى تفضيل هذا الخيار انطلاقا من واقعه، انسانا وزماناً ومكاناً، بأعتباره اوربياً غربياً بوجه عام، وبأعتباره مواطناً بريطانياً في المقام الاول وبوجه اخص - المعرِّب). ومن الافضل اذن للكفاءة او الموهبة ان تسلم بهذا الواقع المفروض وان تقدم على التضحية الضرورية طوعاً، بالخضوع اختياراً للنظام القائم على السطحية والضحالة، على الرغم من سلبياته وامراضه ومفاسده، بدلاً من المساعدة على تأسيس نظام ثبت، في ضوء تجارب الماضي ودروس التاريخ، انه سيؤدي الى تغليب السخافة الفجة والجهالة الفظة. وفي مثل هذا الوضع، اذا قام ورسخ، ستضطر الكفاءة او الموهبة الى التنازل عن عزة النفس وكرامة الانسان للاحتفاظ بوجودها والقيام بدورها. وحينذاك، سيكون الكابوس رهيباً، والحمل ثقيلاً، والثمن باهظاً، والضرر فادحاً، بمقاييس حرية الفكر وحرمة العقل وحقيقة العلم وسيادة القانون ونهضة المجتمع وفاعلية التقدم.

٣ . سياسة القوة في دولة ديمقراطية :

اصبح الفهم السائد حاليا للدور الذي تلعبه موازين وحسابات القوة في العلاقات بين الامم، افضل واوسع واوضح في الظروف الراهنة، التي تتسم بواقعية واعية حكيمة دقيقة صارمة، مما كان عليه في فترات سابقة

اتسمت بمثالية مشوشة مغشوشة طموحة جموحة، متفائلة الى حد الحماقة والبساطة والغفلة والسذاجة. وقد شاع وذاع استعمال مصطلح (سياسة القوة) حتى اصبح الان تعبيرا عن الاعتراف الصريح بالواقع المشهود على الصعيد الخارجي والمستوى الدولي. ولكن الغموض مابرح يكتنف مفهوم القوة بمعنى السلطة على الصعيد الداخلي والمستوى الوطني. ولايزال جمهور المواطنين (في الدول الديمقراطية الغربية ـ المعرِّب) يتلمس طريقه في ظلام دامس كثيف مطبق منٍ الخلط والالتباس والتشويش، محاولاً اكتشاف الايدي التي تمسك فعلاً بمقاليد السلطة الحقيقية ومفاتيح القوة الواقعية، وطبيعة الاساليب والوسائل التي تنتهجها وتستخدمها في الممارسة العملية، بعيداً عن الشكليات والمظاهر والقشور والاغطية.

ومن خصائص النظام الديمقراطي ان يعهد بالسلطة الى لجان. وهذه اللجان هي الهياكل البنيوية والاسس التنظيمية للحياة السياسية على جميع المستويات، من ادنى المجالس المحلية الى اعلى اللجان الحكومية. ولكن عملية صنع القرارات في صورتها الواقعية الحقيقية، تختلف اختلافاً جذرياً، وربما حاسماً احياناً، عن صورتها الدستورية النظرية. وفضلاً عن ذلك، فأن طريقة صنع القرارات تتأثر تأثراً ضعيفاً او قوياً، قليلاً او كثيراً، بعوامل لاتتعلق بالمباديء ولاتأخذها النظريات بالحسبان الا في اضيق الحدود واقل الدرجات. وفي الاغلب الاعم من الامثلة والحالات، يكون تأثير هذه العوامل اساسياً مصيرياً حاسماً قاطعاً، وان لم يكن مرئياً واضحاً ظاهراً محسوساً. ونلاحظ ان معظم اللجان تحاول ان لاتعقد اجتماعاتها في ساعة متأخرة من ساعات الظهيرة، بل تفضل على الاغلب ان تعقدها في اوقات الصباح. ولكن الانواع غير الرسمية من اللجان تميل الى عقد اجتماعاتها في مواعيد العشاء لانها توفر الفرص المريحة التي تلائمها والاجواء الاجتماعية التي تناسبها. ويبدو ان اللجان غير الرسمية اقوى حضورا واكثر نفوذا واشد تأثيرا من اللجان الرسمية.

وفي المعتاد من الاحوال، تتألف اللجنة غير الرسمية من عدد قليل

محدود من الاعضاء. ويتناسب نفوذها طردياً مع حجمها. فكلما كان حجمها اصغر وعدد اعضائها اقل، كلما كان نفوذها اقوى وأوسع وتأثيرها اشد واعظم.

ومن المؤكد ان لجنة غير رسمية، صغيرة الحجم، قليلة العدد، تتألف من عضوين او ثلاثة فقط، وتعقد اجتماعاتها الخاصة بطلب من عضو يتمتع بمركز قيادي ونفوذ قوي وصوت مسموع في اللجنة الرسمية الاكبر حجما والاكثر عدداً، والتي ربما تتألف من عشرين او ثلاثين عضوا، قد تكون في كثير من الاحيان اثقل وزناً، واعظم دوراً، واقوى مركزاً ونفوذاً وتأثيراً، من تلك اللجنة الرسمية الاوسع التي تنتمي لها وترتبط بها وتنشط فيها. لان العنصر القيادي الذي قام بتوجيه الدعوات الى نفر قليل معين من الاعضاء، للاجتماع الخاص الذي تعقده هذه اللجنة المصغرة غير الرسمية، يكون من الناحية العملية قد اختار شخصياً عدداً من المستشارين الموثوقين والمقتدرين للاستعانة بهم والمداولة معهم، انطلاقاً من قناعته بأستعدادهم للتعاون، وامتلاكهم للعلم، وتفوقهم في التخطيط والتنفيذ، بالاضافة الى تحليهم بفضائل ومزايا اخرى مثل لطف المعشر وحسن المظهر ونبل المخبر. ومن المحتمل، في مثل هذا الوضع، ان تنجح هذه اللجنة المصغرة غير الرسمية في الوصول الى نتائج واضحة وبدائل مدروسة ومواقف حاسمة يمكن بدورها ان تترجم الى قرارات نهائية او قاطعة او ملزمة في اللجنة المكبَّرة الرسمية.

وتصوّر بعين الخيال، او افترض جدلاً، اجتماعاً يحضره عشرون او ثلاثون شخصاً. فستختلف الحلول المقترحة، وتتعدد الاجتهادات المعلنة، وتتضارب الاراء المطروحة. وسيحتدم الجدل ويزداد الغموض، وربما يتوتر الجو. ومن الممكن حينذاك الحصول على موافقة الاغلبية في التصويت، اذا كان القرار المعروض واضحاً وضوحاً كافياً، ومدعوماً بحجج منطقية ومقنعة (بتسكين القاف وكسر النون) دعماً قوياً، وبالاخص اذا كانت طريقة عرض القرار قد اعدت اعدادا ذكياً بارعاً ماهراً بحرص وأهتمام

وعناية. ولعل المثال الاوضح على هـذا النفوذ الاقـوى الذي ينبعث من «طاولة العشاء» نجده على الاغلب في المستوى الاعلى من مستويات قيادة الدولة وادارة السلطة. واذا اخذنا بريطانيا تحديداً بنظر الاعتبار، امكننا ان نقول انه يمارس على النطاق الاوسع والزخم الاشد في مجلس الوزراء اي الحكومة. وقد لاحظت هذه الظاهرة للمرة الاولى منـذ سنوات عـديدة بعيدة. وكانت الاقـدار قد ربـطتني في حينه بـروابط المعرفـة الشخصية والعلاقة الوثيقة والصداقة الحميمة مع رجلين شغـلا منصب الوزيـر في حكومتين متعاقبتين بنفس الوزارة. ولفت نظري ان الاول لم يتناول طعام العشاء مع رئيس الوزراء الا لماماً، في اوقات قليلة متبـاعدة ومنـاسبات رسمية حاشدة. ولكن الثاني كان يتناول طعام العشاء مع رئيس الوزراء مرتين على الاقل في الاسبوع الواحد. ويتناولانه اما لوحدهما واما بحضور صديق حميم او صديقين مقربين. ثم لاحظت على الفور، في مقارنة عفوية مباشرة، أن الوزارة في عهد الوزير الثاني قد نالت من الحظوة والمساعدة والرعاية مالم تنل عشر معشاره في عهد الوزير الاول. كما لاحظت ايضاً ان الوزير الثاني كان يلعب دوراً بارزاً وهاماً في القرارات التي تتخذها الحكومة حتى لو لم تتعلق بأختصاصات وزارته. وقد تأكدت من مصـداقية هـذه الملاحظات في تجارب متكررة لاحقة، وثبتت صحتها مرة بعد اخـرى.

وللمزيد من الايضاح والتأكيـد، دعوني اروي قصـة واقعية لم تغب عن بالي، ولاشردت من خاطري. لعب (لوردات البحر) من قادة الادميرالية دوراً كبيراً في ولائم العشاء التي كان يقيمها المجتمع الراقي في لندن قبل الحرب العالمية الثانية. وكانت قوة «العشاء» اقوى بكثير من قوة السلاح في حصول وزارة البحرية على حصة الاسد من الاعتمادات المالية المخصصة للدفاع الوطني في الميزانية العامة. الا ان وزارة البحرية كانت اقل نجاحاً من سواها في التصدي للقوة الجوية الالمانية بعد ان نشبت تلك الحرب. ولكن احاديث هؤلاء اللوردات على طاولات العشاء، قبل نشوب تلك الحرب، كانت تفيض بالثقة المطلقة والقناعة الـراسخة بـأن الاساطيـل

البـريطانيـة والعمارات البحـرية تستـطيع ان تقـوم بعملياتهـا في جميـع الظروف، دون ان تتعرض الى اخطار جدية جسيمة من الهجمات الجوية. ولكن ما ان نشبت تلك الحرب، ودقت ساعة الحقيقة المريرة، ودخلت البحرية البريطانية الى التجربة الصعبة، حتى ظهر ان حساب البيـدر لم ينطبق على حساب الحقل، وان احـاديث العشاء شيء وحقـائق الحرب شيء اخر مختلف تماماً. فأضطر هؤلاء السادة الكرام الى تصحيح ارائهم وتعديل خططهم، بعد ان اصيبت القوات البحرية البريـطانية بـأضرار جسيمة وخسائر فادحة في السفن والرجال.

لو نظرنا الى الحكومة في بريطانيا بمنظار النظرية الدستورية، لوجدنا انها المفصل الحاسم في الدولة والعقل المفكر في الامة. ولكن النظرية المكتوبة او الحقيقة الدستورية في واد، والتجربة الحية او الحقيقة الواقعة في واد آخر بعيد بعد السماء عن الارض. لان الحكومة في النهاية هي لجنة كبيرة الى الحد الذي يمنعها من ان تلعب دوراً فاعلاً مركزياً حقيقياً في صنع القرارت وتثبيت المواقف وحسم البدائل. وقد ادى ادراك هذا الواقع الى بذل جهود حثيثة دائبة ترمي الى تقليص حجمها وتكثيف كيـانها للارتفـاع بمستوى ادائها وتحسين قدرتها على القيام بدورها. ولكن معظم هذه الجهود لم تحقق شيئاً مذكوراً او تقدماً ملموساً، وانتهت في اغلب الاحيان الى الاكتفاء بتقليل عدد اعضاءها، بحيث يكون مجموعهم اقرب الى الرقم (٢٠) منه الى الرقم (٣٠). ولم تستطع هذه التخفيضات الثانوية في العدد، بالطبع، ان تؤدي الى حدوث اختلاف جـوهري في الـواقع او تغـيير اساسي في الوضع. فبقي كل شيء على حاله كما كان، يراوح في مكانه، ويدور في حلقة مفرغة ودوامة مغلقـة. لان عمل لجنـة تتألف من عشـرين عضوا لايمكن ان يكون افضل من عمل لجنة تتألف من ثلاثين عضوا. وسواء أكانت اللجنة على هذا النحو او ذاك، فأن عملية صنع القرار ستتأثر دون شك بالاراء التي بلورتهـا لجنة مصغـرة غير رسميـة ولكنها متنفـذة، في اجتماعات غير معلنة عقدتها بمبادرات شخصية. ولعل الاقتراب الاقصى

من الوضع الاصح قد تحقق على يد (لويدجورج) الذي الف (حكـومة حـرب) من خمسة وزراء في سنـة ١٩١٧ تصديـاً للظروف الاستثنائيـة والحساسة الدقيقة والحرجة التي واجهتها بريطانيا حينذاك . وكانت حكومة الحرب هي الحكومة الحقيقية داخل الحكومة الدستورية الرسمية . وقد عاد (تشرتشل) الى العمل بهذا النظام في الحرب العالمية الثانية .

وهناك دائماً «حكومة داخلية» من هذا النـوع. ولكنها في المعتـاد من الاحوال لاتتمتع بوضع دستوري او بوجود رسمي . وربما كان من الادق والافضل ان نصفها بأنها «حكومة شخصية» تقـوم على الـروابط الوديـة الحميمة والعلاقات الوثيقة المباشرة والمقاييس الموضوعية الدقيقـة. وهي كيان رجراج وتكوين متغير. وقد تتألف من وزراء فعليـين في الحكومـة القائمة ، اقتنع رئيس الوزراء بأنه يستطيع ان يثق بهم ويركن اليهم ويعتمد عليهم ، او اعتقد انه يحتاج الى الاستعانة بمشورتهم وحنكتهم وخبرتهم .

ولكنها قد تضم ايضاً رجالاً لايشغلون اياً من المناصب الـوزارية. لان اختيار العناصر التي تقوم عليها وتتألف منها، يعود كلياً الى رئيس الوزراء شخصياً، انطلاقاً من قناعاته ان ارائهم تفيده في قيادة سفينة الامة وادارة سلطة الدولة وان اقتراحاتهم ترفده بالخيارات الصحيحة والحلول الصائبة والخطط السليمة .

ولكن القاعدة الاساسية في شروط العضوية هي الالفة والمودة ودرجة قوة ومتانة العلاقة الشخصية بين العضو وبين رئيس الحكومة .

وفي الاجتماعات الخاصة التي تعقدها هذه الحلقة الصغيرة، تعرض على بساط البحث قضـايا تتعلق بـالسياسـة العليا، ويـدور حوار مغلق ومكتوم ومباشر بين الحاضرين . وفي اغلب الاحيان، تتبلور مسبقاً قرارات يتم الاتفـاق عليها قبـل انعقاد اجتمـاع مجلس الـوزراء بحضـور جميـع الاعضـاء. وحينذاك، تقتصـر مهمة مجلس الـوزراء، بالنتيجـة العملية والمحصلة النهائية، على وظيفة شكلية هي الموافقـة الرسميـة والمصادقـة

القانونية. ومن المحتمل ان هذه الطريقة قد تبدو وكأنها طريقة غير دستورية. الا انها طريقة صحيحة، لاخوف منها ولاغبار عليها، طالما كان رئيس الوزراء يعرض اقتراحاته ويناقش قراراته مع الاعضاء الاخرين في حكومته، في وقت لاحق وفي كل مرة على حدة، في اجتماع من اجتماعاتهم الرسمية، فيقنعهم بموقفه ويكسبهم الى جانبه. ونادراً مايجد رئيس الوزراء صعوبة في تنفيذ مثل هذه الخطة. ويعود السبب الى نفوذه المعنوي وتأثيره الطبيعي على الوزراء الاخرين بأعتباره رئيساً للحكومة. كما يعود ايضاً الى تمتعه بميزة اخرى هي انه يدخل الى الاجتماع بالاستعداد المسبق للاحتمالات المختلفة، والترتيب المنسق والمدروس للافكار التي سيناقشها، والاقتراحات التي سيعرضها، والحجج التي سيسوقها. ولكن مركزه الرسمي ليس كافياً لوحده. فكلما كانت شخصيته اقوى وقدرته على الاقناع اعظم، كلما كان من الاسهل عليه ان يمرر مقترحاته تمريراً رتيباً هادئاً مضموناً دون عائق او توتر او اضطراب. واذا توقع ان يواجه موقفا صعباً، فأنه يستطيع في اغلب الاحيان ان يستبقه بعقد محادثات تمهيدية شخصية مع ابرز واهم واقوى زملاءه في الفريق الحاكم الذي يترأسه ويقوده. وفي معظم الحالات، يستطيع ان يتوقع الحصول على موافقة الشطر الاكبر من الوزراء على الموقف الذي يتخذه والقرار الذي يقترحه. وليس من المحتمل ان يتعرض رئيس للوزراء الى مايمنعه من تحقيق هدفه، ولا ان يواجه معارضة حقيقية ذات مغزى، اذا كان قد دخل الى الاجتماع الرسمي للحكومة، وقد استقر رأيه وعقد عزمه وأتخذ قراره واعد للامر عدته تسبيباً وتخطيطاً وتنفيذاً. وليس في هذه الخطوات والاساليب والظروف التي وصفناها وعرضناها ودرسناها، مايشين او يعيب، او مايعتبر شذوذاً عن الصواب او خروجاً على القانون. ولكن الحلقات الاساسية الاهم في هذه السلسلة المترابطة من العلل والمعلولات، وبالاخص من الناحية الواقعية، هي المراحل الاولى والبدايات المبكرة التي رأيناها في تكوين ماأسميناه (الحكومة الداخلية) كما تقدم. ونعني الدوافع

والاسباب والقناعات والمبادىء والاهداف التي دفعت رئيس الوزراء الى اتخاذ المواقف التي اتخذها، وانتهاج السياسات التي انتهجها، وأقتراح القرارات التي اقترحها. وتلك هي اهمية الدور الذي تلعبه تلك الحلقة الصغيرة من المستشارين المقربين الذين اختارهم رئيس الوزراء واعتاد ان يناقش معهم الشؤون العامة، وان يستمد منهم الحلول المتصورة والخطط المقترحة والافكار الجديدة. لان هؤلاء المستشارين، ومعهم رئيس الوزراء، هم المخططون الفعليون للسياسة، والصانعون الحقيقيون للقرار. وتتأثر القرارات الى حد كبير بالمستشارين. ولكنهم يلعبون دورا معقدا متنوع المسالك، ومتعدد الاطراف. فنراهم، من جهة، يزودون رئيس الوزراء بالنصائح والمشورات. ولكنهم من جهة ثانية، يقدمون خدمات اخرى تتعلق بالحصول على المعلومات والتفاصيل والاطلاع على الحقائق والاوضاع. ثم أنهم، من جهة ثالثة، قد يكلفون بواجبات معينة ترتبط بالعلاقات العامة والاتصالات غير الرسمية. ومن هنا، قد يستعين بهم رئيس الوزراء في القيام بأستطلاعات مكتومة على الطبيعة للاوساط والشرائح والتجمعات، تبقيه على تماس وثيق وعلم دقيق بأفكارها ونواياها ومطالبها ومواقفها المتصورة وردود افعالها المتوقعة. وقد يعهد اليهم ويطلب منهم القيام بمهمات حساسة غير معلنة في الداخل او الخارج، جساً للنبض، واستكشافاً للواقع، وتمهيداً للشروع بعمل، قبل القيام بأي اتصال رسمي مكشوف ومباشر. ويمكن للباحث ان يتلمس ظاهرة مماثلة من هذا النوع، في كافة الوزارات والدوائر التابعة للدولة، وبالاخص تلك التي تنحصر سلطاتها من الناحية الشكلية الرسمية في المجالس التي تدير اعمالها وتقرر شؤونها. وعلى هذا النحو، كانت القضايا الاساسية الكبرى التي عرضت على مجلس الاسطول او مجلس الجيش او مجلس الطيران، قد حسمت في الواقع مسبقاً بالمحادثات الشخصية المباشرة التي دارت بين الوزير المختص وبين قادة وأركان السلاح المعني او بينه وبين الوكيل الدائم في وزارته. ولكن حيثما كان الوزير المختص رجلاً قوي الشخصية يتمتع

بالاستقلالية العقلية والمبادرة العملية، كان اميل الى تخطيط سياسة وزارته بمساعدة مستشار مقرب او مستشارين اثنين، انطلاقا من ثقته انه سيحصل على الاراء والمقترحات والبدائل الموضوعية الامينة النزيهة البعيدة عن الاعتبارات الضيقة والمصالح الصغيرة والروابط الشخصية. وليس الوضع مختلفاً في عالم الاقتصاد والمال. ومن هنا، مثلاً، لايوجد مايدعونا الى الاستغراب، اذا رأينا ان مدير الشركة يتأثر بشخص او شخصين، اكثر من تأثره بالعقل الجمعي المشترك الشامل الذي يضم اعضاء مجلس الادارة ومدراء الاقسام والدوائر والفروع. قد يقوم مجلس الادارة بتعديل او تصديق مايعرض عليه ويناقش فيه. ولكنه، بطبيعة تكوينه وطريقة عمله، لايستطيع، ولايمكن، ان يكون صانعاً للقرارات المتبلورة، او مصدراً للخطط المدروسة.

٤ . رجال وراء الكواليس:

من ابرز واوضح الظاهرات التي لاحظناها، ان المستشارين المقربين من رئيس وزراء، او رئيس جمهورية، او حتى رئيس دائرة او مصلحة او مؤسسة، لايعرفهم الجمهور بهذه الصفة الا نادراً، على الرغم من ان الاوساط الرسمية المسؤولة العليا في الدولة قد تستشف نفوذهم او تناقشه او تنتقده. لانهم لايتحركون في دائرة الضوء، ولايسعون الى كسب الشعبية، ولايعملون في وظيفة رسمية معينة، ولايقومون بمهمة معلنة محددة. واذا عرفت هويتهم وانكشفت صفتهم، وأصبحت حديثاً رائجاً يتناقله الجميع ويتداوله الخاص والعام، فلربما عاد هذا الوضع، في اغلب الاحيان، بالسوء والضرر على ادائهم للواجب المناط بهم وقيامهم بالعمل المطلوب منهم. لان نفوذهم قد يؤدي الى تأجيج عوامل الحسد وهواجس الشك في دوائر واسعة واوساط عديدة. ولاتنطبق هذه القاعدة فقط على المستشارين المجندين من خارج الحكومة، والمنتمين الى مواقع اخرى غير

تلك التي جندتهم. ولكنها تنطبق ايضاً، وبدرجة اعلى وفاعلية اشد، حتى على المستشارين الذين يشغلون المناصب الوزارية، او الوظائف الادارية في المستوى الادنى من الخط الثاني او الثالث للتدرج الوظيفي والتسلسل الاداري. واعود الى ذاكرتي التي اختزنت الوقائع والحقائق، وأستشهد ببعض الامثلة من التاريخ الذي عاصرته عن قرب وراقبته عن كثب.

قبيل الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ـ١٩١٨)، وفي المراحل الاولى من فصولها الدامية، كان (اللورد ايشر) واحداً من اوسع المستشارين نفوذاً واقواهم تأثيراً. ولم يشغل منصباً رسميا رفيعاً على الاطلاق. ولكنه حاز قصب السبق في عدد الوظائف التي اعتذر عن قبولها، بما فيها منصب وزير الحربية ومنصب نائب الملك في الهند. وقد استمد القسط الاوفر والشطر الاعظم من نفوذه وراء الكواليس من الثقة العالية التي نالها لدى الملك ادوارد السابع والملك جورج الخامس على التوالي، فضلاً عن الوزراء البارزين. وكان (ج. أ. سبندر)، رئيس تحرير الجريدة اليومية الواسعة الانتشار في حينه (الويستمنستر غازيت)، واحداً من ابرز الشخصيات المتنفذة وراء الكواليس في تلك الفترة. وقد لاحظ الكثيرون بأستغراب ان جريدته كانت في معظم الاحيان متخلفة عن سواها في استباق الاحداث وتوقع التطورات. وكان التفسير الوحيد انه كان موضع ثقة رئيس الوزراء، مقرباً منه، محباً له، الى درجة ان علمه المسبق بما سيقع او سيحدث، مع وفائه لصديقه رئيس الوزراء، وحرصه على كتمان السر، قد حرمه من احراز السبق الصحفي ومنعه من القيام بواجب رئيس التحرير من هذه الناحية على الاقل. وفي عهد الحكومة الثانية التي قام بتأليفها حزب العمال البريطاني، كان (اللورد ثومسون) وزير الطيران، يتمتع بتأثير على رئيس الوزراء، (رامزي ماكدونالد)، اكبر بكثير مما يبيحه منصبه الوزاري. وقد امتد هذا النفوذ الى مجالات اوسع من حدود واختصاصات وزارته. وبعد ان قتل ثومسون في كارثة المنطاد (ر١٠١)، اصبح (جون بوكان) مستشاراً مقرباً من رئيس الوزراء رامزي ماكدونالد. وكان حلقة اتصال بين زعيم

حزب العمال (ماكدونالد) وزعيم حزب المحافظين (بالدوين) في عهد الحكومة الائتلافية. وبعد ان اصبح (بالدوين) رئيساً للوزراء مرة اخرى، ظهر ان العلاقة الشخصية او الصداقة الوثيقة بينه وبين المستر (ج. س. س. دافيد سون) قد اصبحت عاملاً هاماً في توجيه سياسة الحكومة. وفي السنتين الاخيرتين من حكومة المستر (بالدوين) اعيرت خدمات (السير هوراس ويلسون) الى وزارة المالية «للعمل بمعية رئيس الوزراء». وكان السير هوراس يشغل منصب المستشار الاقدم للشؤون الصناعية منذ سنة ١٩٣٠. وقد ازداد نفوذه وتوسع تأثيره عندما اصبح المستر (نيفيل تشامبرلين) رئيساً للوزراء في سنة ١٩٣٧. وقد مارس هذا النفوذ في جميع ميادين السياسة، بما في ذلك الشؤون الخارجية. وقد اشتكى الوزراء مراراً وتكراراً من عجزهم عن مقابلة رئيس الوزراء للتداول في قضايا هامة ومن اضطرارهم الى الاستعانة بالسير هوراس ويلسون للحصول على التوجيهات الضرورية او القرارات المطلوبة بهذه الوسيلة. وعندما اصبح المستر (تشرتشل) رئيساً للوزراء في سنة ١٩٤٠، اصبح معلوماً ان المستر (برندان براكن) و (اللورد بيفر بروك) يلعبان دوراً بارزاً ويحتلان مركزاً هاماً في مداولاته واستشاراته. وعند صعوده الى سدة المسؤولية الاولى، كان (تشرتشل) قد استصحب معه البروفسور (ليندمان) ايضاً، الذي اصبح فيما بعد (اللورد جيرويل). وقد اكتسب موقعه الاستشاري وضعاً قانونياً ادارياً بعد صدور بيان رسمي من الحكومة بتعيينه «مساعداً شخصياً» للمستر تشرتشل رئيس الوزراء. وكان الميجر (ديز موند مورتون) مساعداً اخراً من هذا النوع. وعلى الرغم من اقتناع اوساط واسعة وعديدة، اقتناعاً متزايداً، بالفوائد العملية الجمة الناجمة عن الاستعانة بالخبراء المقربين والمستشارين الشخصيين، الا ان بقاء هؤلاء المساعدين والمعاونين وراء الكواليس كان اكثر في بريطانيا منه في الولايات المتحدة الامريكية. وقد اختلفت اوضاع المستشارين في امريكا اختلافاً

كبيراً عن اوضاع اقرانهم في بريطانيا. ففي الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، كان (ادوارد م. هاوس) اكثر بكثير من مجرد كونه الساعد الايمن للرئيس ويلسون، حتى وصف بأنه «النصف الثاني». وعلى الرغم من انه لم يشغل منصباً رسمياً على الاطلاق، الا انه ناب في كثير من الاحيان عن رئيس الولايات المتحدة الامريكية في المؤتمرات التي عقدها الحلفاء فيما بينهم. وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، لعب (هاري هوبكنز)، بأعتباره ممثلاً للرئيس (روزفلت)، دوراً لايقل في اهميته عن الدور الذي لعبه نظيره في الحرب العالمية الاولى. وكان ايضاً اقرب المستشارين الى الرئيس الامريكي، واطولهم عهداً في الاستمرار بالخدمة.

٥ . نابليون مثالاً للاستبداد:

ونتعلم من التاريخ ان الطغاة المستبدين والحكام الديكتاتوريين يتبعون نمطاً نموذجياً معيناً. دعونا نتخذ من نابليون مثالاً محسوساً من التاريخ الحديث للدلالة على العقلية الاستبدادية، وطبيعة تكوينها من الناحية النفسية، وطريقة عملها من الناحية التنفيذية. ومن المفيد في هذا الصدد، توخياً للمزيد من التبسيط والايضاح، ان نراجع مجدداً المراحل التي قطعها والمواقف التي اتخذها في حملته الفرنسية المشؤومة على روسيا القيصرية، ليس للتعرف على مفردات المعارك التي خاضها وتفاصيل العمليات التي خططها وادارها، كما يفعل المؤرخون العسكريون. ولكن للقيام بدورية استطلاعية وجولة استكشافية في العقل النابليوني للتعرف على اسبابه ودوافعه واهدافه واساليبه، استخلاصاً للدروس العملية والنتائج الموضوعية، وهي دراسة منهجية يتولاها احياناً فلاسفة التاريخ. وربما نكون اقرب الى تحقيق هذه الغاية، اذا قمنا بدراسة مذكرات (كولينكورت)، الذي كان ليس فقط قد شارك في الزحف على موسكو، بل كان ايضاً الرفيق الذي اختاره نابليون لمصاحبته في رحلة العودة الى الوطن

بعد ان ترك جيشه البائس الى مصيره الاسود. وكان قيام نابليون بهذه المغامرة الحمقاء، التي اضعفت من هيمنته على اوربا، وعجلت في اسقاط نظامه الجديد، يعود الى سببين اساسيين بارزين. هما مزيج من شعوره المركب بعدم الرضا وعدم الارتياح تجاه موقف روسيا من خططه الرامية الى اخضاع وتركيع انكلترة، بأعتبارها العقبة الوحيدة والاخيرة التي اعترضت طريقة للسيطرة على العالم المعروف حينذاك. وقد اقتنع نابليون ان امتناع القيصر الروسي عن الانضمام الى النظام الجديد الذي فرضته فرنسا على العالم الاوربي بقوة السلاح، سيؤدي لامحالة الى حرمانه من الورقة الوحيدة للضغط على انكلتره بأستفرادها وعزلها وحصارها، وبالتالي اضعاف امتناعها المطلق عن التحول من الخيار العسكري الى الخيار السياسي ورفضها العنيد للانتقال من خانة الحرب الى خانة السلام ومن حالة القتال الى حالة التفاوض. وعلى الرغم من ان نابليون كان قد سمح لنفسه بأدخال بعض التعديلات على هذا النظام الجديد، حيثما اضطرته الظروف، للتخفيف من وطأته على فرنسا. الا انه توقع من حلفائه، فضلاً عن الدول التي كانت تحتلها جيوشه، ان تصبر على المتاعب والمصاعب والعواقب دون تذمر ودون امل. ومن هنا، نقل هذا المنطق غير العقلاني من حيز التصور المتصلب غير المرن الى حيز التنفيذ المتشنج غير الواقعي. فعقد العزم واتخذ القرار بفرض ارادته على روسيا القيصرية بقوة السلاح. وقد صمم وأصر على السير في هذا الطريق مهما كانت العراقيل والنتائج والتكاليف، ضارباً عرض الحائط بنصائح وتحفظات اقرب مستشاريه واكثرهم حنكة وحكمة. وما ان جاء منتصف شهر حزيران من عام ١٨١٢ حتى كان قد حشد جيشاً جراراً، بمقاييس ذلك الزمان، قوامه (٤٥٠) الف رجل، بمحاذاة الحدود الروسية في المنطقة الممتدة من سواحل بحر البلطيق الى مستنقعات (البريبيت). وفي تمام الساعة العاشرة من ليلة ٢٣ حزيران، اقامت كتائب المهندسين سلسلة من جسور القوارب على نهر (النيمن)، وبدأت القوات الفرنسية تحت جنح الظلام في العبور الى المجهول. وقد

ظهر مزاج نابليون واضحاً بقوله الذي سجله (كولينكورت) في مذكراته :
«في اقل من شهرين من الزمان، ستطالب روسيا بالسلام». وتقدم نابليون مع جيوشه حتى وصل الى مدينة (فيلنا). فوجد ان الروسيين قد اخلوها تماماً. «وشعر بالحسرة والمرارة والخيبة لانه لم يدخل معركة كبرى مع القوات الروسية للاستيلاء على هذه المدينة. وصب اللعنات الغاضبة على اعدائه الذين اتهمهم بالجبن والتخاذل». ولكن روسيا كانت تنتهج سياسة الارض المحروقة، والانسحاب بأقل التضحيات، واستدراج القوات الفرنسية للتوغل اكثر فأكثر في العمق الروسي الهائل الذي طالما ابتلع الغزاة والطامعين، بأنتظار توظيف خدمات الجنرال (الشتاء)، واستنزاف العدو وانهاكه وارباكه، وسنوح الفرص وتبدل الموازين. كانت الجغرافيا، ارضاً ومناخاً، عدواً للفرنسيين، وحليفاً للروسيين. وبعد مرور خمسة اسابيع على بداية الحملة، وعلى الرغم من التقدم الواسع والسريع الذي حققته القوات المهاجمة على الارض واختراقها الكثيف للعمق الروسي الى مسافات بعيدة، وجد نابليون ان الاضرار والخسائر التي انزلها بالعدو كانت قليلة، وان جيشه بالمقابل كان قد خسر ثلث عدده على الاقل، وأكثر من تلك النسبة بكثير من اهليته للهجوم وقدرته على القتال. وكما يخبرنا (كولينكورت): «لقد اعتقد نابليون ان معركة ستقع لانه اراد معركة، واعتقد انه سيكسبها لانه شعر بفداحة الضرر الذي سيصيبه لو لم يكسبها، واقنع نفسه بالتالي انه سيكسبها لان كسبها كان ضرورياً في حساباته ضرورة مطلقة». ومن هنا، وفي ضوء ماتقدم، قرر التقدم الى مدينة (سمولنسك). وقد دخلها ليجدها مدينة متفحمة ومهجورة. ولكن نابليون استعاد مجددا شيئا من تفاؤله بالمستقبل وامله في النصر. فأفاد قائلاً: «قبل ان ينتهي شهر واحد من الزمان، سنكون في موسكو. وفي غضون ستة اسابيع سنحصل على السلام». وفي اليوم الرابع عشر من شهر ايلول سنة ١٨١٢، وصل نابليون الى موسكو، فوجد ان الروسيين قد هجروها واخلوها. وفي مساء ذلك اليوم نفسه، شبت حرائق هائلة في

اماكن عديدة من العاصمة الروسية. ولم يمض وقت طويـل حتى تحولت المدنية الى شعلة من النيران التي اكلت والتهمت كل شيء. وكـان قيام الروسيين بأحراق عاصمتهم موسكو بأيديهم طوعاً، قد طرد السكرة من عقل نابليون، وايقظه على الفكرة. فأدرك الحقيقة القاسية في ساعة متأخرة من التاريخ. وحاول جاهداً ان يتعلق بأية فرصة من فرص السلام، حتى ولو كانت قشة. ولكنه، مع ذلك، كان لايزال غير قادر على فهم ماأثاره في قلوب ابناء الشعب الروسي من مرارة وكراهية. ومن هنا، استسلم مرة اخرى الى الامل الزائف والسراب الزائل والوهم الكاذب. فأطال من مدة مكوثه في موسكو المحروقة، متصوراً ان هذه الوسيلة ستغري الروسيين بالاستجابة السريعة، وربما الاسرع، للعروض المتتالية التي كان يقدمها لهم ويمطرها عليهم. ولكن الروسيين لم يفهموه على الـوجه الـذي اراده وبالمعنى الذي توخاه. بل انهم نظروا الى عروضه بأعتبارهـا من القرائن والـدلائل التي تكشف عن وهنـه المتزايـد وضيقه المتصـاعـد. فكـانت حساباتهم صـائبة وتـوقعاتهم صحيحـة. وكانـوا اذكى وأمكر ممـا اعتقد وتصور. وهكذا، وبعد ان احجم طويلاً وتردد كثيراً، اصدر اوامره اخيراً في ٢٥ تشرين الاول بالانسحاب من موسكو والرجوع الى سمولنسك. وبوصوله الى سمولنسك، كان تعداد جيشه قد انخفض الى مالايزيد عن (٥٠) الف رجل. وبعد ان اقترب من مشارف نهر (البـريسينا)، انقـذ الجيش نفسه بأعجوبة من كارثة رهيبة اوشكت ان تودي به وتقضي عليه القضاء المبرم. وما أن استقر في (سموركوني)، حتى قرر نابليون ان يترك جيشه وان يعود مسرعاً الى باريس. وقد اتخذ قراره بالعودة، لانه اراد ان يقوم بتعبئة قوات جديـدة، من جهة، ولانـه ادرك ان وجوده في المـوقع سيكون ضرورياً لاستعادة الثقة عندما تصل انباء النهاية المأساوية للحملة الروسية الى الشعب الفرنسي وعواصم اوربا المحتلة التي كانت تـراقب التطورات عن كثب، من جهة ثانية. وتحدث حديثا طويلاً عريضاً عن عيوب اعوانه ونقائص مستشاريه. ولكن قوله المأثور عن احدهم بالذات، وهو (تاليراند) السياسي الداهية المحنك الاريب، كان سيفاً ذو حدين،

لانه انعكس على شخصه هو نفسه ايضاً. فأفاد: «طالما انك قد اخترت ان تتصرف كما لو كنت وغداً، فليس من حقك على الاطلاق ان تتصرف كما لو كنت احمقاً». ويبدو للمؤرخ المتجرد البعيد عن العاطفة ان نابليون كان وغداً اكثر مما كان بطلاً. ولكنه يبدو للفيلسوف بأنه كان احمقاً اكثر مما كان وغداً. وقد ظهرت حماقته في الطموح الجامح الذي استبد به واستولى عليه. كما ظهرت ايضاً في الهدف المستحيل الذي حلم به وراهن عليه. اما فشله النهائي الذريع، فقد اصبح مؤكدا ومحتوماً بفعل قدرته على ان يخدع نفسه، وان ينظر بالايحاء الذاتي الى الطموحات والاهداف والخطط الخيالية المستحيلة الواهمة كما لو انها هي الخطط الممكنة والمشروعات العملية والحقائق الواقعية القائمة.

وبعد مرور وانقضاء (١٢٩) عاماً بالضبط تقريباً على قيام نابليون بغزو روسيا، بدأ (هتلر) هجومه على الاتحاد السوفيتي في اليوم الثاني والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩٤١. وعلى الرغم من التطور الهائل الذي حققه العلم واحرزه الانسان في الفترة بين هذين الهجومين، اثبت (هتلر) بعمله ان الفيلسوف الالماني (هيجل) كان على صواب بقوله ذات يوم: «ان الحقيقة الوحيدة التي يمكن ان نتعلمها من دروس التاريخ هي ان احداً لم يتعلم شيئاً»(*). وكان (هتلر) قد نسي، وربما تناسى، ماأكتنزته واختزنته الانسانية جمعاء من خلاصة الحكمة وزبدة الحقيقة في العبارة القائلة: «ان الغلطة التاريخية تكون في المرة الاولى مأساة، ولكنها في المرة الثانية تكون مهزلة». فما ابعد المراد، وما اصعب المطلوب، وماشق المقصود، وما اطول الطريق، ولكن ماأضعف الانسان!

(*) راجع الفيلسوف الالماني (هيجل) في كتابه المعنون (فلسفة التاريخ). نقله من الالمانية الى الانكليزية ج. سيبري. طبعة دوفر. نيويورك. سنة ١٩٥٦. ص ٦ من مقدمة المؤلف ـ المعرب.

HEGEL. THE PHILOSOPHY OF HISTORY. TRANSLATED FROM GERMAN INTO ENGLISH BY J. SIBREE. DOVER PUBLICATIONS. NEW YORK. 1956. P.6.

الفصل الثالث

الحرب والسلام



١ . السياسة النفعية القصيرة النظر:

نتعلم من التاريخ ان السياسة النفعية التي اتبعتها بعض الدول احياناً، كانت سياسة غير نافعة في معظم الاحوال. ومع ذلك، واليوم أكثر من اي يوم مضى وانقضى، لايتحدث رجال الحكم وأرباب الحل والعقد في جميع الدول الا بلغة المصلحة، كما لو انهم يخشون اشد الخشية ان تلصق بهم وتوجه لهم تهمة الابتعاد عن الاعتبارات العملية والخطط المجدية، والتمسك بالمبادىء الرفيعة والقيم السامية. وقد ولعوا وشغفوا بالتأكيد المتواصل على الحاجة الضرورية الدائمة الى مايسمونه «الواقعية». ولكن مدلولات الالفاظ ومعاني الكلمات قد اختلطت والتبست وتشوشت. حتى أكاد ان اقول ان المفاهيم قد انقبلت رأساً على عقب، وأختلف باطنها عن ظاهرها، وشكلها عن مضمونها، وقولها عن فعلها، اختلافاً وصل الى حد التناقض المطلق والانفصام المذهل والطلاق النهائي. فأصبحت توحي بأضدادها، او بخلاف المراد لها والمقصود منها، على الاقل وفي احسن الاحوال. فماذا يعنون «بالمصلحة» مثلاً؟ لو كانوا يقصدون مصلحة الامة او الدولة او الحضارة، اي المصلحة الحقيقية العامة الوطنية والانسانية معاً، بالمعنى العريض المفتوح المرن، لوافقناهم دون تردد، وايدناهم دون حرج. ولكن معظمهم في اغلب الاحيان، للاسف، يعني المصلحة

الخاصة، الفئوية او العائلية او الفردية، اي المصلحة الجزئية او المنكمشة او حتى المصلحة المادية المباشرة. وهي مصلحة قصيرة النظر، ضيقة الافق، منقبضة الصدر، ضررها يفوق نفعها ان وجد على الاطلاق، وفسادها ينخر في كيانها بأنتحالها للفضيلة وتظاهرها بالمحبة، وفي كثير من الاحيان تتناهبها وتتجاذبها وتتقاذفها الاحقاد والاطماع والاهواء الشخصية. ثم ماذا يقصدون «بالواقعية»؟ كان من الممكن ان يكون هذا الموقف سليما صائباً، لو كان يعني التعلم من التاريخ بأستقراء وقائعه وتجاربه واستخلاص دروسه وعبره. وليس من الواقعية، على سبيل المثال، ان يتم التقليل والتهوين من قوة وأهمية الدور الواقعي الحقيقي الذي تلعبه المثالية احياناً في التاريخ. ومن غير الواقعية، ايضاً، ان يصار الى تجاهل وأهمال المبادىء والشروط والنتائج العسكرية في صنع القرارات السياسية او منح الوعود الرسمية. كما ان الواقعية الحقيقية الصحيحة تقترن دائماً بالنظر البعيد والتصور الشامل والتخطيط المستقبلي، فتسبق الوضع الراهن والواقع القائم بخطوة او خطوتين الى الامام، تحسباً وحذراً واحتياطاً واستعداداً. ولكن «واقعيتهم»، للاسف مرة ثانية، هي واقعية فاترة خائرة بائرة، لاتصل الى ابعد من أرنبة الانف، ولاتخطط، ان خططت، الا للمدى القريب والاجل القصير، وتتحامل على نفسها من يوم الى يوم، عملاً بالشعار القانع القائل «دع ماكان على حاله كما كان، وليس في الامكان ابدع مما كان». تلك هي الواقعية السلبية التي تراوح في مكانها، أو تتثاقل في سيرها. والحقيقة ان مثل هذه «الواقعية» ليست من الواقعية في شيء على الاطلاق، من الناحية العملية. لانها أحالت «الواقع» الى وثن جديد وصنم معبود وكيان مقدس، ولايجوز المساس به او الانتقاص منه او التصدي له. او، بعبارة اخرى، ان بدايتها هي نهايتها، وأن خطوتها الاولى هي خطوتها الاخيرة. اما من الناحية الفكرية، فأنها تمتعض من التجديد، وتتقزز من الابتكار، وتشمئز من الخروج على المألوف والشائع والسائد والرائج. ولاتشعر بالراحة والطمأنينة والسلامة والسعادة الا مع

التقليد والاجترار وايثار العافية وتفضيل الموافقة.

لو القينا على التاريخ البريطاني في المائة الماضية من الاعوام، نظرة فاحصة، في ضوء ماتقدم، فماذا سنرى؟ سنقف وجهاً لوجه مع امثلة عديدة متكررة من الوقائع والمواقف والتجارب التي تكشف عن المآزق الحرجة والاخطار الرهيبة والكوارث الدامية التي نجمت عن الخلط العشوائي المشوش بين المصالح المادية والاعتبارات الاخلاقية في الشؤون الخارجية. أفما كان من الاجدر بنا والافضل لنا، وللاخرين جميعاً، لو اننا حرصنا على المصالح دون ان نتذرع نفاقا بالاخلاق، او التزمنا بالاخلاق دون تطويعها للمصالح تطويعاً مطاطياً متذبذباً رجراجاً، جرّدها من معناها، وأبعدها عن مضمونها، وأحالها الى حطام من الخرائب وركام الانقاض؟(*)

وكم كانت شؤون العالم واحوال البشر ستكون افضل، لو اننا التزمنا بشيء اكثر قليلاً من الامانة والنزاهة والاستقامة والعقلانية، او لو حاولنا بالفكر المنهجي الواعي المنظم الثاقب ان نتقدم بخطوات قليلة معدودة على الوقائع والاحداث والتطورات، وان ندرك مسبقاً الاخطار والاضرار التي ستنجم عن السكوت على الشر والجور والغدر، والتورط في الظلم والخداع والتضليل.

(*) لعل المؤلف يقصد العبارة المألوفة التي افادها (غلادستون) ذات يوم، وكررها (تشرتشل) من بعده بقوله: «لاتلتزم بريطانيا التزاما دائما بالصداقات او العداوات، بل بالمصالح فقط». وربما اراد ان يقول: ان سياسة فرق تسد قد ثبت بالتجربة مرة بعد اخرى، انها سياسة فرق تخسر. وكأنه يعني ان التقلب العشوائي والخلط المشوش بين المصالح والاخلاق قد ادى ببريطانيا الى فقدانها معا، فضلا عن زوال امبراطوريتها التي كانت لاتغرب الشمس عن ممتلكاتها في يوم من الايام. او، بعبارة اخرى، ان بريطانيا قد خرجت تاريخيا من المولد بلا حمص. فلاهي قد انقذت المصالح، ولاهي قد حفظت الاخلاق. وكما يقول المثل الشعبي الدارج في العراق: «لا هي احتفظت بزوجها، ولاهي تزوجت سيد علي». فوصفت بأنها «مثل غراب البين الذي اضاع المشيتين» ـ المعرب.

دعوني اضرب مثلاً من حياتي الشخصية وتجربتي العلمية عن هذا النوع السلبي السيء من «الواقعية». فمنذ عقود عديدة وطويلة من الزمن، وبالتحديد في الفترة بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وقبيل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، بدأت وزميلي وصديقي الجنرال (فوللر) بنشر سلسلة من الابحاث والدراسات الاستراتيجية. وقد انتقدنا عيوب «الحرب الساكنة» التي كانت هي العقيدة العسكرية السائدة في الحرب العالمية الاولى. وتطرقنا الى التطورات الجديدة والاحتمالات المختلفة التي ترتبط بها وتترتب عليها. واوضحنا ان الحرب القادمة ستكون من نوع «الحرب المتحركة» و «الحرب الخاطفة». وقلنا وكررنا القول، ان الحركة والسرعة والمرونة والمناورة والمباغتة والصدمة والعمليات الاختراقية والالتفافية ستكون من الخصائص الاساسية في تلك الحروب، وان اسراب الطائرات وارتال الدبابات ستلعب الادوار الحاسمة، دون التقليل من اهمية وضرورة كتائب المشاة في مسك الارض، بالاخص اذا كانت ميكانيكية ومحمولة. او، بعبارة وجيزة، عرضنا نظرية متكاملة ومنهجية واضحة وعقيدة بديلة اسميناها «استراتيجية الاقتراب غير المباشر».

فقامت الدنيا ولم تقعد. واطبقت السماء على الارض. وثارت ثائرة العقليات «الواقعية» والاوساط البيروقراطية والدوائر الرسمية في وزارة الحربية. واتهمتنا بجموح الخيال وشذوذ التصور وقصور التحليل، او حتى مايقرب من الكفر على المستوى الاستراتيجي والصعيد العسكري. ولكنها لم تصل في غضبها وانفعالها الى حد حجب الفكر الذي عرضناه عن النشر او منعه من الوصول الى الناس. الا اننا خسرنا «الحظوة» التي كنا نتمتع بها و «المكانة» التي كنا نعول عليها، وتعرضنا الى مايشبه الاستهجان المهني والاستبعاد الرسمي والعزل الصحي، لفترة من الوقت على الاقل. ولكن، مابعد اليوم عن الامس، وماعظم الفرق بين الوضع الراهن على هذا الصعيد والوضع الذي كان قائماً كما واجهناه حينذاك. حقاً ان دوران عجلة الزمان وتطور الانسان ينطويان احياناً على نوع من السلطان الذي

لايرد ولايقهر ولايقاوم. وفي مثل هذه الاحوال، ليس انفع وافعل واصوب من الصبر الجميل والنفس الطويل، والثبات على المبدأ بدلاً من الاستسلام الى «الواقع». ومن دواعي سروري وارتياحي واعتزازي وفخري، ان النظريات التي وصفت في حينه بأنها من «البدع» الباطلة، قد اصبحت الان هي العقائد «التقليدية» المعمول بها والمتفق عليها. وقد اطلع عليها واستجاب لها ونقل عنها الحلفاء والمحوريون معاً في الحرب العالمية الثانية، بما في ذلك بريطانيا نفسها، فضلاً عن المانيا وامريكا وروسيا. كما وضعها في موضع التطبيق قادة عسكريون كبار من مختلف الجيوش والامم والدول. ومن اهمهم وابرزهم، على سبيل المثال لا الحصر، الجنرال (روميل) في الجبهة الافريقية، والجنرال «باتون» في الجبهة الغربية، والجنرال (غودريان) في الجبهة الروسية. ومنذ ذلك الحين، بدأ نجمها في الصعود والارتفاع ونفوذها في الذيوع والانتشار. الا ان الوضع الراهن السائد حاليا قد تدهور الى الاسوأ من ناحية واحدة معينة بالذات على الاقل. ولو حاول مفكر موهوب من الجيل الصاعد الجديد ان ينتقد العقائد السائدة في هذه الايام، وان يأتي بنظريات اخرى بديلة وتصورات مختلفة عن الاحتمالات المستقبلية، فسيجد ان الحصول على الموافقة الرسمية للنشر قد اصبح اصعب اضعافا مضاعفة مما كان في زماننا الفائت القديم.

ولو نظرنا الى العالم الان بعقول واعية وعيون مفتوحة، فسندرك تماماً انه محكوم بشريعة الغاب الى حد كبير. وربما سيبقى كذلك الى وقت طويل قادم في المستقبل المنظور او المجهول. تلك هي الحقيقة الموضوعية الصارمة القاسية المريرة. ولامناص للانسان العاقل الحكيم من معرفتها ومواجهتها. ولكن هذه الحقيقة لاتعني بالضرورة القاهرة ان نكون نحن معشر البشر من الوحوش والهمج والبرابرة. ولاتعني ايضاً، من جهة ثانية، ان نكون بالحتمية المطلقة من السذج والبسطاء والمغفلين. ولكنها تعني ان البقية الباقية والثمالة الاخيرة والبارقة الوحيدة من الامل في تأمين مصير العالم ومستقبل الحضارة هي المزيد من تمسك الانسان بأنسانيته، على

الرغم من «الغابة» وشرائعها وقوانينها واخطارها واهوالها وفواجعها. وتلك هي الحكمة التي خرجت من فم السيد المسيح الذي خاطب المريدين والحواريين قبل الفي عام تقريبا بقوله: «الحق ماأقوله. فأسمعوا وعوا. اني ارسلكم الى كل مكان بين البشر كما لو كنتم قطيعاً من الخراف ارسله بين قطعان من الذئاب. فكونوا حكماء كالثعابين. ولكن كونوا ايضاً وديعين كالحمائم».

٢ . أهمية الوفاء بالوعود:

قام صرح المدنية على قاعدة اخلاقية وعملية صلبة اساسية هي الوفاء بالوعود. وقد لاتبدو هذه الظاهرة كما لو انها كانت انجازاً عظيماً ومكسباً شامخاً. ولكن ما ان تهتز الثقة الشاملة وتتخلخل المصداقية المتبادلة بهذه القاعدة، او يضعف الحرص عليها والالتزام بها، حتى يتصدع هذا الصرح ويتعرض الى الانهيار. وتتوقف كل الجهود الايجابية والعلاقات الانسانية في جميع الميادين والمستويات، الشخصية والسياسية والتجارية، على الوفاء بالوعود، ومدى وثوقنا بها وتصديقنا لها واعتمادنا عليها.

وتنعكس هذه الحقيقة على قضية اساسية من قضايا السياسة العالمية، هي قضية الامن الجماعي المشترك بين الامم والشعوب والدول. كما انها ترتبط بدروس التاريخ في هذا الموضوع بالذات. وفي السنوات التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية، اتهم المنادون بالامن الجماعي، مرة بعد اخرى، بأنهم يجازفون بتعريض العالم الى خطر الحرب، من جراء اصرارهم العنيد على احترام المواثيق والالتزام بالمعاهدات والوفاء بالوعود. وربما كان هؤلاء من الحمقى، بسبب اهمالهم للشروط الضرورية التي كان ينبغي التأكد من توفرها مسبقاً، امتلاكاً للقدرة على التنفيذ المؤثر والفعال للالتزامات التي اخذوها على عاتقهم والوعود التي قطعوها للاخرين. ولكنهم، على الاقل، قد اظهروا انفسهم بأنهم من الرجال الاحرار الذين

يحترمون كلمة الشرف، اذا قالوا فعلوا، واذا وعدوا وفوا. وقد ثبت، في المدى التاريخي الطويل، ان منطقهم كان اسلم كثيرا من منطق الداعين الى التغاضي وترك حرية العمل للمعتدين طالما تركونا وشأننا، ولم يعتدوا علينا او يتحرشوا او يتعرضوا لنا بالسوء والاذى والضرر. وقد اثبت التاريخ، مراراً وتكراراً، ان شراء السلامة وايثار الراحة واستجداء العافية بهذه الطريقة كان املاً باهتاً خائباً، بل كان وهماً من اعظم الاوهام.

٣ . اهمية الحرص والتدقيق في اعطاء الوعود:

ليس من الاخلاقية في شيء على الاطلاق، ان توزع، ذات اليمين وذات الشمال، سيولاً من الوعود التي لاتتوقف ولاتنقطع ولاتنتهي، والتي لايمكنك ان تنفذها. ومن هنا، وفي ضوء هذا المبدأ، اتخذت في سنة ١٩٣٩ موقفاً صريحاً يقوم على التشكيك علناً بالوعود التي كانت بريطانيا وفرنسا وقد تسرعتا بتقديمها الى بولندة، ومن الناحيتين الاخلاقية والواقعية معاً. ولو كان البولنديون قد ادركوا في حينه ادراكاً واضحاً ان بريطانيا وفرنسا غير قادرتين عسكرياً على انقاذهم من براثن الهزيمة، وابعادهم عن ويلاتها ومصائبها، لكان من غير المحتمل البتة ان يظهروا ماظهروه من رفض عنيد للمطالب الاقليمية الالمانية التي كانت تتسم في الاصل بنوع من الاعتدال، والتي لم تتجاوز حدود الرغبة الشعبية في استرجاع مدينة المانية فعلاً (هي ميناء دانزيج المطل على بحر البلطيق) الى حظيرة السيادة الوطنية، وفتح طريق يربط بين شطري المانيا في الممر الذي اقتطعته بولندة من الاراضي الالمانية بموجب معاهدة (فرساي) بعد الحرب العالمية الاولى. ولما كنت واثقاً انهم سيخسرون تلك المواقع الاقليمية كلها، بل وأكثر من ذلك بكثير من اراضيهم ومواردهم وارواحهم، لو حدثت مواجهة مسلحة شاملة بينهم وبين المانيا، فقد ايقنت واقتنعت انه من الخطأ الفادح والجسيم من جانبنا ان نشجعهم بالوعود الخلّابة على الوقوع في الامال الزائفة. وقد

ايقنت واقتنعت ايضاً في حينه ان مثل هذه الوعود الخلّابة من جانبنا ومثل تلك الامال الزائفة من جانبهم، هي الطريق الاكيد والمحتوم الذي سيؤدي بالضرورة القاهرة الى نشوب الحرب.

وتعود هذه القناعات الى اسباب عديدة محددة. منها ان تلك الضمانات والوعود قد انطوت على استفزازات صارخة وتحريضات واضحة، بالاخص وانها قد تزامنت مع لحظة حرجة من لحظات التوتر الشديد في العلاقات السياسية بين الاطراف المعنية، وأرتبطت بمنطقة من المناطق الجغرافية التي كنا نعلن رسميا حتى ذلك الوقت انها تقع خارج دائرة مصالحنا الحيوية ومطالبنا الاساسية واهتماماتنا الكبرى. ومنها، ان تلك الوعود والضمانات قد شكلت تحدياً صارخاً وتوريطاً مباشراً وتشجيعاً مغريا للامة الالمانية المعروفة بالروح القتالية والنزعة العسكرية والعقلية الحربية، وكأننا قد دعوناها للقيام بعمل مسلح واسع النطاق، يثبت ان تلك الوعود والضمانات كانت خيالية وخائبة ومستحيلة. ومنها ايضا، ان تلك الوعود والضمانات قد ادت، بطبيعة الاحوال والظروف التي كانت سائدة حينذاك، الى تشديد مواقف البولنديين وتصعيد مطالبهم، مع انهم قد اثبتوا دائماً بالدليل العملي الملموس، مرة بعد اخرى، انهم الطرف المتصلب والمتشدد والمعاند الذي افشل جميع المفاوضات المتعاقبة للوصول الى تسويات معقولة في الخلافات المحتدمة والقضايا الساخنة.

ومن المفيد ان نعود في هذا الصدد الى السياسي البريطاني الداهية المحنك (غلاد ستون)، الذي لم يبزه احد من اقرانه في زمانه في استنكار العدوان وتعريته وادانته، وان نراجع التقرير القيم الذي رفعه الى الملكة (فيكتوريا) في سنة ١٨٦٩، عندما اصبح للمرة الاولى رئيساً للوزراء. وقد اقترح في هذا التقرير عدداً من المبادىء الاساسية للسياسة الخارجية البريطانية. وتطرق بالتحليل التاريخي الثاقب الى دوافعها واهدافها، والمصالح التي تتوخاها، والخطط النظرية التي تتبعها، والقواعد العملية التي تعتمدها وتطبقها. ومن الجدير بالذكر، ان الظروف التاريخية

والموضوعية التي كانت سائدة حينذاك، قبل استكمال تنظيم الامن الجماعي وظهوره الى الوجود بنيانا صلبا متماسكا، تشبه الى حد بعيد وبوجه عام، الظروف التاريخية والموضوعية التي كانت سائدة في سنة ١٩٣٩، عندما تصدع بنيان الامن الجماعي وتعرض الى الانهيار. وفي سياق ملاحظاته التمهيدية، التي لاتزال تحتفظ بقيمتها واهميتها ومصداقيتها حتى الان، وليس فقط بالنسبة الى بريطانيا، افاد (غلادستون) مايلي بالحرف الواحد: «بالرغم من ان اوربا لم تر بريطانيا ولا مرة على الاطلاق وهي تقف متفرجة او تتراجع مذعورة، فأننا نعلم حق العلم الان كيف تحملت بريطانيا اعباء القتال واوزار الحرب حتى وصلت الى الصدارة المحفوفة بالاخطار التي احتلتها دون ادنى شك في سنة ١٨١٥ (يقصد الحروب النابليونية التي انتهت بهزيمة نابليون وسقوط نظامه الجديد في اوربا بعد معركة «واترلو» - المعرِّب). كما نعلم جيدا، ولاننسى ابدا، الدماء الزكية الطاهرة التي ارقناها، والتضحيات الغالية العزيزة التي قدمناها، والتكاليف الباهظة الفادحة التي دفعناها بالاموال والرجال، والارواح والدموع، وبالمصائب والاحزان، وبالاخطار الداخلية الرهيبة التي هددت جميع مؤسساتنا الوطنية بالتصدع والانهيار.... فهل ان بريطانيا اقوى من جميع الامم الاخرى الى الحد الذي تعلن فيه للعالم اجمع انها على استعداد للقيام بتصحيح الاخطاء والمظالم في كل مكان من هذه المعمورة الواسعة الفسيحة؟؟ وهل يكون هذا التصرف، لو حدث بالفعل، تصرفاً واقعياً عاقلاً حكيماً؟؟.. وفي مثل هذه الحالة، في ضوء ماقطعته من وعود وتحملته من التزامات، الا تواجه بريطانيا واحدة من نتيجتين لاثالث لهما، احلاهما مر علقم، واهونهما شر مستطير: فأما ان تستنزف مواردها قبل الاوان، وأما ان تسقط على الارض خائرة، منهوكة القوى، متقطعة الانفاس، يوم الشروع بالتنفيذ والقيام بالعمل؟؟».

وكانت المباديء التي اقترحها في حينه كما يلي: «أن بريطانيا ينبغي ان تحتفظ بحريتها الكاملة المطلقة في الحركة والمناورة والمداولة... كما ينبغي ان

تمسك كلياً لوحدها بالوسائل التي تعينها على تحديد مصالحها وتقدير التزاماتها واتخاذ قراراتها ومواقفها. . وينبغي ايضا ان تمتنع تماما عن اصدار تعهدات رسمية الى الدول الاخرى التي سيصبح من حقها حينذاك ان تشاركها في تفسير تلك التعهدات، مما يؤدي الى تضييق مساحات خياراتها الحرة وتقليص هوامش حساباتها المستقلة. . وينبغي كذلك ان لايغرب عن بال بريطانيا، ولا ان يفوت عن خاطرها، مهما كانت العواقب والتكاليف والنتائج، وفي مواجهة جميع الظروف والتطورات والاحوال، ان الافضل ان تتعهد بالقليل وليس بالكثير، وان لاتشجع الضعيف بالايحاء انه يستطيع ان يتوقع الحصول على عونها ودعمها اذا قاوم القوي، بل ينبغي ان تسعى الى ردع القوي، بلهجة معتدلة ولكنها حازمة، عن العدوان على الضعيف».

٤ . جراثيم الحرب:

ترتبط مثل هذه الاخطاء والهفوات ارتباطاً وثيقاً بالاسباب والعوامل المؤدية الى نشوب الحروب. لان الاحقاد والمصالح والاطماع والنزوات لطالما اعمت الابصار واشعلت الحرائق واراقت الدماء. ومن شأن قصر النظر ان يولد ضيق الافق وانقباض الصدر وسرعة الانفعال.

ولو اردت ان تسلط الاضواء على الطرائق العملية التي تؤدي الى تفجير الحروب الدامية الطاحنة الكبرى، فأنك لايمكن ان تجد مقدمة افضل واوضح من دراسة تاريخ السنوات الخمسين التي سبقت نشوب الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤. ولكنك سوف لاتعثر على الجذور الغائرة والاسباب الحقيقية في التقارير الحكومية والوثائق الرسمية التي كتبها او جمعها الحكام والوزراء والجنرالات، بل في هوامشهم الجانبية واحاديثهم الشخصية. وحينذاك، سوف تطلع على عصبياتهم الغريزية ونزواتهم الانفعالية، وافتقارهم الى الحرص على الحقيقة الموضوعية الدقيقة الكاملة،

واستهتارهم المريع بالاقوال المحددة المحسوبة والتصريحات الواضحة المدروسة التي كان من الممكن ان تحميهم من اخطار سوء التأويل وسوء الفهم . وقد توصلت شخصياً الى قناعة راسخة بعد تجربة طويلة في الحرب والسياسة، مفادها ان الدقة، بالمعنى الاعمق والاصدق والاوثق، هي الفضيلة الاساسية التي تحقق التفاهم المتبادل وتضمن التقدم الشامل للجميع . ولو فكر هؤلاء السادة الكرام قليلاً بنتائج اقوالهم قبل ان يفتحوا افواههم، لوفروا على القارة الاوربية والانسانية جمعاء كثيراً من الاهوال والويلات والمصائب. هناك علاقة عضوية مباشرة بين التفكير الواضح والتعبير الدقيق . كل تفكير مشوش غامض لايمكن الا ان ينعكس في تعبير معقد غير مفهوم . وربما امكن ان يلقى الكلام على عواهنه دون حساب مجاناً في اللقاء العابر او الحديث المجامل بين شخصين او أكثر . لانه لايكلف صاحبه شيئا. ولكنه في السياسة والحرب، وبالاخص في العلاقات بين الامم الدول، يشكل خطراً حقيقياً وتهديداً رهيباً، ويسبب ضرراً فادحاً وخراباً واسعاً ودماراً شاملاً.

ويعود سبب نشوء معظم المتاعب والمشكلات الى التطرف، كما يعود سبب الفشل في منع تفاقمها والتقليل من اضرارها الى نقص الخبرة وضعف الكفاءة. ولكن التوقي منها، والتحوط لها، والقضاء عليها، والحيلولة دون ظهورها الى الوجود اصلاً، عملاً بالحكمة القائلة (درهم وقاية خير من قنطار علاج)، يقتضي ويستلزم ويتطلب الاعتدال، بل يستوجب الاعتدال حتى ولو اضطررت الى القتال. لانك حينذاك ستكسب السلام مع كسبك للحرب. فما الفائدة اذا كسبت الحرب وخسرت السلام؟ وكما في المتاعب والمشكلات التي تنشأ من التطرف، كذلك في تلك التي تتولد من الاتصالات المحكية او المكتوبة. لان السبب في نشوء هذا النوع من المتاعب والمشكلات يعود الى تحميل مايقال او يكتب بأكثر مما يتحمل، اي الاسراف والتبذير والافراط في التعبير او التعبير الزائد عن المعنى الصحيح المقصود. كما يعود السبب في استمرارها

واحتدامها وتفاقمها الى تحميل مايقال او يكتب بأقل مما يقتضي ، اي البخل والتقتير والتفريط في التعبير او التعبير الناقص عن المعنى الصحيح المقصود .

لان الزائد لايختلف عن الناقص في هذه الاتصالات التي تتعلق بقضايا السلام والحرب بين الدول . ولكن منع وقوع المتاعب والمشكلات بالوقاية ، بدلا من مبادرتها بالعلاج بعد وقوعها ، لايمكن ان يتحقق الا بالقول الصريح ، او الكلام الواضح ، او التعبير الدقيق عن المعنى الصحيح المقصود ، الذي يستبعد الشك والخلط والالتباس ، ويقلل الى ادنى حد ممكن عملياً وانسانياً من فرص واحتمالات وهوامش الخطأ والوهم وسوء التقدير او سوء الفهم او سوء التأويل . وتلك هي شروط وخصائص الموقف الحكيم والتصرف السليم في الحياة الخاصة والعامة ، في وقت واحد ، وعلى حد سواء .

واعتقد اعتقادا متواضعا ومدروساً ، في ضوء معرفتي وتجربتي وخبرتي ، ان الاحكام المرتجلة والاشاعات المغرضة ، وخصوصا التصريحات الرسمية المطاطة والغامضة وغير الدقيقة التي قد تعني شيئا معينا ، او تعني اي شيء وكل شيء دون تمييز ولاتحديد ، او لاتعني شيئا على الاطلاق ، تؤدي الى حدوث الانطباعات الخاطئة واختيار البدائل الضارة واتخاذ القرارات السيئة ، ولايمكن ان تحصد غير النتائج السلبية والمردودات العكسية .

وتلك هي اعراض وعلائم الاستهتار الفكري والاخلاقي الذي طالما تسبب في اشعال الحرائق وتفجير الحروب واهراق الدماء بين الامم والدول . ولو قمنا بدراسة الاثار التي نجمت عنها والنتائج التي ترتبت عليها ، فسندرك ان بذور وأسباب وجراثيم الحرب كامنة في انفسنا ، وليس في الاقتصاد والسياسة او حتى الدين بحد ذاته . وكيف نأمل ان يتحرر العالم من الحرب ، اذا لم نحرر انفسنا اولاً من الاسباب التي تولدها والدوافع التي تفجرها ، وهي الحقد والطمع والتعصب والغرور والجهل؟؟

٥ . كيف تعمل جراثيم الحرب:

ويبدو ان هذه الجراثيم اوسع انتشاراً وارسخ قدماً واوضح اثراً بين غلاة المتعصبين وجهابذة الطغيان والاستبداد ودعاة الحق المعصوم والكمال المطلق من رؤساء بعض الدول. يأتي التاريخ بأمثال هؤلاء احياناً الى مقام الصدارة، ويرفعهم الى القمة في غفلة من الزمن. فتنوء شعوبهم وغيرها بأوزارهم الثقيلة، وتئن الانسانية جمعاء من ويلات هذا المصاب الاليم والحقد الملعون والبلاء المبرم. حب السلطان مصيبة. وحب العدوان ايضاً مصيبة اخرى. ولكن حب السلطان اذا اقترن بحب العدوان، فتلك هي مصيبة المصائب او المصيبة الكبرى والقصوى. واذا اردنا أن ندرك كيف تعمل جراثيم الحرب وتفعل مفعولها، فينبغي ان نعرف الطرائق والاساليب والمواقف التي يتبعها ويعتمدها امثال هؤلاء من رؤساء الدول او صناع الاحداث في العمل. واذا اردنا ان نعرف تلك الطرائق والاساليب والمواقف معرفة ميدانية حقيقية كاملة، فينبغي ان نستعين بالتحليل الموضوعي الدقيق للاجواء التي احاطتها، والظروف التي سادتها، والدوافع التي اكتنفتها. ولعلنا لانجد سابقة تاريخية واوضح وابرز وادل في هذا الصدد من الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، ولا دراسة اجدر بالجد والجهد من دراسة الاسباب التي فجرتها، والمراحل التي قطعتها، والتطورات التي سبقتها أو تخللتها او لحقتها. وعلى الرغم من ان الاسباب الاقتصادية كانت من أهم العوامل الثانوية التي ساعدت على نشوبها، ولكن الاسباب الاساسية الحقيقية الحاسمة تعود الى الخصائص الغائرة والميول الدفينة والاهواء الجامحة في الطبيعة الانسانية. لان غياب الموضوعية يولد الافتقار الى الامانة والنزاهة. وهذا بدوره يؤدي الى السقوط في مهاوي الابتعاد عن العقلانية والدقة. وعلى هذا النحو، يكون فتيل الديناميت جاهزاً للاشتعال، وبرميل البارود مهيئاً للانفجار. وحينذاك، لايحتاج الحريق الا الى شرارة واحدة او بادرة مباشرة مهما كانت صغيرة. دعونا أذن نبدأ بالتحليل. طوال السنوات الخمس والعشرين التي

سبقت نشوب تلك الحرب، كان غرور قيصر المانيا (غليوم الثاني) من ابرز اعراض وخصائص تلك الفترة.

وقد تأثر غروره بالموقف الذي اتخذه من انكلترة، وكان يقوم على خليط غريب ومزيج معقد من الشعور بالحب والشعور بالحسد. فأذا علمنا ان مزاج القيصر الالماني كان هكذا، فسنعلم لماذا وكيف احتدم وتفاقم الجانب الاسوأ من تكوينه النفسي، اي الشعور بالحسد، من جراء الصفعات المعنوية الداوية التي اعتاد امبراطور بريطانيا وماوراء البحار، الملك (ادوارد السابع)، ان يكيلها الى ابن اخته. وأذا ماوصلنا في تحليلنا الى الاسابيع القليلة الحاسمة التي سبقت نشوب الحرب، فسنري الدور المصيري البارز الذي لعبته الاهانات المتبادلة والمخاوف المتقابلة من فقدان «ماء الوجه» مجدداً، في دفع الحكومتين النمساوية والروسية الى حلبة الصراع المسلح ومحرقة الموت الشامل. ومن الواضح ان هذين النظامين، وبالاخص وزيري خارجيتيهما، كانا على استعداد مطلق للاحتكام الى الخيار العسكري الذي يجلب الدمار والخراب والويل للملايين من البشر، بدلا من التراجع المحسوب عن حافة الهوة السحيقة والقبول الحكيم والمرن بالكرامة الجريحة. وفي المرحلة الاولى الحرجة من الازمة، اندفعت الحكومة النمساوية الى اتخاذ موقف متشدد لم تعد تستطيع معه ان تتراجع عنه بسهولة او بسرعة. ونالت دعما قويا من قيصر المانيا الى الحد الذي شجعها على القيام بعمل حاسم والاقدام على استفزاز صارخ وتحرش صريح.

وفي تلك اللحظة الحرجة والدقيقة والحساسة من لحظات الزمان، وضحت تماماً مفارقة التاريخ كما يسميها الفلاسفة، او سخرية القدر كما يسميها الادباء والفنانون، وظهرت سخافة وتفاهة العوامل التي تقرر مساره وتحدد مجراه احيانا.

وقد نشبت الازمة بعد قيام حفنة من الشباب السلافيين بأغتيال ولي عهد امبراطورية النمسا والمجر الارشيدوق (فرانز فرديناند) في مدينة (سيراجيفو). ودعمتهم وساعدتهم وساندتهم جمعية سرية صربية قومية

متطرفة، هي جمعية (الكف الاسود)، بناء على طلبهم.
وهكذا اقدم هؤلاء الشبان المتطرفون على اغتيال الرجل المتنفذ الوحيد في النمسا الذي كان يتعاطف معهم ويميل اليهم ويستطيع ان يعاونهم في بلوغ اهدافهم وتحقيق امانيهم. وعلى الرغم من ان الحكومة النمساوية قد شعرت بالارتياح للقضاء عليه والتخلص منه، الا انها سارعت الى استغلال وتوظيف حادثة اغتياله، بأعتبارها حجة وذريعة، في تقييد وتكبيل وتحجيم صربيا التي كان استقلالها السياسي ونهجها القومي السلافي المتطرف واقعا مزعجا وكابوسا ثقيلا، وشوكة في خاصرة امبراطورية النمسا والمجر، اثار حفيظتها، وهدد وحدتها وسلامتها. ويبدو ان مبادرة القيصر الالماني بالوقوف الى جانب الحكومة النمساوية في المرحلة الاولى من الازمة، ودعمها في موقفها المتصلب والمتشدد والمتعجرف من صربيا، يعود الى سببين اساسيين. الاول، حنقه وغضبه على عملية الاغتيال بأعتبارها اعتداء على العائلة المالكة والسلالة الحاكمة، ادى الى اراقة الدماء الملكية. والثاني، خوفه من اتهامه بالضعف لو انه نصح الحكومة النمساوية بالاعتدال. وعندما لاحت نذر وبوادر الحرب في الافق، حاول القيصر ان يتراجع بالفعل. ولكن الوقت كان قد تأخر، والاوان كان قد فات. وكانت الحكومة النمساوية، من جانبها، خائفة انها لو احجمت واظهرت ترددا، فأنها قد تخسر دعم القيصر وعون الحليف الالماني. ومن هنا، تسرعت الحكومة النمساوية في اعلان الحرب على صربيا، دون اعتبار للمخاطر التي قد تنجم عن اتخاذ مثل هذا القرار، وفي طليعتها احتمال نشوب حرب عالمية.

وتلاحقت الاحداث، وتداخلت الاسباب، وتطورت التعقيدات. لان التهديد النمساوي للدولة الصربية السلافية كان تحديا صارخا واستفزازا مهينا للامبراطورية الروسية التي كانت تنظر الى صربيا نظرتها الى طفلها المدلل وأبنها البار وتابعها المطيع وحليفها الامين. وبعد ان تأكدت روسيا من تأييد فرنسا، قررت ان تحشد قواتها على طول الحدود النمساوية.

وحينذاك، خرجت القيادة العسكرية الروسية عن صمتها، وسارعت الى التدخل في الموقف. فأعربت عن رأيها للحكومة الروسية ان قرارها بأعلان التعبئة الجزئية ليس عمليا او مجديا من الناحية الفنية. واصرت على اعلان التعبئة العامة، على ان تتحشد القوات الروسية ليس على الحدود النمساوية فقط، بل على الحدود الالمانية ايضا.

وسيطر العسكريون «بأسبابهم العسكرية» على مقاليد الامر والنهي، ومفاتيح الحل والعقد، من النواحي الواقعية والعملية والفعلية، في جميع هذه الدول. وبعد ان كانت هيئة الاركان العامة الالمانية تحرض مثيلتها النمساوية بطريقة غير رسمية على استغلال الوضع، استطاعت الان ان تستغل التعبئة الروسية العامة للتغلب على هواجس وتحفظات القيصر غليوم. واقنعته ان الوضع العسكري في تلك المرحلة كان افضل مما سيكون في مرحلة لاحقة. فنجحت في استصدار قرار بأعلان الحرب على روسيا. ولكن هذا القرار كان من شأنه ان يؤدي الى نشوب الحرب مع فرنسا أيضاً. وليس لمجرد أن فرنسا كانت قد تحالفت مع روسيا. بل أيضاً لأن الخطة العسكرية الالمانية كانت قد رسمت أصلاً وأساساً للدخول في حرب مع الدولتين (روسيا وفرنسا) معاً في وقت واحد. وكانت هذه الخطة الاستراتيجية الالمانية على درجة من الصلابة البنيوية بحيث أن تعديلها كان سيقضي على تماسكها، بل ويؤدي بالفعل الى تفككها وانهيارها. وهكذا، وعلى الرغم من الاحتجاجات الهشة الضعيفة المترددة التي صدرت من القيصر غليوم ومستشار الرايخ (الوزير الاول في حكومته اي رئيس وزرائه - المعرّب)، اعلنت المانيا الحرب على فرنسا ايضا كما اعلنتها على روسيا في وقت سابق.

وطالما ان الخطة الاستراتيجية العسكرية الالمانية كانت تقضي بالالتفاف على الحصون الدفاعية الحدودية الفرنسية المنيعة، وتطويقها وعزلها من الخلف، عن طريق القيام بأختراق خاطف وسريع للاراضي البلجيكية، فأن الاعتداء على حياد بلجيكا كان سيؤدي بالنتيجة الضرورية الى توريط

بريطانيا ايضا في الحرب، في ضوء الضمانات التي كانت قد قدمتها في وقت سابق مع اطراف اخرى الى تلك الدولة بالدفاع عن حيادها.

وعلى هذا النحو، وانطلاقا من ترتيبات لوجستية منفردة معينة تتعلق بأستخدام وسائط النقل وطرق المواصلات، بادرت بها وتفاهمت عليها هيئة الاركان العامة البريطانية مع مثيلتها الفرنسية دون علم الحكومة البريطانية، تخلت بريطانيا عن سياسة العزلة التقليدية في الشؤون القارية، واصبحت طرفا اساسيا في الشبكات المعقدة للاحلاف الاوربية، المتضاربة المصالح، المتفرقة الاهواء، المتناقضة الاهداف. وكانت هذه الحرب التي جررنا اليها جراً، ودفعنا اليها دفعاً، ودخلناها بقلوب واجفة وخطوات متعثرة، هي الدرس التاريخي الاوضح والامثل الذي تعلمناه نحن البريطانيون من جانبنا عن سلبيات ومساوىء ومحاذير وعواقب الدخول الى التزامات غامضة، دون ان نفكر مليا ونمعن النظر في نتائجها، ودون ان نناقش المشكلات والابعاد والاوزار العسكرية التي تترتب عليها وتنجم عنها، مناقشة موضوعية دقيقة واعية. هكذا كانت تلك الحرب من جانبنا نحن البريطانيون. فكيف كانت من جانب الاطراف الاوربية الاخرى؟؟. . كانت تلك الحرب من جانب الاطراف الاوربية الاخرى درساً تاريخيا ايضا، ولكنه كان درساً مختلفاً بالطبيعة، متميزاً بالتجربة، منفرداً بالعبرة. وقد كشفت تلك الحرب، في مثال صارخ مأساوي عنيف، عن خطأ وخطل وخطر وبطلان السماح للعقول العسكرية المحترفة المتخصصة بوضع خطط جاهزة كاملة متصلبة، على اسس فنية مسلكية ميدانية صرفة، دون التفات بالنظرة الشاملة المتوازنة الى الاعتبارات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والانسانية والاخلاقية، الالصق بالواقعية، والاقرب الى الحكمة، والادعى الى الثقة والطمأنينة والسلامة وحسن العاقبة. وقد اثبتت تلك الحرب، مرة اخرى، ومرة واحدة والى الابد، ان الاستراتيجيات الكلية الكبرى لايضعها، ولايحسن وضعها، رجال المؤسسة العسكرية واساتذة فنون وقوانين الحرب وخبراء مبادىء

واساليب القتال، بل رجال الدولة ودهاة السياسة وحكماء الشعوب والاقوام والامم. وقد ضربت المانيا عرض الحائط بهذه الاعتبارات والقواعد في الحرب العالمية الاولى، ولم تعرها اقل وزن وادنى اهتمام. وكان ماأصابها، بحد ذاته، درساً فريداً وبرهاناً جديداً، في بديهية كبرى من بديهيات التاريخ، لم تعد بحاجة الى المزيد من الدروس والبراهين. فما ان تعثرت الخطة الاستراتيجية العسكرية الجاهزة الكاملة المتصلبة التي اعتمدتها واتبعتها، واعتراها الوهن والفتور والفشل في بعض جوانبها ومراحلها، حتى وجدت المانيا انها قد اسقطت نفسها في حفرة لم تعد معها قادرة على الخروج منها. وكان ماكان مما يعرفه كل انسان.

٦ . كيف تستمر وتدوم جراثيم الحرب :

وقد ادت اسباب وعوامل مماثلة اخرى الى ضياع وتبديد كل فرصة حقيقية سانحة للتوصل الى تسوية مقبولة للاطراف المتحاربة، من شأنها ايقاف الحرب واحلال السلام قبل ان يتدهور الموقف ويتأزم الوضع ويصل الاستنزاف المتبادل الى حد الانهاك الشامل والدمار النهائي.

وفي سنة ١٩١٧، كان الجناح الداعي الى التفاهم والمطالب بالسلام في المانيا قد تفوق وتغلب على نفوذ القيصر غليوم، وأصبح صاحب اليد الطولى والكلمة العليا. وكان هذا الجناح على استعداد ليس فقط للانسحاب من الاراضي المحتلة، بل كان ايضا على استعداد بالفعل للتنازل الى فرنسا عن جميع الاراضي والاقاليم التي تطالب بها وتتطلع لها، بأستثناء شريحة صغيرة من منطقة «الالزاس ـ اللورين». او، بعبارة اخرى، كانت المانيا مستعدة للاعتراف بالمطالب الاقليمية الفرنسية، دون الحاجة الى المزيد من التضحيات بالارواح. وهي نفسها بالضبط المطالب الاقليمية التي حققتها فرنسا، دون زيادة ولانقصان، في نهاية الحرب، بعد ان تحملت افدح الخسائر والاضرار والتضحيات في الارواح والاموال والممتلكات.

وقـد كشف (اللورد ايشر)، في وقت لاحق بعـد ان وضعت الحرب اوزارها، عن السبب الحقيقي الذي ادى الى تضييع وتبديد تلك الفرصة السانحة والتسوية المعقولة، وادى ايضا في نفس الوقت الى ابقاء الحكومة البريطانية في جهل مطبق وظلام دامس والامتناع عن اطلاعها في حينه على تلك الفرص والسوانح والاحتمالات والتفاصيل. ويعود هذا السبب الى جملة من التوافه المبتذلة والصغائر الرخيصة والاعتبارات الوضيعة. ومن ابـرزها واهمهـا وادعاهـا الى الاسف واقربهـا الى الاسفاف، ان الـوزير الفرنسي للشؤ ون الخارجية، (المسيو ريبو)، قد شعر بالامتعاض والاستياء والتذمر، لان العرض الالماني قد جرى تقديمه الى غريمه ومنافسه الوزير الفرنسي الاخر (المسيو برناند). وأفاد (اللوردايشر): «ان الدافع الوحيد وراء هذا الموقف كان الغيرة الجامحة العمياء التي استبدت بوزير الخارجية وسيطرت على وزارته». وعندما انكشفت تلك الحقائق بعد فترة قصيرة من الوقت، كما كان محتوماً ان يحصل، فأنها قد ادت ال سقوط «المسيو ريبو»، ولكن بعد فوات الاوان وزوال الاحتمال. لان الرفض الفرنسي للعرض الالماني قد دفع القيصر غليوم الى الارتماء مجددا في احضان الجناح الداعي الى الاستمرار في القتال والاصرار على الحرب.

وكما حدث مع المانيا، كذلك حدث مع امبراطورية النمسـا والمجر. فبعد وفاة الامبراطور السابق الذي كان طاعناً في السن، حاول الامبراطور النمساوي الجديد ان يبتعد عن المانيا وان يدخل الى حظيرة السلام. ولكن محاولته قوبلت بالرفض وجوبهت بالفشل. وهكذا، مرة اخرى، ضاعت وتبددت مبادرة ثانية وفرصة ثمينة. وكان السبب يعود في هذه المـرة الى التناقض والتعارض بين تلك المبادرة السلمية وبين المطامح الجامحة وغير المعقولة (للسنيور سونينو) الوزير الايطالي للخارجية و (المسيو بوانكاريه) الوزير الفرنسي للخارجية. وقد حرص هذان الوزيران حرصاً فائقاً على اخفاء هذه المبادرة وجميع تفاصيلها عن الحكومتين الامريكية والبريطانية. وابقياها عمدا وعن سابق تصور وتصميم سرا محفوظا في طي الكتمان،

لايعرفه احد سواهما. واستعانا في التصدي لها والتخلص منها والقضاء عليها بالمكر والحيلة والدهاء. ونجحا في تنفيذ هذه السياسة الشريرة بأستخدام وسيلة وضيعة دنيئة. فأطلعا الجانب الالماني على اقتراح الامبراطور النمساوي. فكشفا سره للشريك الذي كان ينوي التملص منه والابتعاد عنه.

ولم يكن الوضع في الجانب الالماني بأفضل من الوضع في الجانبين الفرنسي والايطالي. فالمشاحنات الشخصية كانت دائرة ايضا على قدم وساق. وكانت الدسائس التافهة الرخيصة لاتنتهي ولاتتوقف في المكاتب المغلقة والمجالس المكتومة. ولاتوجد امثلة مكتوبة عن هذه الاوضاع السيئة، افضل واوضح من تأملات وملاحظات الجنرال (هوفمان)، الذي كان ربما صاحب المع واذكى واقدر عقل عسكري في القيادة العليا للقوات المسلحة الالمانية في الحرب العالمية الاولى. وقد استخلصها واعتصرها من تجاربه الشخصية والميدانية المباشرة عن المشاحنات التي دارت في حينه بين تكتلين او جناحين عسكريين على اعلى مستويات القيادة: الاول، ويرأسه الفيلدمارشال (فالنكهاين)، والثاني ويرأسه الفيلدمارشال (هندنبورغ) والجنرال (لودندورف). وأفاد الجنرال (هوفمان) مايلي بالحرف الواحد: «عندما ينظر الانسان عن قرب وكثب الى القياديين العسكريين والمسؤولين الرسميين، وطموحاتهم المتضاربة، وعلاقاتهم السيئة مع بعضهم البعض، والاحقاد المتبادلة التي تستبد بهم وتسيطر عليهم، ومايكيله الواحد منهم للاخر، من تشهير وتجريح وتمريغ للكرامات في الوحول، لايسعه الا ان ينشد السلوى والعزاء والاطمئنان بأقناع نفسه ان الوضع لابد ان يكون اسوأ في الطرف الاخر بين الفرنسيين والانكليز والروسيين. والا فأن الهواجس والمخاوف والكوابيس ستنغص عيشه وتقض مضجعه وتطرد النوم من عينيه. ويبدو ان الصراع الشخصي على مراكز النفوذ ومواقع السلطة قد افسد اخلاق الرجال، واعمى ابصارهم وبصائرهم. واعتقد ان الانسان الوحيد الذي يستطيع ان يحافظ على شرفه في مثل هذا

الوضع، لايمكن ان يكون الا الانسان المحظوظ الذي يعيش منعزلاً في مزرعته الريفية. لان مثل هذا الانسان، حينذاك، لايعود محتاجاً الى الدسائس والمهاترات التي لاتنفعه في شيء على الاطلاق، اذا كانت اعظم مطالبه واقصى امانيه ان يحصل على طقس جميل وجو رائق ومناخ طيب ويوم مشمس».

واذا اقتصر التاريخ الذي يكتب عن الحرب، اي حرب كائنة ماكانت على الاطلاق، على مجرد الاكتفاء بدراسة وقائعها وجوانبها الاستراتيجية والسياسية فقط، فأنه لايمكن ان يكون حينذاك الا وصفاً سردياً وتاريخاً سطحياً وهيكلاً عظمياً خاوياً يابساً. لانه قنع بالمظاهر والقشور والشكليات، وامتنع عن الغوص الى الجذور والاعماق والاصول. ذلك ان التيارات الشخصية تغور بعيداً عن المرئيات المنظورة. ولكن دورها قد يكون اكبر واعظم، وتأثيرها ربما يكون اشد واقوى على تطور الوضع وحسم الموقف والوصول الى المحطة النهائية والنتيجة الاخيرة.

وقد احسن الجنرال (هوفمان) واصاب كبد الحقيقة واجاد التفكير والتعبير بقوله: «للمرة الاولى في حياتي، رأيت التاريخ وراقبته عن كثب، وعرفته عن قرب. وقد ادركت الان ان حقيقته الواقعة تختلف اختلافا كبيرا عن صورته الظاهرة التي تتناقلها الاجيال وتتداولها الكتب».

ونتعلم من التاريخ ان الحرب تولّد الحرب. وتلك هي ظاهرة واضحة وحقيقة موضوعية تكررت مرة بعد اخرى في كل زمان ومكان، واتفقت في الخطوط الاساسية والسياقات العامة والمعالم البارزة، وان اختلفت في التفاصيل والفروع والجزئيات، لان اجواء الحروب تؤدي الى تنيشط انواع مختلفة ومتعددة من بذور وجراثيم وطفيليات الحقد والتعصب والعداء والانتقام. وتجد هذه الميكروبات ماتحتاجه من تربة خصبة وبيئة صالحة للنمو والانتشار في المرحلة التي تأتي بعد انتهاء الحرب، والتي توصف، في مفارقة عفوية غير مقصودة ولا واعية، بمرحلة احلال السلام. وتتوفر تلك الظروف الملائمة والمشجعة والمنشطة بالاخص بعد حرب طويلة ومنهكة،

وبأخص الاخص بعد حرب يبدو انها قد انتهت بأنتصار طرف على الطرف الاخر من الطرفين المتحاربين انتصاراً كاملاً ومطلقاً. لان المهزومين سيلقون بأوزار مصاعبهم ومشاكلهم ومتاعبهم على عاتق المنتصرين، بطبيعة الحال، وسيزعمون ان اسبابها تعود الى الهزيمة التي اصابتهم، في محاولة للتملص من تبعات ونتائج وذيول وعواقب حمقهم وطيشهم وتهورهم وفشلهم. وسيشعر المهزومون ايضا انهم لو كانوا قد انتصروا وكسبوا الحرب، لما عانوا مايعانونه، ولما اصابهم ما اصابهم، من سوء وضرر واذى وخسران مبين، على عادة امثالهم في جميع الحروب. وتلك هي ردة فعل طبيعية ومتوقعة ومحتملة، تكررت مرة بعد اخرى في تواريخ جميع الامم والدول، حتى اصبحت ظاهرة واضحة عامة، يدركها الباحثون العسكريون ويعرفها المؤرخون المتخصصون.

٧ . وهم الانتصار الكامل المطلق :

نتعلم من التاريخ ان الانتصار الكامل المطلق لم يتوج او يكتمل ابدا بالنتيجة النهائية القاطعة التي كان المنتصرون يتوقعونها ويتمنونها دائما، وهي السلام الحقيقي الوطيد الدائم. لان مثل هذا الانتصار كان يزرع بذور حرب جديدة قادمة. وفي كل مرة، كان المنتصرون يخدعون انفسهم بقولهم ان تلك الحرب كانت هي الحرب الاخيرة في التاريخ، وان السلام سيستمر الى الابد. وفي كل مرة ايضا، كانت الاقدار تضحك ساخرة، وتجري الرياح ولو بعد حين بما لايشتهيه المنتصرون. لان الانتصار الكامل المطلق يولد في نفوس المهزومين نوعاً عارماً من الرغبة في تأكيد الذات واثبات الوجود والانتقام من المنتصرين بأعادة عقارب الساعة الى الوراء، والرجوع بالوضع على ماكان كما كان قبل ان ينتصر المنتصرون. كما ان مثل هذا الانتصار يخلق وضعاً اخراً، يؤدي الى ظهور خصومات جديدة لم تكن موجودة من قبل بين المنتصرين انفسهم، وحدوث مشكلات من نوع مختلف لم يواجهها احد في وقت سابق.

وتلك هي الظاهرة العامة الاكثر شيوعاً في التاريخ، اذا كان الانتصار الكامل المطلق قد فرضه حلف من دول عديدة على دولة واحدة مهزومة او دول متحالفة عدوة. ويبدو ان تلك هي النتيجة الطبيعية المتوقعة التي تنشأ من اختلال الميزان وزوال الكابح بأندحار طرف ثالث قوي هزمه طرفان متحالفان قويان ايضا، وازاحاه تماما قهرا وقسرا واقتدارا من حلبة النفوذ وساحة الصراع، على سبيل المثال لا الحصر. فما ان يزاح العدو المشترك من الوجود ويرغم على الانكفاء والانزواء والاختفاء، حتى يبدو ان التحالف سرعان مايتصدع، ويدب دبيب العداء، ومايلبث ان يحل الاختلاف محل الود، والخصام محل الوئام.

ولابأس ان نعود بالذاكرة في هذا الصدد الى سابقتين تاريخيتين بارزيتن توضحان، مانقصد، وتؤكدان مانعني، وتثبتان مانقول. فأنظر الى المانيا في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) التي استسلمت الى الحلفاء دون قيد ولا شرط، فعمدوا الى تكبيلها بقيود معاهدة (فرساي)، ثم استعادت قوتها واسترجعت حريتها في وقت لاحق، ومالبثت حتى مزقت بنود تلك المعاهدة الواحد تلو الاخر، وانتهت الى اشعال فتيل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥).

وانظر، من جهة اخرى، الى الحلف الذي قام بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية، فما ان وضعت هذه الحرب اوزارها بعد احتلال المانيا واستسلام اليابان، حتى بدأ الصراع العالمي على النفوذ والتوسع والسيطرة بين الدوليتن الاعظم والقوتين الاكبر، بأشكال ودرجات متفاوتة. ونحن لانزال نعيش النتائج التي تمخضت عن الحرب العالمية الثانية، وان طرأت متغيرات بارزة كثيرة على الثوابت القديمة المعروفة.

وقد كان الدرس التاريخي الاول عن وهم الانتصار الكامل المطلق المتوج بالسلام الحقيقي الوطيد الدائم، يبرز واضحاً، ويستوعب تماماً، في اعقاب كل حرب كبرى، بعد ان تبرد العواطف الجامحة، وتهدأ الاعصاب

الهائجة، وتخف وتضعف الاحقاد المتأججة. ولكن الدرس التاريخي الثاني عن واقع الانتصار الكامل المطلق الذي يزرع بذور حرب جديدة لاحقة، بدفع الطرف المهزوم والمستسلم الى الدخول في سباق مع الزمن للتخلص من اوزار الاستسلام وقيود القهر، وتحويل الصراع من صراع بين طرفين متحالفين قويين وطرف ثالث لايقل عنهما قوة، الى صراع بين الطرفين الحليفين سابقا والعدوين لاحقا، هذا الدرس لايزال غامضاً او بعيداً او غائباً، ويحتاج الى المزيد من البحث والتحليل والايضاح. ويبدو من المحتوم ان يؤدي الانتصار الكامل بالمعنى المطلق والحد الاقصى الى تعقيد محاولة التوصل الى تسوية سلمية عادلة وحكيمة. لان غياب الطرف القوي المقابل الذي كان مجرد وجوده، لو وجد، سيلجم اطماع المنتصرين ويكبح من جماح مصالحهم المتناقضة واهدافهم المتضاربة، سيقود بالضرورة الى اختلال المعادلات والموازين، واختلاف الخصائص والظروف، وتبادل المواقع والادوار، وزوال الحدود والضوابط عن سوح وميادين الصراع بين الاطراف المتحالفة، وانطلاقه من عقاله، وانفلاته من عنانه. وعلى هذا النحو، ربما انقلب الصديق في مرحلة معينة الى عدو في مرحلة اخرى، وقد يتحول الحليف في حرب سابقة الى خصم في حرب لاحقة. وهكذا دواليك. والدهر متقلب دوّار. وتلك هي القاعدة الاساسية والظاهرة التاريخية للحرب والسياسة في العلاقات بين الامم والدول.

فماذا يعني النصر اذن؟ وكيف يمكن ان يتحقق بالفعل؟ يبدو من استقراء وقائع التاريخ واستخلاص النتائج من دروس الحرب والسياسة، ان النصر بالمعنى الحقيقي والصحيح لايمكن ان يقوم ولا ان يدوم الا اذا كانت حالة السلام، ومعها حالة الشعب الذي انتصر، افضل بعد الحرب عما كانت عليه قبل الحرب. ويكون النصر بهذا المعنى ممكنا اذا حسمت الحرب حسماً سريعاً في وقت قصير، او اذا استطاع هذا الجانب او ذاك ان يحقق التوازن الدقيق والتنسيق الوثيق والتناسب المدروس والربط العقلاني المخطط بين الموارد الاقتصادية والمتطلبات العسكرية في حرب طويلة. ومن

هنا، وجب دائما ان تتكيف الاهداف المقررة مع الوسائل المعتمدة والموارد المتيسرة او المتاحة. ومن الاسلم والاحكم ان تقبل مجازفة التهديد بالحرب للمحافظة على السلام، بدلاً من قبول مجازفة الدخول بالفعل الى حرب استنزاف منهكة طويلة، انطلاقاً من النزوة الجامحة والرغبة العارمة في الوصول الى النهاية الواهمة والنتيجة الحالمة وهي النصر الكامل المطلق الذي يحسم الصراع ويقرر المصير بغالب ومغلوب.

ويبدو ان هذه القاعدة الذهبية قد تكون مخالفة للعرف السائد والرأي المألوف في المعتاد من الاحوال. ولكنها بالتأكيد موافقة للواقع الميداني والدرس المستفاد من تجارب مشهودة وسوابق عديدة.

ولو استقرأنا التاريخ واستنطقنا الماضي لتوصلنا الى نتيجة معينة وحقيقة واحدة، وهي :

ان الامم التي خاضت الحروب، قد اقتربت في كثير من الاحيان اقترابا شديدا من تنفيذ اهدافها وتحقيق مطالبها، اذا امتلكت الحكمة والشجاعة معا وليس احداهما فقط اقتصارا، واحسنت استغلال فرص السلام وسوانح التفاهم، وبادرت في فترات هدوء الصراع وركود القتال بين المعارك الى الدخول في مناقشات تتعلق بالتسوية، بدلاً من الاصرار على الاستمرار في الحرب املا في انتزاع وفرض النصر الحاسم الكامل المطلق.

لان سياسة «كل شيء او لاشيء» في الحرب، ليست واقعية او مفيدة او حكيمة او عاقلة، ولم تجلب في اغلب الاحيان الا الويل والدمار والخراب والهلاك للاطراف التي راهنت عليها وغامرت بها.

واذا تساوت كفتي الطرفين المتحاربين في ميزان القوة، وتعادلتا تعادلا ملحوظا حرم ايا منهما من امتلاك ميزة متفوقة على الآخر، تؤدي الى حسم المعركة لصالحه في فترة قصيرة ومدة وجيزة بضربة قاضية واحدة او بحرب سريعة خاطفة، فأن دواعي الحكمة تقتضي ان يتعلم رجل الدولة درساً مفيداً من سيكولوجية الاستراتيجية. ومن البديهيات الاولية والمبادىء البسيطة والقواعد الاساسية في المجالات الاستراتيجية، انك اذا وجدت

خصمك متحصناً في وضع منيع وموقع قوي، وادركت بأنك ستدفع ثمناً غالياً باهظاً فادحاً في الارواح والرجال والمعدات، اذا حاصرته حصاراً خانقاً من جميع الجهات والجوانب وهاجمته هجوماً جبهوياً مباشراً، وتوخيت ان تزحزحه من مكانه او تطرده من خندقه، فأن الوسيلة البديلة الافضل والاسرع والاضمن والاسلم التي تلبي حاجتك وتحقق غايتك بأقل الخسائر والاضرار والتكاليف هي ان تترك له خطا للتراجع ومنفذا للخروج وبابا للانسحاب. لانك تكون حينذاك قد اضعفت من عناده في القتال وخففت من اصراره على الصمود وقللت من ثباته على الارض. وكما في السياسة، كذلك في الحرب بوجه خاص، وفي الاستراتيجية بوجه اخص. لان المصالح الحقيقية والحسابات العقلانية تقضي ان تقوم الدول الحكيمة الواعية بتوفير عدد من السلالم والبدائل والخيارات والعروض للدول المعادية في الحروب الطويلة الطاحنة، تغريها بمزايا وفضائل وحسنات الصلح والتعقل والاعتدال وضبط النفس، وتشجعها على التراجع عن الاهداف القصوى والمطالب المستحيلة والمواقف المتصلبة والمتشددة والمتطرفة، وتقنعها بفوائد ومنافع ومكاسب الانتقال من الخيار العسكري المكلف والعنيف والخائب الى الخيار السياسي المعقول والواقعي والممكن، ومن الاحتكام الى السيف الى الاحتكام الى المنطق، ومن الصراع الدموي المدمر الى السلام العادل والمتوازن والمشرّف الذي يحقن الدماء ويزيل البلاء ويعيد فرصة استئناف البناء.

٨ . اهمية وضرورة الاعتدال :

نتعلم من التاريخ ان الشعوب والامم والدول المتحاربة كانت تتفق في الرأي بعد كل حرب طويلة ان احدا لم يكسب شيئا على الاطلاق، وان الجميع كانوا من الخاسرين. ولايمكن للحرب ان تحقق مكسبا او ربحاً على الاطلاق الاذ اذا جاء النصر سريعا. ولكن مثل هذا النصر لايمكن ان

يحرزه الا الطرف المعتدي الباديء بالعدوان. والباديء اظلم. فأذا صمد الطرف المعتدى عليه، وتصدى للعدوان، واستطاع ان يرد كيده الى نحره بالهجوم الوقائي المسبق او الدفاع الرادع الفعّال، فمن المحتوم ان تكون مثل هذه الحرب حرباً من نوع الحروب الطويلة. وحينذاك سيكون الضرر متبادلا والاذى شاملاً للطرفين المتحاربين، الا اذا انتهت الحرب بسلام عادل واتفاق متوازن وتفاهم متقابل، طوعاً واقتناعاً واختياراً او قسراً وانصياعاً واضطراراً.

وطالما ان الطرف المعتدي قد بدأ الحرب بالعدوان طمعاً في الكسب والربح والتوسع والتسلط، فأنه سيكون في المعتاد من الاحوال الطرف الاكثر استعدادا للسلام اذا خابت اهدافه وفشلت مساعيه واخفقت جهوده ومحاولاته، الا اذا كانت الاطماع والاحقاد والشهوات والغرائز قد اعمت بصره وبصيرته، وافقدته عقله وصوابه، واحالته الى وحش هائج وحيوان مفترس. كما ان الطرف المعتدى عليه سيكون الطرف الاكثر طلباً للانتقام بالاصرار على النصر الذي اثبتت التجارب العديدة انه مجرد سراب في صحراء اوجدتها الحرب الطويلة، الا اذا كان يتمتع بقدرة فائقة ودرجة عالية من الحكمة والروية والعقلانية والشعور بالمسؤولية والنظرة الواعية الثاقبة المتزنة البعيدة. لان هذه الرغبة الجامحة للانتقام قد تكون عاطفة طبيعية في مثل هذه الظروف، ولكنها لايمكن ان تعود على صاحبها بحسابات الاجل البعيد والمدى الطويل والافق الواسع والمنظور التاريخي الا بالمردودات العكسية والمزيد من الويلات والاهوال والشدائد. وحتى لو استطاع الطرف المعتدى عليه ان يحقق رغبته الجامحة في الانتقام تحقيقاً كاملاً على ارض الواقع، فأن مثل هذه الخطوة لايمكن ان تكون الا حلقة جديدة في سلسلة طويلة، ومرحلة اخرى من المراحل المتلاحقة والمتعاقبة، في دائرة مفرغة ودوامة مغلقة من الانتقام والانتقام المضاد الى مالا نهاية.

ومن هنا، ينبغي على السياسي المحنك او القائد الحكيم ان يكون على استعداد للنظر في امكانية ايقاف الحرب واحلال السلام، وان لايترك بابا

الا ويطرقه في محاولة الوصول الى اتفاق مع الطرف الاخر، بمجرد ان يصبح واضحاً ان الخيار البديل الوحيد يعني اطالة امد الحرب واستمرارها وتفاقم واستفحال خسائرها وفواجعها واحزانها واهوالها، دون فائدة ولانتيجة ولا ضرورة ولا مصلحة. ومن الحكمة ان يثابر الطرف المطالب بالسلام على خطه المعقول ونهجه المعلن، حتى ولو كان الطرف الاخر يصر على الاستمرار في الحرب، او يتمسك علانية على الاقل بالمواقف المتطرفة والمطالب المتشددة والشروط التعجيزية. فما ان توافق الحكومة المعتدية المتعنتة على اي شكل من اشكال المقايضة، كائنة ماكانت سلباً او ايجاباً، بعروض السلام ومقترحات الصلح حتى تكون قد قطعت الخطوة الاولى من الطريق الذي سيقودها في النهاية لامحالة، طال الزمن ام قصر، الى التخفيف من غلوائها وتشددها، والتقليل من عنادها واصرارها، والاقتراب المتزايد ولو نسبيا من الحلول المعقولة والتسويات الواقعية.

وسواء ارتضت الحكومة المعتدية مثل هذه العروض والمقترحات ام رفضتها، لافرق في النتيجة عملياً بين الحالتين، فأن سيطرتها على جيشها وشعبها ستضعف وتتصدع، وستتعرض سلطتها في وطنها الى الاهتزاز والتخلخل. وعلى هذا النحو، وبالاستمرار في تقديم عروض السلام ومقترحات الصلح دون كلل ولاملل، سيدس الطرف الحكيم المعتدل المسالم وتدا مميتاً، ويدق اسفينا قاتلا، ويحدث شرخا واسعا وجرحا مفتوحا، بين تلك الحكومة المعتدية المتعنتة المتشددة وشعبها، دون ان يطلق رصاصة واحدة. لان العسكريين والمدنيين معاً من ابناء شعبها يميلون اصلاً الى تفضيل السلام وترجيح الصلح. وسيكون هذا الميل اقوى واوضح واغلب وافعل، اذا اقنعتهم معارك الحرب ودروس الميدان ونتائج القتال وتجارب الواقع، ان وهم او حلم النصر السهل السريع الذي راودهم واغواهم واغراهم والذي لايتطلب صبرا طويلا ولايستدعي جهدا ثقيلاً ولايتكلف ثمناً غاليا، لم يعد ممكنا، بل اصبح مستحيلا، وان الطرف الاخر يقدم بالفعل عرضا حقيقيا بالسلام العادل والمشرف الذي لايلطخ

شـرفهم بالعـار ولايمس استقلالهم بـالسوء ولايهـدد وطنهم بـالاحتـلال ولاكيانهم بالانهيار او الضياع، بل يحترم ويصون مصالح وحقوق واراضي وحدود الطرفين المتحاربين في وقت واحد وعلى حد سواء. ومن الافضل بالمقياس المطلق ان لاتنشب الحرب لو امكن. وربما يتحقق النصر احيانا سريعاً خاطفاً حـاسماً. ولكن اذا نشبت حـرب طويلة، فمن الاصـوب والاعقل والانفع، بالمقياس النسبي، ان تحاول ايقافها بأسرع زمن واقصر وقت، وان تختصر مدتها ماأمكن، بيوم او اسبوع او شهـر او سنة، وفي نظري حتى الساعة الواحدة تتمتع بأهمية فائقة اذا خصمناها من حساب الحرب واضفناها الى حساب السلام، بدلاً من الاصـرار على تـأجيجها واستمـرارهـا الى اطـول ممـا تقتضي دواعي الحكمـة او تستلزم دوافـع المصلحة. وتلك هي الطريقة الصحيحة المثلى في ايقاف الحرب واحلال السلام والتحول من الحوار بالسيف والعنف الى الحوار بالعقل والمنطق، واستبدال القتال بالتفاهم والخيار العسكري بالخيار السياسي. وسيكون يوما اسودا وكابوسا رهيبا للوطن، اي وطن على الاطلاق، وربما للعالم اجمع في بعض الظروف، اذا لم يتعلم رجال الدولة درسا من التاريخ خلاصته: انه لاتوجد محطة متوسطة بين سلام الخضوع المطلق والاستسلام الشامل دون قيـد ولا شرط، وبـين سلام الاعتـدال الحقيقي والاتفاق المشـرّف والعادل والمتوازن، ولا منزلة بين هاتين المنزلتين. وقد اثبت التاريخ ايضا، ان سلام الخضوع المطلق، الذي يفرضه المنتصر على المهزوم فرضا كاملاً بقوة السلاح والحديد والنار، سيورط المنتصر في متاعب جمعة وصعوبات جسيمة، الا اذا وصل في تحقيقه وفرضه الى درجة الابادة الكلية الشاملة للمهزوم. ولكن هذا الاحتمال ليس وارداً ولاعملياً ولا واقعياً ولاممكناً.

كما اثبت التاريخ، من جهة اخرى، ان سلام الاعتدال الحقيقي يتطلب تسوية معقولة الى الحد الذي يدفع بالمهزوم ليس فقط الى القبول به والموافقة عليه، بل يتطلب ايضا ان يدرك المهزوم ادراكا واضحاً، وان يقتنع اقتناعاً راسخاً، بفوائد ومزايـا وحسنات مثـل هذا السـلام، وان حرصـه على

مصالحه نفسها يلزمه بالدفاع عنه والمحافظة عليه. حينذاك يكون السلام في مصلحة الطرفين المتحاربين معا بعد ان تضع الحرب اوزارها وتسكت مدافعها وتنطفيء نيرانها. دعونا نضرب مثلا واضحا، لايزال قريبا نسبيا، من الامثلة العديدة التي يزخر بها ويحتكم لها التاريخ الاوربي الحديث.

ونعتقد يقينا ان ابرز واعظم وافضل مساهمة قدمها القائد البريطاني (ويللينجتون) للمستقبل الاوربي في عصره، بعد ان احرز النصر على (نابليون)، هي التسوية السلمية العادلة والمعتدلة والكريمة والمشرفة التي عقدها مع فرنسا في حينه. وقد حرص حرصاً فائقاً في احتلاله للبلد المهزوم على حماية الشعب المندحر من الظلم والاضطهاد والاغتصاب والاذى والضرر، والتزم التزاما صارما بالقيم الاخلاقية والمبادىء الانسانية،

وحافظ بوعي واخلاص وحسن تقدير وبعد نظر على ارواح واعراض واموال وممتلكات المواطنين الفرنسيين من عبث العابثين وجور الجائرين وحقد الحاقدين وانتقام بعض المنتصرين. وقد اختط هذا النهج في السلم تدعيما وتوطيداً وتتويجاً للانتصار، تماما كما كان قد اختطه في الحرب ايضا عندما كان من شأن هذه السياسة ان تساعد جيوشه في زحفها وغزوها وتقدمها على الارض، وتعينها على الاقتصاد في جهدها والاقتراب من هدفها والتفوق على عدوها. ولم يدخر جهدا في كبح جماح حلفائه من المنتصرين الاخرين، والتخفيف من غلوائهم، ومنعهم من الاستسلام الى الغرائز العمياء وارتكاب الاعمال الانتقامية العشوائية الطائشة. بل انه لم يتردد في حماية المعالم الحضارية والانصاب التاريخية للعاصمة الفرنسية (باريس). فأقام نقاطا بريطانية للحراسة من حولها، خوفا من اقدام القائد الالماني (بلوخر) على نسفها وتفجيرها وازالتها من الوجود. واصر اصرارا شديدا في جميع الظروف والاحوال على ان تكون القوات العاملة بأمرته مثالا نموذجيا في التصرف السليم والسلوك المهذب والادب الجم والخلق الرفيع.

وما ان بدأت مناقشات الصلح ومحادثات السلام حتى القى بكامل ثقله ونفوذه ضد مطالب بروسيا والدول الالمانية الاخرى بتمزيق فرنسا الى اشلاء واوصال واشتات متناثرة مبعثرة، وارغامها على دفع تعويضات باهظة، طلباً للامن ودعماً للاقتصاد الذي تضرر كثيرا من الحرب. وادرك بوضوح غير اعتيادي ان التطرف في معاملة المهزوم بطريقة قاسية لايمكن ان يكون عملا حكيما، وان سلام الاستسلام المجلل بالذل والعار والظلم، والمفروض على الطرف المندحر بقوة السلاح، لايمكن ان يحقق لصاحبه المنتصر مايتوخاه من امن حقيقي وسلام وطيد واستقرار راسخ. واثبت التاريخ في مرحلة لاحقة، ان النتيجة الطيبة التي حققها قد بررت السياسة المعتدلة التي انتهجها. وقد استطاع (ويللينجتون) ان يحقق السلام لانه فهم الحرب فهما واضحاً دقيقا على حقيقتها كما هي بالفعل. وكان القائد العسكري الاقل ميلا الى العنف والقتال والاستعلاء في زمانه، والاكثر تحررا من شهوة المجد وفورة الحقد ونزوة التعصب ولذة ازهاق الارواح واهراق الدماء. وانتصب من هذه الناحية المعينة بالذات، شامخاً متميزاً بين اقرانه وانداده. وانفرد بكونه القائد الذي لايمكن ان يهزم في الحرب، لانه ادرك اهمية وضرورة وفائدة السلام. فوضع الاهداف المتوخاة دائما نصب عينيه، بدلا من الوقوع في غرام وأسر الوسائل التي تتحكم بها وتسيطر عليها الظروف والمراحل، وامتنع تماما عن استبدال الاهداف بالوسائل او تطويعها لها او اشتقاقها منها. وعلى خلاف (نابليون)، لم تصبه عدوى رومانسية الحرب، التي تولد الاوهام والاباطيل، وتطلق الغرائز والشهوات من عقالها، وتدفع بصاحبها الى مهاوي الغرور ومطبات العدوان. وتلك هي العلة السببية الاساسية التي تفسر لماذا وكيف اخفق (نابليون) وهزم، ولماذا وكيف تفوق (ويللينجتون) وانتصر.

واذا نظرنا الى الموضوع من زاوية اخرى، فسنجد انه من المحتوم ان يخف التوتر في النهاية، اذا امكن تأجيل الحرب مدة كافية. وقد تكررت هذه الظاهرة مرات عديدة في التاريخ. والسوابق معروفة والامثلة

واضحة. لان الظروف تتغير وتتبدل، ولا تستقر او تستمر على وضع ثابت معين او نمط دائم بالذات. ولكنك ستتعرض حتما الى الخطر دائما اذا كنت قليل الصبر كثير التعجل سريع الانـدفاع. واذا لاحت نـذر الحرب في الافق، وكان الجو مشحونا بالاخطار والتهديدات، فأن الوضع لايمكن ان يهدأ ويعود الى الاستقرار مجددا، الا اذا مارس الطرفان المرشحان للقتال معا اقصى واعلى اشكـال ودرجات ضبط النفس والتـزام الحذر وتحكيم العقل. ومن المحتوم ان يتحقق الانفراج، وان يتطور الوضع الى الافضل في النهاية، اذا امكن تجنب الحرب، دون التعرض الى لعنـة الاحتلال، ودون التلوث بعار الاستسلام.

٩ . وهم المعاهدات والمواثيق:

لعل اعظم واهم عبـرة واوضح وابـرز خبرة، يمكن ان نتعلمهـا من استقراء التاريخ واستنطاق الماضي، هي تلك التي تقول ما خلاصته:
ان المعاهدات التي تعقدها الحكومات لاتـدوم الى الابد عـلى الاطلاق، ولاتتمتع بقوة الثبات والاستقرار والاستمرار الى مالانهاية من الزمان. بل انها تستمر وتدوم، طالما ان الاطراف الرسمية التي وقعت عليها والتزمت بها قد بقيت على احترامها لها اقتناعاً منها ان مصالحها الحقيقية والحيوية والاساسية توجب وتستلزم وتستدعي استمـرارها ودوامهـا. او، بعبارة اخرى، ان استمرارها ودوامها وسريان مفعولها، كان دائما يتوقف مباشرة على حسابات المصلحة وموازين القوة وظروف السياسة وحقائق وخصائص العلاقات التعاقدية بين الاطراف المتعاقـدة، وينعكس عنها، ويستجيب لها، ويرتبط بها اوثق واشد ارتباط. وفي ضوء ماتقدم، يبدو الكلام الطنّان الرنّان المكرر الفارغ الاجوف عن «قدسيـة المعاهـدات الابديـة وحرمـة المواثيق الازلية»، هذراً ولغواً وهذياناً لايطيقه ولايستسيغه ولايستحسنه علماء السياسة وفلاسفة التـاريخ، وان اصـاب هذا الهـوى قلوب فقهاء القانون احياناً بعقلهم النظري ومنطقهم المطلق وفكرهم المجرد.

ولامفر من مواجهتنا للحقيقة الواقعة، شئنا ام ابينا، وأحببنا ام كرهنا، وهي: ان العلاقات الدولية محكومة بحسابات المصلحة وموازين القوة، وليس بالمثاليات المشوشة والقيم الاخلاقية والمباديء الانسانية. ومن الواضح ان الامن لايمكن ان يتحقق للطرف الذي يتفاوض من موقع الضعف. ولكن نتائج واحتمالات التفاوض تكون اطيب وافضل اذا دار بين طرفين يبدو جليا انهما قد تعادلا او تقاربا في القوة. ففي مثل هذه الحالة، تقوم التسوية على الادراك المتبادل والمشترك، ان احتمالات انتصار طرف واحد على الطرف الاخر انتصاراً كاسحاً كاملاً، لايتناسب على الاطلاق مع احتمالات خسائر واضرار وتكاليف وعواقب الاستنزاف المتبادل، ولا مع احتمالات قيام اطراف خارجية ثالثة بأستغلال هذه الظروف والفرص والسوانح للهيمنة على الطرفين المتحاربين معا.

بالاخص اذا كانت هذه الاطراف الخارجية الثالثة قد اتخذت موقف الانتظار، تتفرج على الصراع الدائر من بعيد، وتراقب التطورات عن كثب، وربما تتصيد في المياه العكرة احياناً، وتسكب النفط على النار وتزيدها تأججاً واشتعالاً، او تتدخل تدخلاً نسبياً على هذا النحو او ذاك في الوقت الذي يلائمها وبالشكل الذي تعتقد انه يخدم مصالحها، ومن المحتمل ان يكون تدخلها محدودا على نطاق ضيق وبأسلوب غير مباشر.

وقديما قال الرومان في مفهوم اصبح تقليديا الان: «اذا اردت السلام، فأستعد للحرب». ولكن الحروب العديدة التي خاضها الرومانيون القدماء، والسلسلة الطويلة من الحروب التي نشبت منذ ذلك الحين وحتى الان، قد اثبتت فساد هذا المنطق، واظهرت مايعتوره من خلل وعطل وخطل، او كشفت على الاقل انه قد اتسم ببساطة التعبير وقلة التفكير وسذاجة التدبير على حد سواء، ولم ينل على ايديهم، ماكان يستحقه من تحليل واهتمام ونظر.

وقد افاد (كالفين كوليدج) ذات يوم في مقولة عابرة بعد الحرب العالمية الاولى: «لم تمتلك امة على الاطلاق جيشاً لجباً جراراً على درجة كافية من

الضخامة والقوة بحيث يمنع عملياً تعرضها الى الهجوم في وقت السلم، ويضمن مسبقاً احرازها للنصر في وقت الحرب».

لقد صرفت الشطر الاعظم من عمري، وعكفت زمناً طويلاً اخاله الان دهراً كاملاً، على دراسة ظاهرة الحروب، وتحليل الاسباب والظروف والعوامل التي ادت الى نشوبها. واقتنعت بالنتيجة في خاتمة المطاف ونهاية الطريق، ان الشعار الروماني القديم ليس صحيحاً، وان الشعار الاصح والافضل والاقرب الى الواقع والادعى الى التصديق قد يكون الشعار القائل «اذا اردت السلام، فأفهم الحرب». وقد تأكدت قناعتي بهذا المفهوم الجديد، وكسبت المزيد من المصداقية، في ضوء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)، وماشهدته من معارك كبرى واستراتيجيات مبتكرة، وماتلاها من احداث فاصلة وتطورات حاسمة. لانها وضعت العلامات الصحيحة للمرور على الطريق الموصل الى السلام. وقد انطوت علامات المرور على آمال اطيب واعرض بالنجاح من الخطط الجاهزة للسلام التي شهدناها بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٧)، والتي ثبت في وقت لاحق انها قصور من الرمال وقلاع من الكرتون.

وتنطوي كل خطة للسلام، كائنة ماكانت، ليس فقط على احتمالات الفشل، بل تتعداها ايضاً الى اخطار داهمة وتهديدات حقيقية، لاتستثني احداً على الاطلاق. وعلى مثال جميع الخطط الموضوعة والمرسومة والجاهزة، الا اذا كانت تتعلق بالابنية المادية والعمارات السكنية والانصاب العمرانية، فأن خطط بناء السلام قد تتعرض الى التصدع والسقوط والانهيار بفعل اهمالنا وتجاهلنا وتناسينا للطبيعة الانسانية وخصائصها المتميزة وغرائزها المتأصلة واحكامها الاساسية. والاسوأ من ذلك كله، ان الامال التي نعلقها على امثال هذه الخطط كلما كانت اكبر واعظم واعرض، بعد حرب قديمة سابقة وضعت اوزارها، كلما ازداد الاحتمال ان تصدعها وانهيارها وسقوطها سيؤدي الى نشوب حرب جديدة لاحقة، لم تنشب بعد، ولكنها ستنشب بالتأكيد في يوم قريب او بعيد من الايام.

لاتوجد وصفة سحرية خارقة جاهزة للسلام يمكن ان تكتب كما يكتب الطبيب مايسمونه اصطلاحا بوصفة الدواء. ولكن يمكن استخلاص بعض المؤشرات العملية والمبادىء الاولية من تجارب وخبرات الانسان في كل زمان ومكان، بأستقراء التاريخ وتحليل الماضي، استنباطاً للدروس المستفادة، واستخراجاً للنتائج والعبر. ومن تلك المؤشرات والمبادىء، على سبيل المثال، لا الحصر، مايمكن تقديمه تلخيصاً وعرضه ايجازاً كما يلي:

ادرس ظاهرة الحرب، وتعلم من تاريخها. كن قوياً اذا امكن. ولكن كن هادئاً في جميع الظروف والاحوال. تمسك دائما بالصبر الجميل والنفس الطويل والنظر البعيد. لاتسد المنافذ والمخارج والابواب على عدوك من جميع الجهات، وساعده اذا استطعت على انقاذ ماء وجهه. ضع نفسك في مكان عدوك، فتفهم كيف ينظر الى العالم من حوله ولماذا يتصرف كما يفعل. ابتعد عن الادعاء بالحق المطلق والكمال المعصوم ابتعادك عن الشيطان، لانه يعمي بصرك وبصيرتك، ويوقعك في وديان التعصب ومهاوي الغرور ويوردك موارد التهلكة، حيث لاينفعك عون ولامعين. وانج بجلدك من وهمين قاتلين، وقاك الله منهما، وابعدك عنهما: الوهم الذي يغويك بالنصر الكامل المطلق، والوهم الذي يغريك بالحرب الكلية الشاملة ويقودك الى الاقتناع الباطل والخطأ الفادح بأن الحرب لايمكن ان تكون محدودة بأي شكل من الاشكال. وقد وردت جميع هذه الملاحظات، تلميحاً او تصريحاً، بالعبارة او بالاشارة، في اقدم كتاب معروف في العالم طراً عن قضايا ومشكلات الحرب والسلام، واقصد بذلك الكتاب الذي وضعه المفكر الصيني (صن تزو) بعنوان (فن الحرب) سنة (٥٠٠ ق.م). والحروب العديدة التي وقعت منذ ذلك الحين، ومعظمها غير ضرورية ولا مجدية، قد اثبتت كم كان قليلا ماتعلمته الامم من التاريخ. ولكن هذا العلم القليل والدرس الصغير ربما اصبحا الان الامل الوحيد والاخير للدفاع عن مصير الانسانية ومستقبل الحضارة في الظروف العالمية الراهنة. فعسى ان يكون ماعرفناه كافياً، وما تعلمناه مفيداً.

١٠. مشكلة الحرب المحدودة :

هل يمكن للحرب ان تكون محدودة؟ يجيب «المنطق» على هذا السؤال بقوله: كلا. لان الحرب هي المجال المفتوح للعنف المطلق. وليس من المنطق في شيء ان تتردد في استخدام الحد الاقصى من العنف اذا ساعدك على كسب الحرب واحراز النصر. ولكن «التاريخ» يجيب قائلاً: ان مثل هذا المنطق ليس الا سخفاً ولغواً وهذراً. لانك تذهب الى الحرب، اذا كنت عاقلاً، كارهاً مضطراً، دفاعاً عن النفس وردعاً للعدوان وتصدياً للخطر ودفعاً للظم وكسباً للسلام الحقيقي الوطيد العادل المشرف، وليس حباً في القتال وتلذذاً بالعنف وتعطشاً للدماء وازهاقاً للارواح. وقد يضيع هذا الهدف بالمغالاة في العنف، بالاخص اذا كان جامحاً عشوائياً طائشاً مدمراً، وليس منضبطاً ولامحسوباً ولا عقلانيا ولا مقننا. فيؤدي انتصارك الى عواقب اوخم ومردودات اسوأ. فتكسب الحرب وتخسر السلام. او، بعبارة اخرى، تضمن الحاضر وتضرب بالمستقبل عرض الحائط. فكأنك قد استجرت من الرمضاء بالنار او استبدلت المرض بالوباء. ثم ان الحقيقة التاريخية الراهنة الثابتة، في معظم الامثلة والاحوال على الاقل، هي ان الحرب المعاصرة قد قامت بالفعل على حدود معينة، التزمت بها، واستجابت لها، بأشكال ودرجات متعددة مختلفة. واقرأ ماكتبه «يوليوس قيصر» عن حملاته في بلاد الغال، فتدرك ان (هتلر) كان رجلاً طيباً صالحاً وانساناً معتدلاً مهذباً بالمقارنة مع هذا الرمز التاريخي والرسول الروحي للحضارة الرومانية القديمة، الذي لايزال طلاب الدراسات الكلاسيكية يهيمون به حبا واعجابا، ويكيلون له حمدا واحتراماً. ولكن الرومان في اسوأ احوالهم وأشرس حروبهم كانوا معتدلين بالقياس الى اجدادنا القدماء نحن الانكليز، وبالقياس ايضاً الى الاجداد القدماء للامم الاوربية الغربية الاخرى، وبوجه خاص في العصور الوسيطة المظلمة التي اعقبت انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية وزوال سلام الاقوياء الذي فرضته على

العالم الاوربي المعروف حينذاك، ونشرته في ربوعه، والمسمى بالاصطلاح اللاتيني (الباكس رومانا ـ PAX ROMANA). وقد كان من عادة السكسونيين والفرنكيين ان يقوموا بذبح الابرياء الذين يقودهم سوء حظهم ويدفعهم شؤم طالعهم الى الوقوف بوجه هؤلاء الغزاة والفاتحين او الوقوع على طريقهم، رجالاً ونساءاً واطفالاً، دون تمييز ولا استثناء، وهدم وحرق وتخريب المدن والقرى التي تنالها ايديهم وتطالها سيوفهم وتدوسها اقدامهم وحوافر خيولهم، دون وازع ولا رادع. ومن المهم ان نعرف ونفهم كيف ان «الحروب الكلية الشاملة» التي نشبت في تلك العصور القديمة السابقة قد تطورت تدريجيا، واكتسبت بعداً انسانياً او طابعاً اخلاقياً، ازداد وضوحا ورسوخا في عصور لاحقة مع مرور الوقت وانقضاء الزمن. وهي قصة تراوحت من عصر الى عصر بين المد والجزر، والصعود والهبوط، والتقدم والتأخر. ولكن حصة المد والصعود والتقدم في الحساب النهائي والجرد العام كانت اكبر واعظم من حصة الجزر والهبوط والتأخر. وقد لعبت اخلاقيات وقيم وقوانين الفروسية دورا بارزا في تحقيق هذا التطور واحراز هذا التقدم. ويعود الفضل الاكبر والزخم الاعظم في نشوء وانتشار هذه الظاهرة الى اصل عربي ومصدر عربي. وينبغي ان نعترف دون حرج ولاتردد ان العرب كانوا اسرع وأسبق من الاوربيين في ارساء الحرب على القيم الاخلاقية والمبادىء الانسانية، وتقنينها بالضوابط والحدود. بل انهم كانوا الاساتذة والروّاد في هذا الميدان بالذات. وعنهم نقلناها، ومنهم تعلمناها، وبهم عرفناها(*).

(*) ماشبه هذه العبارة في عدلها وانصافها واعترافها بالحق، بالعبارة المأثورة التي افادها ذات يوم اسبق المفكر الفرنسي العلامة (غوستاف لوبون) في كتابه الموسوعي الرائع المعنون «حضارة العرب» بقوله:

«لم ير التاريخ فاتحا اعدل ولا ارحم من العرب».

ترجمه عن الفرنسية عادل زعيتر.

طبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة سنة ١٩٦٩م. ص ٦٠٥ ـ المعرِّب.

١١ . مشكلة استخدام القوة العسكرية :

كلما ازددت تفكيرا بتجارب التاريخ، كلما ازددت اقتناعاً ان الحلول والخيارات التي وفرتها او حققتها القوة العسكرية لاتتمتع بالثبات ولاتتسم بالاستقرار ولا تتميز بالدوام. بل ان الشكوك والهواجس والتحفظات قد اصبحت تنتابني وتساورني وتراودني حتى في تلك الامثلة والشواهد والحالات التي توحي، في الظاهر على الاقل، ان القوة العسكرية قد انقذت اصحابها من الاخطار الداهمة والتهديدات الصارخة والمتاعب الجسيمة. ومع ذلك، لانزال نواجه مشكلة مزمنة باقية تبدو مستعصية. وهي : اذا كان العالم الانساني على حاله القائم كما نعرفه اليوم، وكان الواقع الحي بوضعه الراهن كما نلمسه الان بالفعل، فهل يسعنا ويمكننا منع وتحريم ونبذ استخدام القوة العسكرية في جميع انواعها وصورها واشكالها، دون ان تتعرض الحضارة الانسانية الى خطر الردة الهمجية البربرية الوحشية الى عصور الظلام والانحطاط والتخلف، ودون ان نجازف بضياع وتبدد وزوال المكاسب الرائعة العظيمة الجمة التي حققها وانجزها العقل البشري في تاريخه الطويل وتطوره المثير وتقدمه المذهل؟

وماذا سيفعل المعتدى عليهم للدفاع عن انفسهم وحقوقهم ومصائرهم؟ وهل سيمتنع المعتدون عن العدوان؟ وكيف يمكن للحمائم العزلاء المسالمة والحملان البريئة والوديعة ان تقاوم الصقور الشرسة المفترسة والذئاب الكاسر المهاجمة، دون مخالب ولا انياب؟؟ كيف نواجه هذه المعضلة، ونخرج من هذه الدوامة؟؟..

يبدو من الناحية التاريخية الواقعية العملية ان استخدام القوة قد يكون مبررا، وربما يصبح واجباً، في بعض الاحيان. ولكنها القوة العاقلة التي تخدم الغاية العادلة. لان القوة هي الوسيلة، وليست الغاية. ولان القوة في حد ذاتها عمياء، كما ان العدالة في حد ذاتها عزلاء. ولان الوسيلة تستمد اخلاقيتها ليس من ذاتها، ولكن من غايتها. فأذا اجتمع العقل بالعدل،

وتوحدت قوة الحق مع حق القوة، واقترنت القوة بالعقلانية والعدالة في وقت واحد وعلى حد سواء، لاتعود القوة عمياء ولا العدالة عزلاء. وحينذاك تكون المعضلة قد انتفت، والمشكلة قد حلت، من الناحية النظرية على الاقل.

ثمة حل واحد لم يجربه احد الى حد الان، او مخرج اخر معين بالذات، لم تمسه يد ولم تره عين حتى هذه اللحظة. ولكنه لايزال يهيم بعيدا ويحلق عاليا في اجواء وعوالم المثاليات المجردة المطلقة. فأفاد (برنارد شو) ذات يوم في روايته المسرحية الساخرة المعنونة (الميجر بربارا): ان الحروب ستستمر الى ان ينقلب صنّاع البارود الى اساتذة في الفلسفة اليونانية القديمة او ينقلب اساتذة الفلسفة اليونانية القديمة الى صنّاع بارود. ويبدو انه قد استوحى واستمد واشتق هذه الفكرة من المقولة اليونانية القديمة التي افادها الفيلسوف (افلاطون) ذات يوم في كتابه ذائع الصيت خالد الذكر المعنون (الجمهورية). وقد سرت تلك العبارة مسرى الامثال التي تتناقلها الاجيال، وذهبت مذهب الاقوال التي تستوحيها الاعمال. وكان مضمونها: ان صلاح الدنيا لايمكن ان يتحقق الا اذا كان حكم الناس موكولا الى افضل الناس. او، بعبارة اخرى، ان الدولة لاتستقيم ولاتدوم الا اذا حكم الفلاسفة او تفلسف الحكام.

ويبدو ان الدراسة العلمية والعقلانية والمنهجية للحرب، واسبابها وظروفها ونتائجها، بأعتبارها ظاهرة تاريخية وحقيقة واقعة، هي ضرورة انسانية من الضرورات الاساسية الحيوية، تفادياً للعنف المطلق، وتجنباً للدمار الشامل، واقتصاداً في استخدام الوسائل والخيارات العسكرية استخداما واعيا وحكيما ومخططا ومحسوبا، وتحديدا للاضرار والخسائر التي تترتب عليها وتنجم عنها، ماوسع وأمكن. وستبقى كذلك على الارجح في المدى المنظور والمستقبل المرئي، حتى يرث الله الارض والناس اجمعين، في يوم قريب او بعيد، اذا انفجر الجنون النووي وانطلق من عقاله، وافلت من عنانه، فقتل الزرع والضرع ودمر الاخضر واليابس، او انتهى عمر

هذه المجموعة الشمسية نهاية طبيعية في الازمنة الفلكية القادمة. الا اذا اصبحت الحروب نفسها من مخلفات ورسوم الماضي السحيق والتاريخ الغابر التي تكشفها التنقيبات وتعرضها المتاحف. وحينذاك، ستصبح الدراسات الاستراتيجية بدورها فرعا متخصصا دقيقا من فروع علم الاثار القديمة. والله اعلم.

الملحق :

التاريخ ادبا قصصيا

جورج ف. كينان



مقدمة وجيزة عن البحث والباحث
بقلم المعرِّب حازم طالب مشتاق

يعتبر جورج. ف. كينان من ابرز والمع اساتذة التاريخ واساطين الدبلوماسية في الولايات المتحدة الامريكية. وقد عمل، ولايزال يعمل، في هذين الحقلين على مدار عقود عديدة متعاقبة من الزمان. وخدم بلده سفيراً فوق العادة ومفوضاً للولايات المتحدة الامريكية في موسكو لفترة طويلة في مرحلة صعبة وعاصر عددا من اهم واخطر الاحداث الدولية والمؤتمرات العالمية، مشاركا ومراقبا ودارسا وباحثا. وكان طرفا اساسيا وبارزا في تخطيط وتنفيذ الاستراتيجية الامريكية في عصر (الحرب الباردة) بعد الحرب العالمية الثانية، وهي (استراتيجية الاحتواء). ونشر سلسلة من الكتب والدراسات والابحاث في الموضوعات التاريخية المختلفة، وبالاخص عن العلاقات الروسية ـ الامريكية ثم السوفيتية ـ الامريكية. ويأتي كتابه المعنون (التحالف المصيري : فرنسا وروسيا ونشوب الحرب العالمية الاولى) في طليعة كتبه المتخصصة والموسوعية. ويتميز عن سواه من المؤرخين والدبلوماسيين من اقرانه وانداده ومن ابناء جيله وجلدته بالعلم الغزير والاطلاع الواسع والعقل الجوّال والذهن المرن والتحليل الموضوعي والفكر الواضح والتعبير الدقيق والرأي المتوازن والتواضع الجم. فكان دائما مثالا للباحث الرصين والاستاذ القدير والدبلوماسي المحنك الحكيم.
وقد كانت هذه الدراسة هي المحاضرة التي القاها في الاكاديمية الامريكية للاداب والفنون بتاريخ ١٩٨٦/٣/٢١. وقد نقلناها الى العربية، توخيا للحقيقة وسعيا للمعرفة وطلباً للفائدة، عن النص الذي نشرته الجريدة الامريكية اليومية الواسعة الانتشار (الهيرالد تريبيون) في صفحتها الثقافية الاسبوعية بتاريخ ٥ ـ ١٩٨٦/٧/٦ في عددها المرقم (٣٢١٥١).

التاريخ ادباً قصصياً (*)

جورج. ف. كينان

قبل حوالي سبع وعشرين عاما، نشرت في الصفحة الثقافية الاسبوعية بجريدة (النيويورك تايمس) مقالا بعنوان (هذا كتاب في التاريخ، فهل يعتبر كتابا في الادب؟).

ولايزال هذا السؤال حياً في خاطري، حاضراً في ذهني.

هل يمكن للبحث التاريخي ان يكون عملا ادبيا؟ وقد حاولت في ذلك المقال القديم ان اجيب على هذا السؤال.

وكان الجواب الذي قدمته حينذاك في جوهره كما يلي: (ان التاريخ لايحتاج بالضرورة ان يكون ادبا. والحقيقة ان معظم مايكتب في التاريخ ليس ادبا. ومع ذلك، لايوجد في الاصول والاعراف والمبادىء والتقاليد والسوابق مايقرر ان التاريخ لايمكن، او لايجوز، ان يكون ادبا، او مايمنع كتابا في التاريخ من الدخول الى حظيرة الادب، من حيث حسن التعبير وسلامة اللفظ وجمال الاسلوب على الاقل). ومن الواضح ان بعض كتب التاريخ تدخل بالفعل عن جدارة واستحقاق في فنون وروائع الادب لاكثر من سبب. ومنذ قديم الزمان، نظر الباحثون والنقاد الى بعض الاعمال الكلاسيكية المتميزة في مجال التاريخ بأعتبارها نوعا رفيعا راقيا من انواع الادب.

ويوجد مؤرخون لامعون نعرف من مطالعاتنا انهم قد صنفوا في عداد الادباء المبدعين، من امثال (غيبون) و (ماكولي) و (رانكة) وسواهم. كما يوجد ادباء موهوبون ولعوا بالكتابة عن السير، وشغفوا بمواقف واخلاقيات العباقرة والابطال والخالدين، وتركوا اعمالا قيمة باقية لانزال نطالعها بشيء كثير من المتعة والغبطة والفائدة من امثال (بوسويل) و (ليون ايدل).

(*) نشر هذا البحث المعرَّب في (مجلة كلية الامن القومي) بالجمهورية العراقية. العدد الرابع. السنة الثامنة. بغداد. سنة ١٩٨٦. الصفحات ١٧١ - ١٨٤.

ولكن كتب السير على العموم تعد في الحقيقة شكلا من اشكال التاريخ.

وبعد مرور وانقضاء مايقرب من ثلاثة عقود حافلة من الزمان، اجد ان هذا السؤال لايزال واردا بل وجيها.

وهناك اليوم، كما كان هناك في الماضي دائما، اناس يعترضون اشد واقوى الاعتراض على الاسباب والذرائع والمبررات التي تدعو الى ادخال حتى شطر معين من كتب التاريخ في باب من ابواب الادب.

واعتقد ان المنطق الذي يأخذون به ويتعكزون عليه وينطلقون منه، يمكن ربما ان يكون في خطوطه الاساسية ومعالمه البارزة وحججه المعلنة كما يلي: (بالطبع، ان الانسان قد يجد احيانا في كتابات بعض المؤرخين شيئا جزئيا من خصائص ومزايا ودرجات روعة البيان واصالة التعبير وعذوبة اللفظ التي تتيح للقراء شعورا بالمطالعة الممتعة وربما المسلية. ولكن هذه الظاهرة العابرة تتعلق بالشكل والاسلوب حصرا واقتصارا، وليس بالموضوع او المضمون اطلاقا. وليس الادب ادبا بالشكل والاسلوب فقط، بل بالموضوع والمضمون ايضا.

وفي النهاية، ماذا يكون المؤرخ قد فعل او حقق بتأليفه كتاباً في التاريخ؟ ان المؤرخ لايكون قد حقق او فعل شيئا سوى انه قد قام بنبش وتنقيب وتنظيف البقايا والمخلفات المكتوبة او المرئية التي ورثناها من العصور الماضية والقرون الخالية. وازاح عنها طبقات واكوام الاتربة والرمال التي احاطت بها وتراكمت عليها.

ومن ثم عمد الى وصفها وتصنيفها وتنظيمها وتبويبها وترتيبها وسردها. واضاف اليها والحق بها وزاد عليها شيئا من شروحه، وقليلا من هوامشه، ونزرا يسيرا من ملاحظاته وانتقاداته. وهكذا، اتحفنا اخيرا بكتاب من كتب التاريخ. او بعبارة اخرى، لعب المؤرخ دور ساعي البريد او ناقل الخبر الذي جمع بعضاً من المعلومات واستخرج عددا من الحقائق، ثم قربنا منها وزودنا بها واطلعنا عليها.

هذا كله صحيح. وقد حدث بالفعل. ولكن المعلومات والحقائق التي

قدمها لنا وعرضها علينا قد استمدها من العالم الخارجي واشتقها من الواقع الموضوعي، ولم يبدعها او يبتكرها او يستولدها من وجدانه الموهوب وخياله الخلاق وتصوره الملهم وحسه العبقري المرهف. لا احد ينكر ان المؤرخ قد كشف واعلن تلك الحقائق والمعلومات. ولكنه ليس الا وسيطا للاطلاع او جسرا للعبور بين القراء والمطالعين من جهة، وبين تلك الحقائق والمعلومات من جهة اخرى. واذا كان لابد من تكريمه، فليكرمه الباحثون المتخصصون والمؤرخون المتفرغون، وليس الادباء الحقيقيون والفنانون المحترفون. هؤلاء هم اقرانه وانداده. فدعوهم يكرمونه عن جدارة واستحقاق على ماأبداه من صبر، ومابذله من جهد، وماأظهره من التزام موضوعي امين دقيق، في النبش والبحث والتنقيب، وفي التنسيق والتحقيق والتعليق. ولكن شتان مابين العمل الفني الابداعي والعمل العلمي الموضوعي. واذا كان ماكتبه المؤرخ قد انطوى هنا وهناك، عرضا وعفوا واتفاقا، على اسطر قليلة وجمل قصيرة وعبارات محدودة، تدل على رقة الوجدان، وتنم عن روعة البيان، وتشير الى قدرة فنية دفينة وموهبة ادبية كامنة، اكتفينا نحن الادباء والفنانون ان نعرب عن تقديرنا بأيماءة صغيرة وقورة متحفظة من الرأس. لانه حقا يحتاج الى التشجيع دون ادنى شك. ولكن دعونا لانخلط خلطاً مشوشاً عشوائيا بين الاعمال العلمية الدقيقة والتي حققها المؤرخون والتي نصنفها في خانة التاريخ، والاعمال الفنية الموهوبة التي حققها الادباء العباقرة المبدعون والتي نصنفها في خانة الادب الرفيع. والتاريخ تاريخ، وليس ادبا. والادب ادب، وليس تاريخا. والاديب يكتب ادبا. وليس تاريخا، كما ان المؤرخ يكتب تاريخا، وليس ادبا. ولايمكن ان يتطابقا اطلاقا، وان التقيا لماماً احياناً لقاء المسافر المسرع والمرور العابر والتقاطع الخاطف). يستطيع الانسان اذا شاء واراد او احب ورغب، ان يسوق كل هذه الحجج والقرائن والمقولات، للتمييز تمييزا واضحاً ودقيقا بين الادب والتاريخ، دفاعا عن الادب ومنعا من خلطه بالتاريخ، واستخفافا بالتاريخ واصرارا على ابعاده عن الادب. بل

ويستطيع ان يفعل اكثر من ذلك بكثير. فيمكنه ان يعرض هذا الموقف عرضا موضوعيا مقنعا بالبينة المتينة والعقلانية المتشددة، وان يدعمه دعما قويا بالسوابق القديمة المأثورة والمصادرة التاريخية الموثوقة. فيستشهد، بالعبارة التي افادها الفيلسوف اليوناني (ارسطو) عن المؤرخ اليوناني القديم (هيرودوتس) بقوله: «لو ان هيرودوتس نظم تاريخه شعرا، لبقي مؤرخا، ولما اصبح شاعراً». او، في مثال آخر، يستطيع ان ينسج على منوال الشاعر الانكليزي السير (فيليب سيدني) الذي نظر في القرن السادس عشر الى المؤرخ بأعتباره «انساناً يستحق العطف ويستثير الشفقة. يقضي حياته مثقلا بوثائق وسجلات قد قضمت منها الفئران والجرذان ماقضمته، والتهمت منها ماالتهمته، وابقت ما ابقته. ويعتمد في مصداقيته على مؤرخين آخرين من امثاله وعلى شاكلته من الاولين والسابقين والقدماء، هم اوثق مصادره واقوى حججه واوضح وادق شواهده، على الاكثر والاعم والاغلب. ولكن هؤلاء بدورهم يعتمدون في مصداقيتهم على اثبت القرائن وارسخ الاسس وامتن القواعد، وهي الاقاويل المتواترة والروايات المنقولة والقصص المسموعة والمتداولة والشائعة. ومن هنا، وفي ضوء هذا السبب، كان المؤرخ عبقريا عظيما ومفكرا خالدا ومبدعا رائداً، لا لشيء الا لانه اوسع اطلاعاً واغزر علما بما حدث قبل الف سنة مما يحدث الان في هذا العصر والاوان... تستهويه وتغويه وتسحره الاثار القديمة والخرائب الباقية والانقاض المتراكمة والمخطوطات الصفراء التي نخرها السوس واكل عليها الدهر وشرب. ولكنه يواجه الواقع الحي والزمان الجديد والعصر الراهن، مستغربا حائرا مدهوشا مضطربا... ثم انه لايبخل على احد بأحاديثه الطلية وقصصه الشيقة وطرائفه الممتعة التي تخلب الباب الشباب وتستولي على افئدتهم وقلوبهم، وتسلي الطغاة المستبدين في مجالس الانس والطرب والسمر. الم أقل لكم انه عبقري عظيم ومفكر خالد ومبدع رائد؟». يستطيع الانسان ان يقول شيئا من هذا المنطق، او كله، او يزيد عليه بأكثر منه، دفاعاً عن وحدانية وفرادة

الادب، ومنعا من خلطه بالتاريخ. وسوف لايكون على خطأ في بعض مايقوله على الاقل. وهناك بعض الناس في عالمنا الحديث وعصرنا الراهن ممن لايزالون حتى الان يأخذون بهذا الموقف على علاته، ويجهرون بهذا المنطق على عواهنه.

ولكنني استمحيكم عذرا، بأعتباري مؤرخا قد ادركته هذه الحرفة الشاقة والمهنة الصعبة التي مارسها طوال عقود عديدة متعاقبة من الزمن، اذا ابحت لنفسي ان ازعم ان الصورة ليست بهذه البساطة او السهولة او الحدية، كما قد تبدو من الوهلة الاولى، وان العلاقة بين التاريخ والادب قد تختلف عن العلاقة بين اللونين الاسود والابيض او بين القطبين المتنافرين والنقيضين المتباعدين والضدين المفترقين، وان هناك من الوشائج المتفاعلة والظلال المتداخلة والفوائد المتقابلة المتبادلة ماقد يرسم صورة اخرى ربما تكون اقرب الى الصواب والصق بالواقع واجدر بالتأمل. واعتقد بأخلاص وتواضع ان الحقيقة هي ان المؤرخ ليس مجرد وسيط او ناقل او جسر.

وليس صحيحا ان يقال ان المؤرخ لايمكن الا ان يكون طرفا خارجيا بالمقارنة مع المعلومات والوقائع التي يقدمها ويعرضها. لانه يمارس بالضرورة دورا ذاتيا وحضورا واضحا في الصورة العلمية التي يرسمها، ويتواجد بالطبيعة تواجدا داخليا حقيقيا في صلب وصميم الدراسة التاريخية التي يعلنها وينشرها. وهذه هي الناحية التي سأتطرق لها، واتحدث عنها، الان. من المسلم به والمتفق عليه، ان عمل المؤرخ ينصب على وصف الاحداث التاريخية الماضية التي وقعت في ازمنة قريبة او بعيدة وعصور قديمة او حديثة. واذا كان المؤرخ مؤرخا حقيقيا يستحق هذا الاسم فعلا، فأنه سيصفها بالدرجة القصوى الممكنة من الموضوعية والامانة والدقة، في اضواء وحدود وتضاريس الشواهد المتيسرة والقرائن المتاحة والحيثيات المتوافرة. ولكن المؤرخ لم يكن حيا موجودا بالفعل في الاحداث التي يصفها او العصور التي يدرسها، ولم يحضرها بنفسه ولا ابصرها بعينيه. او، حتى لو كان المؤرخ موجودا في المكان والزمان، وكان

شاهد عيان، فأن ماسيكتبه حينذاك قد يدخل في نطاق مانسميه بالصحافة الخبرية او السيرة الذاتية، ولكنه لايدخل في نطاق مانسميه بالتاريخ. واذا كان المؤرخ غائبا بالعيان عن تلك الوقائع والاحداث، لم يحضرها بالمشاهدة الوجاهية، ولا ادركها بالملاحظة المباشرة، فكيف اذن استطاع ان يصفها بفكره، وكيف امكنه ان يصورها بقلمه؟ وكيف بدأ واستكمل وانجز الكتب والابحاث والدراسات التي قدمها لنا وعرضها علينا؟ دعونا نواجه الحقيقة الصعبة المريرة القاسية. ليس في حوزة المؤرخ، من حيث المبدأ، الا الغاز وطلاسم ومعميات الالفاظ المكتوبة الصريحة او الغامضة والروايات المدونة الصحيحة او المحرفة والتفاصيل المنقولة المتفقة او المتضاربة، المحفوظة في بطون المصادر القديمة التي سلمت من عبث الانسان وظلم الزمان وجور النسيان، والمخطوطات الرثة البالية التي نخرها السوس ومزقها الاهمال واعتراها الاصفرار. وربما امتلك احيانا عددا قليلا من المخلفات المادية والادوات البدائية والصور المرسومة. او، اذا كان المؤرخ قد اختص بالتاريخ الحديث والمعاصر، فلربما امتلك صورة فوتوغرافية او صورتين. تلك هي عدته اولا واخيرا، او هكذا يبدو. ولكن هذه القرائن والدلائل على اختلافها وتعددها، لاتروي القصة الحقيقية الكاملة، بل انها تومىء لها، وتوحي بها، وتشير اليها، ضمنا وتلميحا واستبطانا. وفي هذه الحالة، يتوجب على المؤرخ ان يتفحصها جيدا بعين الناقد الامين الدقيق الصارم الذي يحلل ويغربل، ويقارن ويختار، ويستبقي ويستبعد، ويعزل الحقائق، كما يراها موضوعيا في ضوء العقل المنهجي، والمنطق العلمي والدليل المادي، عن القشور والمظاهر والشكليات والاخطاء والاهواء، للوصول الى الحقائق الثابتة والمعاني الصحيحة والدلالات الدفينة المطمورة والوقائع الماضية كما حدثت في حينه بالفعل، وليس كما يبدو انها قد حدثت بالفهم الساذج او السطحي او المرتجل للاجيال التي عاصرتها او لحقتها. ماالذي يأخذ بيد المؤرخ، ويعينه ويساعده على القيام بهذه المهمة؟

لاشيء، الا ما يمتلكه المؤرخ في نفسه بالفعل من معلومات ومواهب واسلحة وخصال، هي خلاصة تجربته وزبدة دراسته وبؤرة شخصيته وقاعدة منهجيته. وتتألف، بأختصار وتبسيط، من معرفته الدقيقة والواضحة والواسعة بالخلفيات التاريخية، ودرجة شفافيته الحضارية وحساسيته الثقافية، وموهبته الشخصية وقدرته العلمية على ربط وتنسيق وتوحيد القرائن المنفصلة والاشتات المبعثرة والنتف المتناثرة في صورة كلية عامة شاملة.

ولكن المؤرخ الحقيقي القدير يمتاز ويتميز عن سواه، بقدرته المبدعة على تصور الاحداث والعصور التي يدرسها ويصفها تصورا حياً واضحاً، واستلهامها في ذهنه وأستحضارها في فكره، كما لو كان قد عاصرها شخصياً بالفعل، فضلاً عن بصيرته الثاقبة التي عركتها الايام وصقلتها التجارب وشذبتها المتابعات، والتي لاتحيد ولاتخيب في تشخيص والتقاط الحقائق الاساسية والخصائص البارزة والنتائج الصحيحة من ركام وحطام وزحام الظاهرات الطارئة والوقائع العابرة والاوهام الخادعة. او بعبارة اخرى، اذا توخينا المزيد من الوضوح والتحديد، ينفرد المؤرخ الحقيقي القدير عن المؤرخين العاديين الاخرين في صفوفهم المتراصة وجيوشهم الجرارة وحشودهم الكثيفة، بخياله العقلاني الواعي المنضبط الواسع الخصب المرن المتوثب. ويشترك المؤرخ الحقيقي القدير مع الفنان العظيم الموهوب في هذه الخصلة العبقرية النادرة الفريدة الفذة، وان اختلفا في الموضوع والمضمون، وتباينا في المنهج والاسلوب. ولعل الحقيقة التي يمكن استخلاصها من هذه الملاحظة، او النتيجة التي يمكن استخراجها من هذه المقدمة، هي ان الدراسة التاريخية الرصينة المفيدة المثيرة الرائعة التي تشدنا وتستفزنا وتتحدانا وتستحثنا الى المزيد من التأمل والتفكير والاستبصار، قد تتميز احيانا بأتفاق الاجتهاد مع العلم، واجتماع الخيال مع العقل، واتحاد الجانب الذاتي الحي مع الجانب الموضوعي المجرد، والتقاء عقلية ومنهجية الفنان الملهم بعقلية ومنهجية الباحث التقليدي في التكوين الثقافي للمؤرخ

الحقيقي القدير. وتلك هي لحظة اساسية وحاسمة في ظهور الابداع العلمي الى النور وخروج البحث الاصيل الى الوجود.

وفي ضوء ماتقدم، لايمكن للدراسة التاريخية، التي وصفنا طبيعة تكوينها وطريقة استكمالها، ان تعتبر بأنها هي الحقيقة النهائية المطلقة الكاملة. لاتوجد، ولايمكن ان توجد، دراسة تاريخية من هذا النوع على الاطلاق.

وكل زمان يفسر التاريخ تفسيرا جديدا مختلفا عن زمان اخر سابق او لاحق. وكل مؤرخ، وكل جيل، وكل عصر، يعيد كتابة التاريخ من منظور واقعه الحي، ومن مرتكز تصوره المتميز للمستقبل، ومن منطلق شوقه الغائر وحنينه الغامر الى المثل الاعلى والغد المأمول. ولكن مالا يدرك كله، لايترك جله. واذا كان المؤرخ مؤرخا امينا دقيقا حقيقيا، ملتزما التزاما واعياً وصارماً بالمنهجية الموضوعية والطريقة العلمية، فسيبذل جهدا دائبا حثيثا، وسيحرص حرصا شديدا فائقا، ارتفاعا بدراسته التاريخية الى المستوى الاعلى والحد الاقصى من الحقيقة الواقعة والسلامة الفكرية، ماوسعه وامكنه. فلا يزعمن احد، ولايتوهمن احد، ان الدراسة التاريخية هي الحقيقة الواقعة بعينها وفي حد ذاتها. لان الدراسة التاريخية لاتعدو في النهاية ان تكون الا صورة ذهنية للحقيقة الواقعة. ومن اهم وابرز خصائص الماضي انه لايمكن ان يستعاد ماديا، ولا ان يستحضر عيانا، ولا ان يسترجع فعلا. او، بعبارة اخرى، ان الدراسة التاريخية لايمكن اطلاقا ان تتطابق تطابقا حرفيا كلياً كاملاً مع الحقيقة الواقعة التي حدثت في حينه كما حدثت، ومضت وانقضت وانتهت، ولم يعد في مقدور احد ان يتصرف بها كما يشاء او يتحايل عليها كما يهوى. اي، اذا توخينا المزيد من الايضاح والتبسيط، ان الدراسة التاريخية لايمكن ان تكون هي الحقيقة الواقعة كما حدثت في الماضي بالفعل، ولكنها هي الحقيقة الواقعة كما تبدو للمؤرخ في ضوء علمه بها، وتصوره لها، وتعبيره عنها. لاشك انها الحقيقة. ولكنها ليست الحقيقة الحرفية المطلقة كما هي في حد ذاتها. بل انها الحقيقة النسبية

والصورة التقريبية كما ابصرها وفهمها واستخلصها ورسمها المؤرخ. وتلك هي الحقيقة الوحيدة المتاحة والمتيسرة والممكنة التي يستطيع الانسان ان يدركها وان يمتلكها، وان يستعين بها، ويلجأ لها، ويستفيد منها، في ثقافته العقلية وحكمته التاريخية وحياته العملية، على حد سواء. ومن هنا، نعرف لماذا يقال: ان الدراسة التاريخية هي الصورة المعبرة عن المؤرخ، فكرا وعصرا، تماما كما انها الصورة المعبرة عن الماضي، انسانا وزمانا، كما يراها ويعرضها المؤرخ، في وقت واحد. دعوني اضرب لكم واعرض عليكم مثالا واحدا من خبرتي الشخصية وتجربتي العلمية، يوضح مااقصده، ويكشف ماأعنيه. انني الان استعيد في بالي واسترجع في خاطري ماخامرني من شعور بالقلق وماساورني من احساس بالاضطراب بعد ان فرغت من تأليف كتابي الاول عن تأريخ الاشهر المبكرة من العلاقات السوفيتية ـ الامريكية في سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨. واتذكر الان جيدا ان الموقف قد راعني وارعبني حينذاك. وسألت نفسي في تلك الفترة النائية البعيدة: رباه، ماذا عساني ان اكون قد فعلت؟ لعلني لم اكتب تاريخا حقيقيا، بل كتبت قصة حبكها ونسجها وابتدعها خيالي؟ وربما كانت الوثائق والتقارير التي طالعتها ودرستها في حينه، قد استثارت خيالي، والهمته وانارت جنباته وزودته بالمعلومات والتفاصيل. ولكن، مع ذلك، يبقى الخيال خيالا، والواقع واقعا، وما اوسع الفجوة وابعد المسافة بين هذين العالمين.

هكذا شعرت واحسست حينذاك. ولكنني اعتقد الان، بعد مرور وانقضاء عقود طويلة عديدة متعاقبة من الزمن، انني بالغت في الشعور بالرعب والاحساس بالخوف، دون حاجة ولاضرورة. لانني كنت في تلك الدراسة قد اطعت قواعد واصول مهنتي كمؤرخ ما وسعني وامكنني. وفي مقدمة تلك القواعد والاصول مايتعلق بأحترام الحقائق والتزام الحدود، طوعا واختيارا واقتناعا، والامتناع امتناعا واعيا وصارما ومطلقا عن التحايل عليها والاستخفاف بها والابتعاد عنها والتنصل منها. ولعل المؤرخ

يتميز عن سواه من طلاب العلم واصحاب القلم بالحدود والضوابط والمقاييس التي يؤمن بها ايمان المؤمن بربه، ويحرص عليها حرص الناسك على نسكه والزاهد على زهده والورع على ورعه، وينطلق منها انطلاق السهم من قوسه او النغم من عوده او الماء من نبعه. وتلك الحدود والضوابط والمقاييس هي العروة الوثقى للدراسات التاريخية، والعلامة الفارقة الاساسية التي تميزها عن الاشكال الاخرى من الادبيات المكتوبة.
وعلى خلاف الفنان او الاديب، لايحق للمؤرخ ان يطلق خياله من عنانه او يلقي حبله على غاربه. لانه ملزم بأحترام التسلسل الزمني او التعاقب التاريخي للوقائع والاحداث، كما تكشفه الوثائق، وحتى لو كان متناقضا او مضطربا او مشوشا. ولايمكن للمؤرخ ان يغير ترتيب الحقائق او يعيد تشكيل الوقائع للحصول على تأثير درامي او فني، كما يفعل كاتب القصة او الرواية مثلا. ومن هنا، ينبغي على المؤرخ ان يأخذ الشخصيات كما يجدها بالفعل، على علاتها، وبكل وجوهها المختلفة وجوانبها المتعددة والوانها وظلالها الواقعية المتضاربة. وليس في وسعه ان يبتدعها من تصوره ويبتكرها من خياله بتكوين شخصية جديدة من شمائل وخصال متفرقة اشتقها واستمدها من شخصيات حقيقية عديدة مختلفة عرفها بالفعل.
وتختلف الحقيقة التاريخية التي يطلبها المؤرخ، ولو انه لايحققها الا تحقيقاً نسبياً تقريباً وليس كلياً كاملاً كما رأينا، اختلافا جذريا عن الحقيقة التي يطلبها القصاص او الشاعر. لاريب انهما يطلبان الحقيقة ايضا. واحيانا يطلبان ربما حتى الحقيقة التاريخية. كما ان فنهما يقوم على ضوابط وحدود ومقاييس يحترمانها ويحرصان عليهاويلتزمان بها. ولكنهما يطلبان حقيقة اخرى غير الحقيقة التاريخية بالنوع والطبيعة، وربما كانت اعمق جذرا في الوجدان وابعد غوراً في النفس. وخلاصة القول، ان القصاص او الشاعر يطلب بالدرجة الاولى الحقيقة على مستوى الوجدان الموهوب والشعور الملهم والاحساس المرهف والخيال المبدع والتصور الخلاق، ويطلب، ان طلب، بالدرجة الثانية الحقيقة على مستوى الواقع الموضوعي والوعي

العقلاني والادراك المنطقي والمنهج العلمي والدليل المادي. ويختلف موقف المؤرخ في ترتيب هذين المستويين، ويأتي على العكس تماما. لان المؤرخ يطلب بالدرجة الاولى الحقيقة التي يطلبها القصاص والشاعر بالدرجة الثانية، ويطلب بالدرجة الثانية الحقيقة التي يطلبانها بالدرجة الاولى.

ويحدث احيانا، اتفاقا وعرضا، ان المؤرخ، او مؤرخ واحد معين بالذات على الاقل (يقصد شخصه ويعني نفسه ـ المعرِّب)، قد تستولي عليه، وتتحكم به، العناصر الدرامية او الجوانب المأساوية في الموضوع الذي يدرسه ويكتبه، فتستهويه وتغويه. وحينذاك، قد يشعر بضعف طاريء ويستسلم الى اغراء شديد، وربما خرج عن حدود الاختصاص خروجا قليلا محدودا، وتطفل على صلاحيات القصاص تطفلا جزئيا عابرا، ايضاحا للصورة التي يرسمها، وتركيزا للحالة التي يدرسها، وتأكيدا للحقيقة التي يكشفها، واستكمالا للفائدة التي يتوخاها. وقد تعرضت شخصيا بالفعل الى تجربة طريفة من هذا النوع في آخر كتاب من كتب التاريخ فرغت من تأليفه مؤخرا. وفي هذا الكتاب، وصفت مراسيم تشييع ودفن جثمان (نيكولاس كيرز) الذي كان رجلا من رجال الدولة في روسيا القيصرية، كما كان وزيرا للخارجية في عهد القيصر الاسكندر الثالث. ورسمت صورة قلمية للاجواء المناخية والعاطفية البائسة التي خيّمت على تلك المراسيم. وأوضحت ان الوزير (كيرز) كان رجلا محدود المواهب متواضع القدرات طيب النوايا حميد الاخلاق. وقد شعرت بالتعاطف مع المساعي التي تولاها والجهود التي بذلها. ولكنه كان انساناً سيء الحظ منكود الطالع، عاش حتى سبقه الزمان وفاته الاوان، فأصبح نسيا منسياً حتى قبل ان يموت ويشيّع ويدفن. وقد وصفت الموكب الجنائزي كما يلي بالحرف الواحد: «وقد وضع جثمان كيرز في كنيسة دير منعزل يسمى (سيرجيفسكا بوستين)، يطل على سواحل خليج فنلندة، ويقع على الطريق المؤدي الى (بيتر هوف)، في اليوم الواحد والثلاثين من شهر كانون الثاني سنة ١٨٩٥ م. وقد شيعه عدد قليل من الاقرباء العائليين

والموظفين الرسميين. وكان اليوم يوما صافيا وكالحا من ايام الشتاء القارص. وكانت الثلوج قد تساقطت من السماء بكثافة في الليلة السابقة. وهبّت رياح باردة لاسعة البرودة من مياه الخليج التي تجمدت. ولاشك ان تلك الحفنة الصغيرة من المعزين والمشيعين قد اسعدها ان تنتهي تلك المراسيم المزعجة بسرعة فائقة، للرجوع حالا الى القصور المريحة والصالونات الدافئة، والشروع فورا بمراسيم دفن اخرى من نوع مختلف، تبدأ بتناول كأس من الفودكا الذي يبعث الحرارة في الاوصال، هي مراسيم دفن الذكريات الثقيلة المملة عن رجل دولة ابتلعه الزمان وطواه النسيان، لانه حقق اقل مما يجب وعاش اطول مما يجب».

وبودي ان اعترف علنا الان انني لاستطيع ان اجزم يقينا او اقسم يمينا ان رياحا باردة كانت قد هبت بالفعل من مياه خليج فنلندة في اليوم الذي وصفته من ايام الشتاء. ولكنني افترضت ماافترضته، وتصورت ماتصورته، انطلاقا من حيثيات مقنعة وقرائن مقبولة واسباب وجيهة. لانني كنت قد عشت ذات مرة لمدة ستة اشهر على سواحل ذلك الخليج. وقد استعدت في مخيلتي ذكريات قديمة وانطباعات دفينة عن الرياح الباردة التي تهب عادة في تلك المنطقة وفي تلك الفترة من فصول السنة. كما انني تجشمت عناء الرجوع الى تقارير ونشرات الانواء الجوية في صحف وجرائد المدينة التي كانت تسمى حينذاك (بيتر سبورغ)، وتسمى الان (لينينغراد)، التي صدرت في اليوم المقصود. فوجدت ان اليوم كان باردا بالفعل، وان الثلوج كانت في الواقع قد هطلت. ولكنني لاامتلك دليلا قاطعا او نصا صريحا يثبت ان الرياح كانت هبت في حينه كما وصفت. وينبغي ان اعترف ايضا انني في الوصف الذي كتبته قد تجاوزت حدود اختصاصي الحقيقي كمؤرخ.

واملي ان هذه الزلة الصغيرة لاتعدو ان تكون هفوة بسيطة او كبوة عابرة، اخرجتني سهواً وعفواً عن اصول الحرفة وقواعد المهنة، دون ان تترتب عليها نتائج خطيرة، او تنجم عنها اضرار فادحة، او تقترن بها

اخطاء اساسية. وهي من نوع المغريات التي يـواجهها المؤرخ احيـانا، ويتعرض لها، ويعاني منها. وبوجه عام، يمكنني ان اقول انني في الوصف الذي كتبته كما تقدم، قد التزمت كمؤرخ بالضوابط الاساسية المتفق عليها والمعمول بها في حقل اختصاصي، كما ينبغي ان يفعل كـل مؤرخ على الاطلاق. ومن اهمها وابرزها دون جدال، الامتناع امتناعاً منهجياً واعياً صارماً عن الطفر الى الفرضيات التي لاتدعمها الوقائع او الاستنتاجات التي لاتقرها ولاتبيحها ولاتبررها الحقائق. واذا كنت قد شعرت احيانا وفي لحظات معينة نادرة ان تلك الضوابط قد قيدت من حريتي وحددت من حركتي وقللت من مرونتي، فأنني قد وجدت بالتجربة في النهاية ان تلك الضوابط نفسها كانت مصدرا للمتانة والصلابة ومبعثا للقوة والمصداقية في الكتب والابحاث والدراسات التي انجزتها واكملتها ونشرتها. وليس في مقدور كل من هب ودب، او احب ورغب، او أمسك بالقلم وكتب، ان يرخي اللجام للعاطفة او ان يطلق العنان للمخيلة، او ان يبيـح للطاقة الوجدانية المتوثبة المحلقة ان تندفع الى حدودها القصوى واشكالها النهائية، دون قيد ولا شرط، ودون ضبط ولا ربط، كما يفعل الشاعر او الفنان او كاتب المسرحيات والقصص. فتلك هي حالة صعبة وظاهرة نادرة ومهمة شاقة عسيرة، لايتولاها الا المؤهلون لها، والقادرون عليها، ولايحققها الا المبدعون الموهوبون، وماقلهم، الذين اختاروا مصائرهم بـأنفسهم لان الاقدار كانت قد اختارتهم واصطفتهم. واذا كانت المسافة بعيدة والشقة واسعة والطبيعة مختلفة بين العلم والوهم او الحلم، فما احرانا واجدرنا ان ندرك ان الفرق بين الحلم والوهم اوهى من خيط العنكبوت واضيق من خرم المخرز وادنى من حبل الوريد. ومن هنا، كان اكثرنا، نحن البشر، يحتاج حاجة ماسة وضرورية الى الحدود الواضحة والضوابط الخارجية التي تبقينا على تماس موصول بالحقائق الموضوعية الواقعة، وتحمينا من الزلل، وتمنعنـا من الشطط، وتبعـدنا عن مهـاوي ومتاهـات الهـوى والتعصب والغرور. وتأخذ تلك الحدود والضوابط شكلاً منهجيـاً معيناً او مفهـوماً

معرفياً دقيقاً في علم التاريخ واختصاص المؤرخ، يقوم اصلا واساسا على الالتزام المطلق بالوقائع الموضوعية الثابتة، والاحترام الفائق للحقائق التاريخية المشهودة. وليس هذا الالتزام او الاحترام، في تقديرنا واعتقادنا، وضعاً سيئاً او شرطاً سلبياً او قيداً خانقاً ثقيلاً. لقد كان (غوتة) شاعرا، وليس مؤرخا. ولكنه لاحظ ذات يوم في عبارة حبلى بأعمق المعاني والدلالات، ان العظمة الفنية العبقرية الحقيقية الرائعة المتميزة الخالدة، تكشف عن نفسها بالتحديد في الضوابط التي يلتزم بها الفنان طوعاً، ويستجيب لها اختياراً، ويصدر عنها حراً طليقاً. دعونا اذن نواصل هذه المسيرة الانسانية جميعاً، يدا بيد. الشاعر او القصاص او الروائي الذي يحلق في الاجواء البعيدة والقمم العالية ويتطلع بالخيال الملهم الى الجمال المطلق، جنباً الى جنب مع المؤرخ الذي ينقب ويتقلب بالصبر الجميل والنفس الطويل بين الوثائق التي غطتها الغبرة والمخطوطات التي علتها الصفرة، مثل طائر مقصوص الجناحين غير قادر على الطيران او التحليق وقدره المكتوب الوحيد ان يلتصق بالارض التصاقا ابديا، ولكنه، مع ذلك، يبحث عن الحقيقة ايضا تماما مثل الشاعر او القصاص او الروائي، ولو انه يتطلع اليها ويبحث عنها بصيغة اخرى وطريقة مختلفة، واحيانا يكتشفها. وتلك هي العروة الوثقى او الغاية المشتركة للمؤرخ والفنان معا. لان كلا منهما يشارك بنصيبه ويساهم بقسطه في تقديم العون الى الانسان ومساعدته على ان يرى ويدرك طبيعة ذاته وحقيقة كينونته وغاية حياته. الفنان يساعد الانسان على معرفة النفس في ضوء التجارب الشخصية والعاطفية والوجدانية للافراد والمجتمعات. والمؤرخ يساعد الانسان على معرفة النفس في ضوء التجارب الماضية للاسلاف والاجيال الغابرة والقديمة والسابقة، وفي ضوء اثار الاقدام التي تركها اجداده على رمال الزمان، وهم بشر مثله سواء بسواء. وتختلف تلك الجهود والادبيات المكتوبة في المنهج الذي تعتمده، والاسلوب الذي تتبعه، والطريق الذي تطرقه، والشكل الذي تستخدمه، والهدف الدقيق المباشر الذي تتوخاه.

ولكنها تشترك كلها في الرغبة العامة والغاية الشاملة بالتأكيد على معرفة النفس والبحث عن حقيقة الانسان. وفي هذا العصر الحائر والمضطرب، المفعم بالهموم والمحفوف بالاخطار، وقد اصبح مصير وبقاء واستمرار الحضارة نفسها موضوعاً مثيراً للقلق والخوف، كما لو ان اقداراً رهيبة غاضبة قد وضعته رهينة في الايادي الانسانية المرتجفة الضعيفة التي اساءت له كثيرا ونالت منه طويلا، اي واجب اقدس، وأي عمل اشرف، واي التزام انبل، واي مجد اعظم، من مساعدة الناس في كل مكان من البسيطة على معرفة انفسهم بوعي عقلاني حكيم شجاع، كما هم بالفعل على حقيقتهم؟ واي جيل من البشر، في جميع الاجيال التي تعاقبت ورحلت ومضت وانقضت وانتهت، كان احوج الى مراجعة الذات ومعرفة النفس ومواجهة الحقيقة، من جيلنا نحن معشر البشر الذين شاء سوء الطالع وحسن الحظ معا ان ننتمي الى هذا القرن العشرين بعد الميلاد من التاريخ الانساني؟

السيرة العلمية والعامة للمعرِّب في سطور:

(١) ولد سنة ١٩٣١ في بغداد.

(٢) طلب العلم في الجامعة الامريكية في بيروت بتخصص عام في الفلسفة والسياسة (١٩٤٩ - ١٩٥٣). والتحق بجامعة اكسفورد في بريطانيا بتخصص دقيق في الفلسفة اليونانية القديمة (١٩٥٤ - ١٩٦٠).

(٣) بدأ بالتدريس في قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة بغداد، في سنة ١٩٦٢، ولايزال مستمراً حتى الان. وشارك في تأسيس فرع الدراسات العليا بالقسم، والقى المحاضرات في السنة التحضيرية على دورات متعاقبة، واشرف على الرسائل والاطروحات وساهم في مناقشتها واجازتها.

(٤) كتب كثيرا وحاضر طويلا ونشر قليلاً من الابحاث في الدراسات الفلسفية والاستراتيجية والتاريخية والسياسية والفكرية والثقافية. وشارك مدعوا ومحاضراً في العديد من المؤتمرات القطرية والعربية والاجنبية.

(٥) عضو اللجنة التحضيرية العليا للجبهة التعليمية الموحدة في انتخابات نقابة المعلمين العراقيين سنة ١٩٦٢.

(٦) مستشار صحفي بسفارة الجمهورية العراقية في لندن للفترة من (١٩٦٣ - ١٩٦٧).

(٧) مدير الصحافة بوزارة الاعلام (١٩٦٧).

(٨) رئيس تحرير جريدة (الثورة) وعضو مجلس ادارة المؤسسة العامة للصحافة في بغداد للفترة (١٩٦٧ - ١٩٦٨).

(٩) عضو الهيئة الادارية للاتحاد العام للمؤلفين والكتاب العراقيين للفترة (١٩٧٣ - ١٩٧٧).

(١٠) رئيس قسم الفلسفة في كلية الاداب بجامعة بغداد للفترة (١٩٧٥ - ١٩٧٨).

(١١) رئيس الهيئة الادارية لقطاع التعليم العالي بفرع بغداد لنقابة المعلمين العراقيين، وممثلاً للنقابة في مجلس جامعة بغداد الموقر (١٩٨١ ـ ١٩٨٢).

(١٢) تفرغ علميا في السنة الدراسية ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ في جامعة كاليفورنيا بمدينة لوس انجيليس في الولايات المتحدة الامريكية. والقى العديد من المحاضرات في تلك الجامعة في حينه، وكذلك في مؤسسة (راند) للدراسات والابحاث بضاحية (سانتا مونيكا) في تلك المدينة.

(١٣) يعمل حاليا استاذاً مساعداً بقسم الفلسفة في كلية الاداب بجامعة بغداد. ويتولى تدريس مادتي الفلسفة اليونانية القديمة وفلسفة التاريخ حصراً وتحديدا واقتصاراً. ولكنه يولي اهتماما اعظم واشد للدراسات الاستراتيجية والفلسفات اليونانية القديمة قبل سقراط تفضيلاً وتخصيصاً واختياراً.

(١٤) قام طوال سنوات عديدة متعاقبة، ولايزال يقوم حتى الان، بتقديم الاستشارات العلمية الدقيقة والمتخصصة الى الوزارات والدوائر، اما بتكليف رسمي او بطلب خاص. ومن اهمها وابرزها وزارة الخارجية وجامعة بغداد وسواهما.

طَبعُ الدَّارُ العَرَبيَّةُ - بَغدَادُ

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ١٢٦٢ لسنة ١٩٨٨

السعر: ثلاثة دنانير عراقية
او مايعادلها.

طبع الدار العربية - بغداد



١٩٨٨